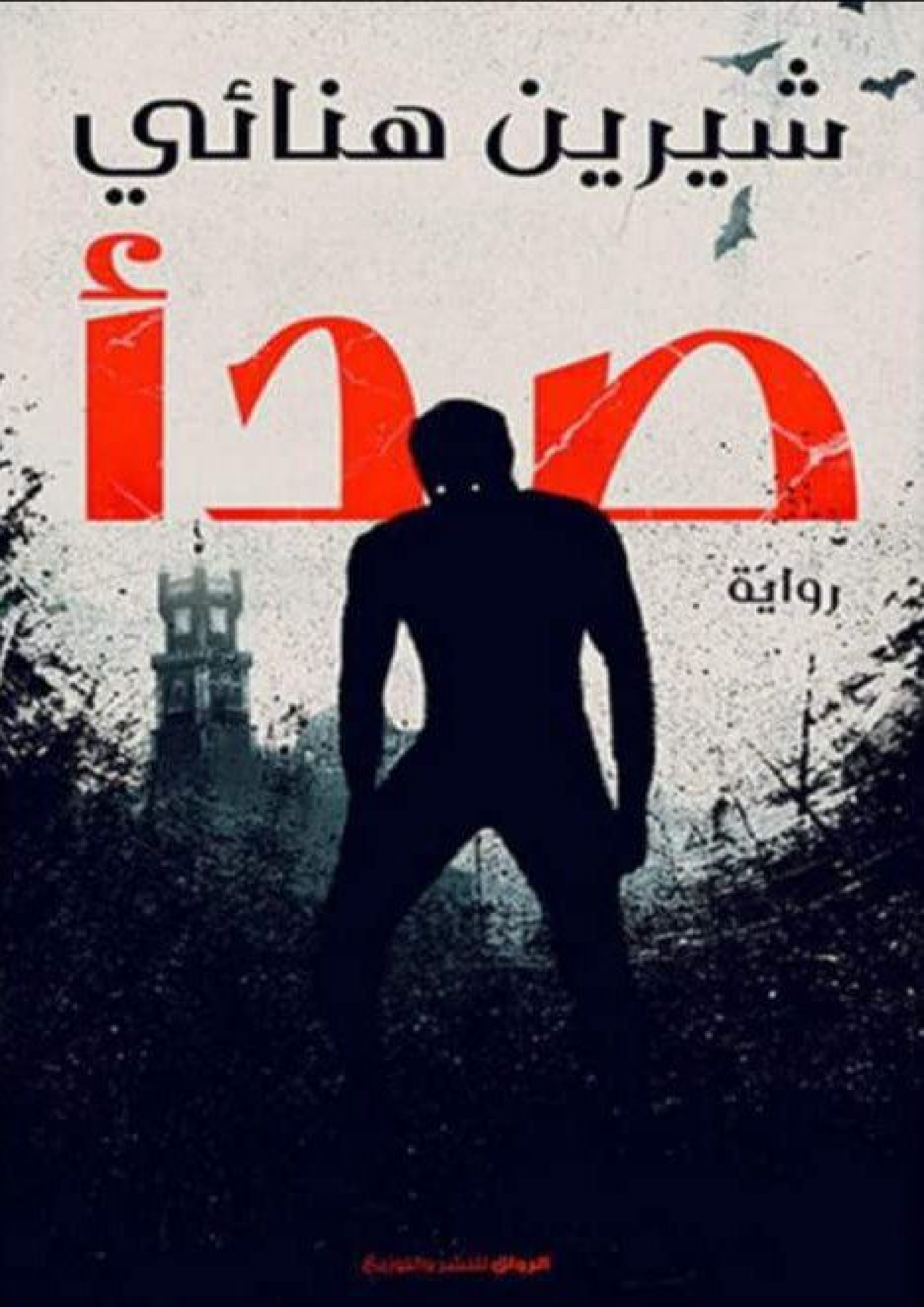

شيرين هنائي
صدأ
رواية

البحث عن الذات رحلة شخصية، لم أتوقع أن يكون الطريق سهلًا، لكنني فزعت حين رأيت أهوالًا تفوق ما يحكونه في روايات الرعب.

فجأة، انقطعت بي السُبُل، لا أستطيع التفرقة بين الحقيقة والوهم، لا أقدر على العودة أو التَّقدُّم..

ظلام.. برد.. خِذلان.. صدمة.. عَدَم..

ووجدتك مرة أخرى بجواري، كأنك تعرف ذاتي أكثر مني، كأنك كنت معي منذ وُلدت، كأنك روحي وقد شُفيت من كل الطعنات وعادت إليَّ لتُنقذَني..

إليكَ، إلى روحي الجديدة، إلى زوجي.

إلى كل روح مُعذّبة لا تعرف جريرتها..

إلى كل مَن شعر يومًا أن روحه مُعطلة، فاسدة، مُثقلة بالصدأ..

إليـنـا.

الدقي - الجيزة

لو كفر من في الأرض جميعًا بوجود الأشباح، لكان رامز دميري هو المؤمن الوحيد.

الشقة تعود كما كانت، اللوحة ما عادت قادرة على احتواء الأشباح الغاضبة. وكلما تأخر في الخلاص منها، ازدادت وصارت جزءًا من كيانه، لن تفنى سوى بفنائه.

ثلاث طرقات..

يذكر الآن رائحة الدماء والصراخ من الطابق السفلي..

كيف غفر لنفسه تغافله؟ كيف؟!

خلال أقل من شهر، خسر كل شيء، واكتشف أنه لم يكسب شيئًا كذلك طيلة حياته. كل ما عاشه خُدعة، وهم، شبح لحياة ماتت منذ زمن.

ثلاث طرقات تعني أنه موجود، وأنه قادم..

في اليوم الثاني من أبريل، تمنى «رامز» الموت، لكن هل يموت أحد مرتين؟

***

كاتانيا - صقلية ١٩٦٩م

كانا يتحدثان الفرنسية، فيفهم وتفهم.. إلا أن الكلام لم يكُن ضروريًا بينهما من الأساس.

قالت إنها تنتظر مرور قافلة الهيبيز لتلحق بها، كانت تتوق للسفر والابتعاد عن كل شيء، تتوق لطول الغُربة وللحرية وللشرق الساحر بعيد المنال.

تغرس قدميها في رمال البحر وتربط عصابة مزدانة بالأصداف

الصغيرة حول رأسها، تبعثر شعرها الأشقر الأشعث في الهواء وتضحك.

كي يرسمها، كان يريد منها الثبات لساعات، لكنها لم تكُن لتثبت إلا لو ثبتت الرمال وسط تقلبات الموج. كانت عاصفة ولم يكُن هو من الغباء كي يفكر في وسيلة لإخضاعها.

ثلاثة أعوام قضاها «حسين» في إيطاليا، جاء دارسًا للفنون الجميلة ولم تقبل به الأكاديميات العتيقة في ميلان وروما، حتى فتحت أكاديمية الفنون في كاتانيا أبوابها للطلبة عام ١٩٦٨م فالتحق بها متعجلًا، خشية أن يطلب منه أبوه العودة إلى مصر في أقرب وقت.

لم يكُن فنانًا استثنائيًا، لم يكُن فنانًا من الأساس.. لكن حلم السفر كان أقوى من كل شيء. أن يرى ويسمع ويشعر.. أن يجوب العالم، أن يعبُر إلى ما وراء حدود العالم بأسره.

عامين قضاهما ينفق من أموال أبيه بحثًا عن حياة لا يعرف لها وصفًا، لكنه ظن أنه سيعرفها حين يراها. كان يبيت في الشارع عمدًا، تاركًا دفء الشقة التي استأجرها كي يشعر بالبرد، بالخوف، بالإثارة.. كي يرى انعكاس الأضواء على التماثيل الأثرية المبللة، كي يسمع ألحان العازفين الجوّالين ودقّات أحذيتهم على أرضية الحواري الحجرية والهواء المُحمّل برائحة القلي والجُبن وأشجار الليمون.

يعاني «حسين» عطشًا أبديًا لإرواء الحواس، طيلة الوقت لم يكُن يشعر أنه قد اكتفى من المشاعر وأن ثَمّةَ مشاعر مخفية لم يختبرها ولن تمتد حياته كي يفعل.

من وقتٍ لآخر، كان خجله الفطري يمنعه من التذوق، من النظر، من الاشتهاء. حين تمدّدت «بريجيت» أمامه على الشاطئ ليلًا، عارية إلا من شالٍ مغزول يُظهر أكثر مِمَّا يُبطن، أشاح بنظره بعيدًا واحمرت أذناه وابتسم. طلب منها أن ترتدي شيئًا كي يرسمها، وطلب منها أن تثبت.. لكنها لم تفعل كلا الأمرين.

لكنها جلست أخيرًا مولية إيّاه ظهرها، ونظرت إليه من فوق كتفها نظرة دلال. كانت جورية ملتفة بشبكة صياد خجول.

من وسط حلقة الشموع همست:

- هيا.. ارسم..

لم يكُن فنانًا استثنائيًا. لم يكُن فنانًا من الأساس.. لكن أي فنان لم يكُن ليقدر على حبس كل تلك الحياة بأبعادها في لوحة من بُعدين.

بعد أسابيع قليلة، ستفر قافلة الهيبيز وسترحل «بريجيت» معهم كما جاءت من فرنسا مع غيرهم.. هل ستعود إليه؟

كانت ترغب فيه، كان هو الشرق القديم الأصيل الذي لن تمر عليه قافلة الهيبيز في رحلتها.

وكان يخشاها، كانت المستعمر القاسي، ولن يرضى باحتلال يسلب قلبه البكر.

رقصة تانجو دامت شهرًا ونصف الشهر بينهما، كر وفر، إقدام وإحجام، ولم يكُن فنانًا ولا راقصًا استثنائيًا، ولم يكُن مقاتلًا كذلك.

- ألن ترسمني؟

ضحكت، وتركت الشال يطير متواطئًا مع الريح التي أبعدته وأطفأت الشموع في هبة واحدة، فألقى فرشاته واستسلمت حصونه.

* * *

الستينيات تنتفض، وتضخ في العالم دماء فتيّة جديدة.

كل شيء ملون، واضح، ثوري. العالم ينفتح على بعضه، التكنولوجيا تهدر وتخلق ما لم يخطر ببال.

وعالم «حسين» عالم مهتز مرتعب، لا يرى سوى ظلال الحرب الباردة وحرب فيتنام، والرأسمالية تعبر المحيط وتجتاح غرب أوروبا مهددة،

مخبئة الأمن وسط فنون إيطاليا ودفئها. هل سينسحق بين زحف رأسمالي غربي وتفشٍّ شيوعي شرقي؟ هل يفر مجددًا؟ وإلى أين؟

قالت «بريجيت» إن لديها الحل، الحب لا الحرب.. الحرية لا القمع..

في ظروف كهذه وُلد مجتمع يعشق الألوان وتيجان الورد، مجتمع الهيبيز. وُلد نمط جديد من الحيوات يمزج الموسيقى والكحول والمخدِّرات بالحرية والحق في الحياة، حافٍ أشعث الشعر ممتزج بالأرض والهواء والطبيعة.

شاهد «حسين» حفل «صيف الحب» عام ١٩٦٧م في التلفاز حين ارتجّت الأرض بالموسيقى والصيحات التي كاد يقسم إنه قد سمعها تعبر المحيطات من الولايات المتحدة إلى صقلية. رائحة الخمر ودخان الماريجوانا والعرق وزخم الألوان.. كل ما يداعب حواسه النَّهمة مُجسدًا تحت راية واحدة.

ثم عبرت قوافل الهيبيز التي تحمل الحب والسلام والحرية أوروبا متجهة إلى آسيا.. بعضهم كان يسافر بالحافلات الـ«فولكس فاجن» الملونة، وبعضهم كان يسافر بطريقة الـ«أوتوستوب». يقفون على الطريق ويشيرون للسيارات العابرة طلبًا لتوصيلة إلى أي مكان يقربهم لوجهتهم.

ومع قافلة من تلك القوافل جاءت «بريجيت»، عاشقة الشرق.

على شاطئ «لا بلايا» قابلها، كانت ضمن مجموعة من أصدقائها وصديقاتها يستمعون إلى أغنية سان فرانسيسكو، تلك الأغنية التي غناها سكوت ماكينزي في حفل صيف الحب، والتي علَقت في عقله من يومها:

«جيل كامل يتحرّك عبر العالم في موجة عارمة..

تحمل تفسيرات مختلفة..

إلى من سيأتون إلى سان فرانسيسكو..

تؤجوا رؤوسكم بطوق الأزهار..

إن كنت ستأتي إلى سان فرانسيسكو..

فستجد في صيفها حُبك».

كانت «بريجيت» ترقص وتُطعم كلبًا أبيضَ قذرًا يتقافز حولها، ترتدي نظارة شمسية صفراء وبنطالًا قصيرًا من الجينز فوق رداء بحر زاهٍ من قطعتين.

لا يعرف ما الذي جذبه فيها هي بالذات، ولا يعرف لِمَ توقفت عيناها من خلف نظارتها الملونة على وجهه الأسمر وشعره الأجعد المنفوش وشاربه متدلي الحواف حول شفتيه. كان يدندن الأغنية بصوت عالٍ، وصمت فجأة حين تقدمت إليه وجلست في تلقائية وقالت بالإنجليزية:

- تشبه «إخناتون». مصري؟

- أجل.. كيف عرفتِ؟

- زرت مصر مرارًا ولم أحظَ أبدًا بصديق منها. وها أنا أجده على شاطئ في صقلية! لم أعد أومن بالصُّدَف منذ زمن، وأنا متأكدة من أننا هنا لسبب مهم.

- أنتِ فرنسية بالتأكيد، لكنتك الإنجليزية بشعة!

- وأنت كذلك! لكننا نفهم بعضنا البعض.

- يمكنك التحدث بالفرنسية، أنا أتحدثها بطلاقة.

قالت بالفرنسية وهي تضحك:

- ألم أقُل لك؟! وجودنا هنا ليس صدفة.

تحدثا وسمح لها بتفحُص أدوات الرسم الخاصة به، التي كان يصحبها

معه في كل مكان كي تذكره بأي هوية يتشبث بها. هو فنان، عليه أن يتصرف ويشعر كالفنانين، وإلّا سيعود حسين الرافعي، ابن الجواهرجي السكندري الشهير عصمت الرافعي، ولا شيء سوى ذلك.

لم يُرِد «الرافعي» لابنه البكري أن يشُذ عمَّا رسمه له من حياة، هي امتداد لحياة «الرافعي» نفسه وتكرار لأخطائه، لكن زوجته هددته بأن تموت حسرةً على ابنها لو أنه كسر قلبها ولم يرسله لدراسة الفن في أوروبا، مثله مثل أولاد صديقاتها.

وقد فعل «الرافعي»، لا خوفًا على زوجته من الحسرة، وإنما هربًا مِمَّا ستفعله حتى تموت محسورة.. لن تموت «آمال» في سلام أبدًا.

* * *

أرسل «حسين» خطابًا إلى أمه، ثم عرج على البقال يشتري عشاءً وهو يجر قدميه جرًّا.

لقد رحلت «بريجيت». لم تَعِده بالبقاء، لم تَعِده بالعودة، فلِمَ تخيَّل أن شيئًا سيتغير في حياته البائسة؟ لِمَ تعشَّم في وجهها الشبع من الحياة والارتواء أخيرًا من بعد طول عطش؟

أربعة أشهر مرت على غيابها ولم يتلقَّ منها خطابًا واحدًا. هل كان وجودهما في المكان ذاته صدفة لا أكثر؟

«بريجيت» مُخطئة، والحياة أكثر عبثية من أن يكون لكل حدث مغزى وغاية.

تمر قوافل الهيبيز بدراجاتهم البخارية وحوافلهم الملونة وصخبهم، يروحون ويجيئون، ينشرون عدوى الحب والسلام. يُرسل لها خطابات على عنوانها في فرنسا، فلو عادت ستقرؤها، وإن لم تعُد... إن لم تعُد؟!

في الأكاديمية، كانت المحاضرات ثقيلة والهواء المُحمَّل بالرطوبة يجثم على فؤاده المُعتل. يجلس فوق السور متربعًا، مدخنًا سيجارته،

رامقًا المارة بألوانهم الزاهية والموسيقى تصدح من حوله، كاذبة، قاسية:

«إن كنت ستأتي إلى سان فرانسيسكو..

فستجد في صيفها حبك».

اللعنة على تلك الأغنية.. اللعنة..

في الأمسيات التي لا يكون لديه ما يدفن فيه لوعته، كان يذهب لزيارة «توماسينو»، عامل النظافة الشاب، وصديقه الأقرب والأوحد، في الكرفان الذي يعيش فيه. كان المكان الضيق مفروشًا بالطنافس الملونة والأبسطة الصغيرة المغزولة يدويًا من صوف الأغنام.

وعندما تطرأ فكرة لوحة جديدة لـ«توماسينو» فإنه يرسمها مباشرة فوق طلاء الكرفان وبابي الشاحنة التي تجرُّه. «توماسينو» كان فنانًا حقيقيًا لا يملك المال لدراسة الفن، لكنه يملك الروح المتوهجة التي تدفعه إلى ممارسته.

في الليل، يجلس «توماسينو» و«حسين» فوق سطح الكرفان، يدخن «حسين» لأول مرة الماريجوانا. يسحب أنفاسًا متتابعة من سيجارته الثانية ثم يتمدد على ظهره ناظرًا إلى السحب.

سطح الشاحنة مزدان برسوم لأزهار وعلامات النصر وأوراق الماريجوانا والنظارات الشمسية الملونة. جنة من الصفيح الملون يغوص فيها «حسين» وهو يستمع إلى تهويمات «توماسينو» تحت تأثير المُخدر.

ـ لم أعد أذكر لون الشاحنة الأصلي.. السيارة المسكينة مغطاة بعشرات الطبقات من النزوات والمخاوف والحب والجنون. تفتقر إلى الذكريات القديمة، مثلي تمامًا.. أذكر اليوم وأمس.. ربما أميز في عقلي بعضًا من أحداث شهر مضى لا أكثر، سرعان ما يندثر الماضي تحت

طبقات جديدة من مضارع مستمر.. مستمر.. انسَ الأمر يا «حسين»..

صوت غطاء البيرة يُفتح، برودة تتسرب إلى أصابع «حسين» تزيل أثر جسد «بريجيت» الدافئ من عليها.. مؤقتًا.

انسَ الأمر يا «حسين».. انسَ الأمر.

* * *

كاتانيا ـ صقلية

أبريل ١٩٧٠م

على الرغم من سوء الأحوال الاقتصادية في مصر بسبب حرب الاستنزاف، فإن «حسين» لم يشعر بتأثر تجارة أبيه لحظة سوى اليوم.

تلقى برقيتين، رفعته واحدة إلى عنان السماء، وتردّت به الأخرى إلى أسفل سافلين.

«بريجيت» ستصل إلى كاتانيا في وقت ما في نهاية أبريل.. «بريجيت» عادت وتذكُره على الرغم من غياب طال سبعة أشهرٍ كاملة..

أما أبوه فقد قُبض عليه في قضية تهريب، وتُوفي إثر جلطة في المخ.

هو الآن وحيد، بلا عمل وبلا مال.. عليه العودة إلى مصر أو الهرب للأبد في أراضي إيطاليا. يمكنه أن يجد عملًا ويتزوج «بريجيت»، لن يتركها تفلت منه مرة أخرى.

وأمه؟ ستعتني بنفسها، ستعود إلى أهلها وسيعرفون كيف يتصرفون، أما هو فوجوده في مصر وعدمه سواء.

«توماسينو» يتنقّل بين الأعمال المختلفة، لكنه دومًا يعود إلى العمل في مزارع العنب. عدد كبير من المصريين يعملون هناك وتبدو أحوالهم المادية في انتعاش دائم.

سيعمل طيلة الصيف ويدّخر مصاريف الأكاديمية، ربما يعمل في

إحدى المكتبات أو المقاهي في أثناء فترة الدراسة.. ربما يترك الدراسة ويتزوج «بريجيت» ويسافر معها إلى فرنسا.. ربما.. كل ما كان يدركه وقتها هو أنه متكوِّم على الأرض في ركن حجرته، تحت قدميه الحافيتين برقية موت، وفي يسراه برقية حياة، وفي دمه تفعل الماريجوانا أفاعيلها.

ينظر إلى برقية «بريجيت» ويقهقه، بينما تغمر الدموع وجنتيه. يهدر صوت بداخله: أخيرًا أشعر بشيء! أخيرًا!

الماريجوانا تحرره من قيود الخجل واللوم والشعور بالذنب، الماريجوانا تريه ألوانًا وأصواتًا لم يرَها من قبل، وعمَّا قريب سيرشف «بريجيت» رشفًا ويتمتع بكل قطرة فيها.

عمَّا قريب سيحيا.

* * *

كان العمل في مزارع العنب هينًا، إلا أن «حسين» لم يكُن معتادًا قسوة الشمس ولا العمل اليدوي من الأساس. خلال أيام كان يختلس لحظات يطلق فيها غضبه من ضعفه، ويركل الأخشاب حتى تؤلمه قدماه، ثم يعود إلى عمله منزويًا يعد الساعات المتبقية على موعد الرحيل.

كل يوم يستيقظ بنيَّة الاستسلام والعودة إلى مصر، كل ما عليه فعله هو الاتصال بالدكتور «رجب»، عرَّاب المصريين في صقلية، ويطلب منه أن يرسله إلى مصر. ثم ينتصف النهار فيعتمل الغضب في صدره من ضعفه وتخبطه، ثم يأتي الأصيل بحلم يوم لقاء «بريجيت» الذي يستمر معه حتى المساء، فيتقاذفه دخان المخدر من حلم لآخر.

يصدح صوت «دين فورد» من كاسيت شاحنة «توماسينو»:

«العالم قاس قاس..

العالم مكان لا يُحتمَل العيش فيه، لكنني لا أريد أن أموت».

يجلس «توماسينو» على الحشائش ويربط أحجارًا صغيرة على هيئة صُرَر داخل قمصان من القطن، ثم يغمس الصُّرَر في الصبغات الملونة ويتركها تجف، بعدها يفك ما ربطه ويكوي القمصان ليبيعها في السوق.

كانت النقوش التي تصنعها تلك التقنية البدائية عشوائية مبهجة، تُذكِّر «حسين» برسوم «رورشاخ» التي يختبرون بها المرضى النفسيين. ينام «حسين» على بطنه فوق الكرفان ويسرح في الألوان المتداخلة على القمصان المُرفرِفة فوق الحبال لتجف.

كانت الماريجوانا تسحب جيل الهيبيز إلى عالم خاص، يلوذون بين حوائطه الدخانية من جنون العالم الحقيقي وقسوته. يرفضون القصف النووي والحروب ويحتضنون الفلسفات الشرقية كدمى دببة محشوة بين ذراعي طفل غافٍ. لم يهتم «توماسينو» برأي أي شخص فيه أو في مجتمعه الصغير، كان يرسم مغطيًا كراهيتهم بالألوان والهلاوس، فلا يذكر منها شيئًا ولا يعبأ بها.

حين تمازج فكر الغجر وألوانهم مع ثقافة مجتمع الهيبيز، أفرز أبناء الزهور ممن يؤمنون بأن الألوان هي كل شيء، وهي السعادة المطلقة.. وكان «توماسينو» من أبناء الزهور.

سأل «حسين» صديقه وهو ما زال نائمًا فوق سطح الكرفان:

- لتبِت معي الأيام المقبلة، أنتظرُ عودة «بريجيت» في أي يوم، ولن أستطيع الخروج خشية أن تصل فلا تجدني.

- ليكُن.. أود أن أرى الحورية التي قلبت حياتك.

- هي الحورية التي منحتني الحياة.

- ألن تتصل بأمك؟ لا بُدَّ من أنها قلقة عليك.

- أرسلتُ لها خطابًا. لا أقوى على الحديث ولن أتحمل هستيريتها. حتمًا

ستجدني مخطئًا في شيء، أو ستفتش في جعبة الأعوام العشرين الماضية وتجد لي ذنبًا لا يُغتفر. لقد فرَّ أبي، وله أسعد.

أجمل ما في «توماسينو» هو أنه يتكلم بلا نية للجدال، ويسأل بلا رغبة في إجابة.. رفع الشابان صوتيهما مرافقَين للأغنية بنغمة نشاز:

«يتحول ضياء الشمس إلى نور القمر..

حياتي تنعكس على عينيَّ كالأشعة وتؤلمانها..

تؤلمني أحزاني وغدي المظلم..

أعدني إلى وطني..

أنا أبكي.. أموت..

أعدني إلى وطني».

* * *

أطل «توماسينو» برأسه خارج نافذة شقة «حسين»، مرتديًا بنطالًا أبيضَ وفانلة داخلية زرقاء وهتف:

- «حسين»!

جاء صوت «حسين» بعيدًا مكتومًا من خلف باب الحمام:

- ماذا؟ انتظر دقيقة.

- لا أظن أن بوسعي ذلك.. ثمّة سيارة أجرة أسفل البناية تخرج منها شابة، وهي تتوجه الآن إلى المدخل. قلت لي ما شكل «بريجيت»!

خرج «حسين» من الحمام وهو يكمل ارتداء ملابسه فوق جسده المبتل. لقد وصلت «بريجيت». هرع نحو باب الشقة فأمسكه «توماسينو» وقال مترددًا:

- أعتقد أنك مُحتاج إلى معرفة ذلك قبل أن تفتح الباب.. إما أن

«بريجيت» تعاني استسقاء في البطن.. وإما... هي حامل.

رنّ جرس الباب، و«حسين» ما زال قابضًا على المقبض لا يقوى على تحريك خلية في جسده. أزال «توماسينو» كف «حسين» عن المقبض ودفعه برفق إلى داخل الحمام:

- جفّف نفسك وابتلع الخبر جيدًا وألحقه بسيجارة، سأفتح أنا الباب.

دخل «حسين» الحمام وأغلق المزلاج خلفه وارتكن بظهره إليه. «بريجيت» حامل؟! طفل مَن هو؟! أيكون طفله ولهذا عادت؟

سمع صوت «توماسينو» يرحب بـ«بريجيت» بفرنسية مفهومة بالكاد. كان صوتها مبحوحًا خفيضًا، لم يسمع «حسين» ما قالته، لكن إجابة «توماسينو» عن سؤالها كانت:

- «حسين» قادم حالًا.

لم يقدر «حسين» على فعل أي شيء، فخرج على هيئته، راغبًا في رؤية ما يدّعيه «توماسينو» وكان مقتنعًا أنه مخطئ، وثمّة تفسير لما ظنّه صديقه. أول ما وقعت عليه عيناه على الرغم من ذلك: عيناها، زرقة البحر تمحو جوع شهور لم تفلح ألوان الدنيا في مَحوه.

اندفع إليها وتلقّفها بين ذراعيه، كانت كالدمية القماشية، مرتخية طرية فارغة من الحياة. شعر بنتوء بطنها يضغط على بطنه.. «توماسينو» مُحق..

ارتدى الشاب الصقلي قميصه الملون سريعًا وتركه مفتوحًا، أخذ مفتاح شاحنته وتوجّه نحو الباب قائلًا بفرنسية سيئة مُضحكة:

- سأحضر ما نحتفل به بعودتك يا «بريجيت». ربما أتأخر حتى المساء، لا تقلقا.

أغلق «توماسينو» الباب خلفه برفق، فكان يعرف أن صديقه مضطرب، هش، لن يتحمّل حتى صوت غلق الباب.

أجلس «حسين» «بريجيت» على الأريكة وجلس جوارها. تعمد ألا ينظر إلى بطنها؛ فلم يكُن هذا ما يعنيه؛ فـ«بريجيت» غريبة، مُفرغة من كينونتها السابقة، وقد حلت فيها روح جديدة أكثر هدوءًا وغموضًا.

- «بريجيت».. افتقدتك.

- وأنت قد أوحشتني كثيرًا.

- لنأكل شيئًا بينما تحكين لي كل ما حدث منذ يوم رحيلك حتى فتح لك «توماسينو» الباب، تبدين جائعة ومرهقة، لديّ سجق حار مع...

- لقد أقلعت عن أكل اللحوم يا عزيزي، لو لديك شاي...

- لديّ كل شيء تريدينه يا «بريجيت».. لا تقلقي.

سار «حسين» بخطوات سريعة مهتزّة إلى المطبخ الصغير وفتح الثلاجة وظل يحملق فيها دقائق، لا يعرف عمّ يبحث.

عاد إلى «بريجيت» بعد ربع ساعة حاملا الشاي وطبقًا من التين. كانت متربعة على الأريكة شاردة، تنظر إلى أشعة الشمس المُمتدة على البساط.

حين أدركت أنه قد عاد، أمسكت بصدر فستانها وأبعدته قليلًا وتشممت رائحة جسدها، فكوّرت أنفها واستأذنت «حسين» أن تستحم، وقبل أن يأذن لها كانت قد دخلت الحمام وأغلقته خلفها.

جلس «حسين» مكانها، ينظر إلى حقيبة ظهرها القماشية، المُزدانة برسومات يدوية آسيوية. كانت تحتاج إلى غسيل هي الأخرى.

سمع صوت صنبور الماء في الحمام يغطي على صوت نهنهات خفيضة..

ظل ينظر إلى الحقيبة مقاومًا أن يلقي نظرة على محتوياتها. بعد ثوانٍ كان قد عزم أمره وفتحها برفق ونظر داخلها. فاحت رائحة بخور عنيفة مع روائح عشبة أخرى، ورأى ملابس «بريجيت» مكومة دون

ترتيب فوق بضعة كتب قديمة، ولم يجرؤ على التفتيش أكثر فأغلق الحقيبة.

قام وطرق باب الحمام ممسكًا ببيجامة مطوية نظيفة من ملابسه. تصوَّر أن تأذن له بالدخول، إلا أنها مدت ذراعها وهي مختبئة خلف الباب وأخذت منه الملابس شاكرة.

ثم خرجت مبللة الشعر، وجلست على الأرض تحت خيوط الشمس. جلس جوارها وقربها إليه، فدفنت وجهها في صدره وقالت بصوت ثابت بلا أي تأثر:

- لقد أخطأتُ كثيرًا في حق نفسي وفي حق العالم، ويبدو أن خطئي مُترسِّخ منذ قرون. كنت أعرف أن عذابي لم ينجم عمَّا فعلته خلال الأعوام العشرين السابقة فقط، وإنما هو ذنب بعيد اقترفته في حيوات مضت، وسأظل أتعذب به إلى أن تفنى روحي.. «حسين»، أيمكن أن نولد مجددًا قبل أن نموت؟

ضحك «حسين» ضحكة عصبية، فلم يكن يفهم شيئًا مِمَّا تقول، لكن قولها مس روحه الملتهبة فآلمها.

- «بريجيت»، أنتِ جميلة نقية، وعذابك لا علاقة له بأفعالك. العالم قاسٍ خالٍ من العدل، هذا كل شيء.

- والكارما؟

- كارما؟

- ما تفعله لن يختفي يا «حسين»، بل سيلاحقك من حياة لأخرى، هذه هي الكارما ببساطة. كل ما تشعر به الآن هو صدى لصيحات ألم ومتعة انطلقت من حنجرتك منذ آلاف السنين. أيمكن أن نكسر الحلقة ونفنى؟ هل ثمَّة طريقة كي نموت ولا نعود مجددًا؟

حديثها عن التناسخ كان رائجًا بشدة، وفهم «حسين» أن رحلتها

للشرق الأدنى نالت من عقلها وإيمانها المسيحي. بوصفه مسلمًا، لم يكن يؤمن قطعًا بالتناسخ، ويؤمن بأننا نُعاقَب على ما فعلناه في حياتنا أو في آخرتنا، وإن هي إلا ميتة واحدة نموتها، وبعث واحد، إما لعذاب وإما لنعيم.

لكن «بريجيت» حرة فيما تعتنقه، بالنسبة له فحدود حريتها تنتهي لو آذت نفسها. كان يشعر أنه فقد «بريجيت»، أو أن روحها قد أصابها الصدأ وتغطّت بطبقة مؤذية تأكل من أصلها وتدفنها حيّةً تحتها.

- «بريجيت».. دعي كل هذا جانبًا وفكري في...

- لا أستطيع أن أفكر إلّا في هذا.. «حسين»، سوف أموت عندما تولد هي.. سأموت كي أولد مجددًا ويولد عذابي مرة أخرى كعنقاء تموت فتحيا من قلب رمادها.

زفر «حسين»؛ فهو لا يعرف ماذا يقول، ولا يعرف وقع حديثه عليها وهي في هذه الحالة. أحكم تطويقها بذراعيه متوقعًا أن تبكي وتنهار ثم تتحسن، لكنها لم تبكِ، ولم تتحرك من جواره.

ظلّا صامتين وخيوط الشمس تنحسر عنهما إلى المغيب. يختفي البخار المتصاعد من أقداح الشاي كأشباح تذوي في نهاية الليل.

نامت «بريجيت» على وضعها هذا، فتحرك «حسين» ببطء كي يقف ويحملها إلى السرير. كانت هزيلة تمامًا بين ذراعيه، وهالات زُرق تطوّق عينيها.

ما إن وضعها في الفراش حتى استيقظت وقالت له بهدوء وهي ما زالت مغمضة العينين:

- هي ابنتك يا «حسين».. سألدها وسأولد معها مجددًا.

***

لم يعد «توماسينو» ليلتها، وكان مفهومًا أنه قد تركهما لراحتهما، لكن

«حسين» لن يرتاح ولن ينام. ليته يستطيع أن يجد صديقه الآن ويُشركه في حيرته.

هذا شيء لن يفلح معه الرسم يا «توماسينو»، هذا شيء لا يمكن تجاهله ولا الالتفاف من حوله..

ما هذه اللغة يا «توماسينو» التي كُتِبت بها الكتب مع «بريجيت»؟ هي لغة عجيبة من لغات الشرق الأدنى، فهل تقرؤها «بريجيت»؟ متى تعلمت لغة مُعقدة كهذه؟

ثم إننا يا صديقي كلنا نعاني، ولا أعرف مِمَّ تعاني «بريجيت»، لكن كلنا ضحايا شيء ما، فما الجديد؟

نحن جيل يجلد نفسه يا «توما»، يتحمل أخطاء الماضي والحاضر ويموت مصلوبًا مُتسائلًا لِمَ تخلّى ربه عنه.

وهل تخلى الله عنا يا صاحبي أم أننا فقط أضعف من أن نحيط بوجوده؟ أنا لم أدخل مسجدًا قط منذ طفولتي يا «توماسينو»، وأصلّي فقط حين تشتد عليَّ الأزمات، لكنني أشعر أن الله موجود، أريده أن يكون موجودًا ليضفي بوجوده منطقًا على عبث حوادث الدهر وظُلم الحياة. كل شيء يحدث بسبب، وما الله بظالم للعباد.

أتوافقني على أن أصحب «بريجيت» للكنيسة حين تستيقظ؟ سأحكي لمن أجده هناك عنها وسيسمع منها ويعيدها إلى صوابها.. أم.. أم أنني سأتعدّى حدودي معها وسأخترق الحاجز بين حريتها وخوفي عليها؟

حين استيقظت «بريجيت» كانت أفضل حالًا. ألقت بنفسها بين ذراعيه وراحت تعبث في حقيبتها بحثًا عن شيء ما. سألته باسمةً في مكر:

- كنت تعبث بحقيبتي، هه؟ لا تفزع.. لا يوجد ما أخفيه عن أي إنسان.

أخرجت كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا به أقراص من عقارٍ ما، حُفِر على

أقراصه رسمٌ لحمامة.

سألها «حسين»:

- ما لَكِ؟ أتشكين شيئًا؟ وهل هذا العقار آمن على الحمل؟

- لا تقلق على الحمل مطلقًا، فمقدر له الاكتمال.. أتريد قرصًا؟

- أريد قرصًا؟! ما هذا؟

- إكستاسي.

- لأي شيء تستخدمينه؟

- ابتعته من رفيقة أمريكية تعرفت إليها خلال رحلتنا إلى التبت. هو عقار يساعدنا على التأمل ورؤية ما وراء الأشياء.. أقوى عشرات المرات من الماريجوانا، يجب أن تجربه.

- عقار هلوسة هو! وأنتِ حامل؟

- ما المشكلة؟ لن يحدث لها شيء.. وإن حدث مكروه فهي أنا، وأنا حرة في نفسي.

- لستِ حرة.. هاتي هذه الأقراص.

جذب الكيس من يدها فتمسكت به بقوة، وتحول وجهها الهادئ إلى وجه قطٍّ غاضب حتى حسبها ستفِحُّ في وجهه كاشفة عن أنيابها.

- «حسين»! لنكن على بينة من الآن، أنا عدتُ إليك لأن الطفلة طفلتك، وأريد أن أحيا معك أنت من البداية، قبل أن أتلوّث بأي شيء. لا أقول إني أحبك، لكنك أطهر مَن رأيت.. أريدك أن تخلصني من عذابي وتتأكد أنني لن أعود وأنني قد تحررت. لكنني، أنا، بريجيت دومينيك، لست ملكك، ولا حياتي ملكك.

- «بريجيت»، كفى هذا الهراء. أنت حامل في طفل...

قاطعته في إصرار:

ـ طفلة.

ـ أيًا ما كان، طفلة.. أنا أبوها. لنتزوج يا «بريجيت» ونحيَ هنا أو أرحل معك إلى فرنسا أو تعودي معي إلى مصر. سأكدح وأمنحكما حياة طيبة. أنا أحبك، وسأجعلك تحبينني.

ـ أنا دَنِسة يا «حسين».. روحي ممزقة ولا أصلح لك، فضلًا عن أنني سأرحل فور ولادة الطفلة. سأموت لتحل روحي فيها.

ابتلعت «بريجيت» قرصًا وقامت إلى المطبخ. سمعها «حسين» تفتح الثلاجة وسمع صوت فتح زجاجة بيرة.

رن جرس الباب فتوقَّع عودة «توماسينو»، لكنه وجد أمامه ساعي البريد الذي ناوله خطابًا بعلم الوصول من مصر.

كان من أمه، تردَّد في فتحه؛ فهو يعلم مُسبقًا العاصفة التي ينطوي عليها المظروف. لمَ لا يموت ليُبعث في جسدٍ آخر حُر، بعيدًا عن كل اللوم؟

مزَّق «حسين» الخطاب في غلّ وأشعل سيجارة ماريجوانا، وبعود الثقاب ذاته الذي أشعل به سيجارته أحرق الخطاب.

هذا شيء يمكنني الرسم فوقه يا «توماسينو» ونسيانه.. ليت كل شيء يختفي تحت رسومات الورد وعلامات السلام..

***

وقف «حسين» و«توماسينو» عند باب المطبخ يتهامسان وهما ينظران إلى «بريجيت» التي تحيط نفسها بحلقة من أعواد البخور المشتعلة، وتدور حول نفسها رافعة كفًا إلى السماء وباسطة كفًا إلى الأرض. جوارها تدور بكرات البيك آب باعثة موسيقى شرقية على إيقاع دفوف.

سأل «توماسينو» «حسين» وهو يرشف القهوة باسمًا وعيناه تلمعان كأنما يشاهد فيلمًا شائقًا:

ـ قلت لي ماذا تفعل!

ـ «توما»! ركّز. نحو أربعين يومًا يا صاحبي على هذا المنوال.. تتأمل كالبوذيين وتمارس اليوجا وتقف أمام الحائط وتتمايل أمامًا وخلفًا كاليهود، وتدور حول نفسها في حلقة ذكر كالصوفيين! ماذا أفعل؟!

ـ سأسأل «جيادا».. ربما كانت مسألة هرمونية ما.

ـ مَن «جيادا»؟! بالطبع ليست هرمونية.. «بريجيت» جُنت ولا أعرف ماذا أفعل.

ـ تخلّص منها.

ـ أتخلص منها؟! هي أم طفلتي؟!

ـ تقول طفلتي أنت الآخر؟! بالله كيف عرفت أنها طفلتك؟ بل كيف عرفت أنها أنثى أصلًا؟ «حسين».. صدّقني، تخلّص منها. مع كل ما تتعاطاه هي، محتمل أن تموت هنا وتجد نفسك في السّجن بعدها.

ـ هي تعتقد أن ما تتعاطاه يساعدها على كشف الحُجُب ومعرفة الحقيقة.. هل سمعت عن الانتشاء الديني؟

ـ لا أعرف سوى الانتشاء الجنسي.. ماذا عنه؟

ـ عندما صحبتها للكنيسة لعلّي أجد حلًا هناك، تناولت قرصًا مِمّا تتناوله وجلست تغني «آفي ماريا» تحت تمثال السيدة العذراء وتبكي وتضحك في انتشاء وانفصال عن العالم. لقد اجتمعت حولنا صقلية كلها يومها. هي الآن تمارس انتشاءً دينيًا آخر. انتشاءً صوفيًا بغرض التخلّص من الكارما أو التخلّص من ذنوبها.. لا أعرف.. لا أفهم.

ـ أنا أفهم. هي تظن أنها ستظل في دائرة من التناسخ في أجساد مختلفة عبر قرون من الزمان حتى يُكفّر عن ذنوبها جميعًا وتفنى

روحها. كثير من الفلاسفة الإيطاليين قتلوا هذا الموضوع بحثًا وكتابة. لكن من منظور يختلف قليلًا عن المنظور الآسيوي. أي طفل هنا يعرف بهذا الهراء، وأي طفل يملك الفطرة التي تمنعه من تصديقه. المهم.. تخلَّص منها، هذا ما لديّ.

ناول «توماسينو» قدح القهوة الفارغة «حسين» وجلس على إفريز النافذة يرمق الشارع ويدخن ويسترق نظرات سريعة للأداء الصوفي لـ«بريجيت».

دخل «حسين» حجرته وأغلق بابها بعنف خلفه. نزل على ركبتيه ومدَّ يده تحت السرير وأخرج لوحة ملفوفة في غلاف ورقي. مزَّق الغلاف ليظهر من خلفه وجه «بريجيت» وظهرها العاري، وشعرها المُتطاير بفعل هواء الشاطئ. هذه هي «بريجيت» التي يعرفها، ويبدو أنها قد ضاعت للأبد.. خطر بباله أن روحها حبيسة اللوحة؛ فهو لم يرَها من ليلتها إلا بعد عودتها قبل أربعين يومًا.

همس للوحة:

- «بريجيت».. حبيبتي.. أتسمعينني؟

كان يبكي وهو يحرك أنامله على خدَّي «بريجيت» في اللوحة. كان ينتظر بإيمان بالغ ردها..

سمع صرخة عنيفة من الخارج وصاح «توماسينو»:

- «حسين»! سأحضر «جيادا».. «بريجيت» تلد!

* * *

«بريجيت» تلد.. تصرخ مباعدة بين ساقيها على بساط الصالة..

يدخل «توماسينو» من باب الشقة المفتوح يجر «جيادا» خلفه ويقتحم تحلّق الجيران عند المدخل.

يصيح «توماسينو»:

- افسحوا.. افسحوا..

تنسل «جيادا» بجسدها النحيل الضئيل، وبشرتها النحاسية التي تلمع بالعرق كأنها تمثال صغير دقيق الصنع.. خفيفة، كأنها غير موجودة، عظيمة الحضور كأنها عشرة أشخاص معًا.

يهتف «حسين»:

- أبعدهم.. أغلق الباب.

- أبعدتهم وأغلقت الباب.. هذه «جيادا».

تصرخ «بريجيت» بالفرنسية وهي تضحك:

- أنا أموت.. لن تخرج روحي يا «حسين»، لكنها ستهبط إلى رحمي لتحل فيها.. أنا أموت.

تضحك «بريجيت»، يسأل «حسين» بالإيطالية وهو يجذب «جيادا» لتجلس جوار «بريجيت»:

- أتعرفين كيف تساعدينها؟

- أنا مَن ولّدتْ أمي منذ ستة أشهر.

- ستة أشهر؟

- أجل، أمي وَلود، ما المشكلة؟

تصرخ «بريجيت»:

- أنا أموت وأحيا يا «حسين».. سترى بنفسك.

تسأل «جيادا» وهي تشمّر عن ذراعيها:

- ماذا تقول؟

- لا يهم..

لا بُدَّ أن أعرف ماذا تقول كي أساعدها، «توماسينو»، ماذا تقول؟

يرد «توماسينو» بعينين مُتسعتين مُستمتعتين:

- هي فرنسية، وفرنسيتي لا تساعدني.. ربما تقول إنها ستموت..

ضربت «جيادا» على صدرها قائلة:

- تموت؟! هذا فأل سيئ.

صرخ «حسين» فيهما:

- لا يهم ما تقول.. هيا وَلِّديها!

يضع «توماسينو» كفه على كتف «حسين» قائلًا:

- «جيادا» تعرف ما تفعله.

- أننقلها إلى المستشفى؟

- وماذا سيفعل المستشفى أكثر مِمَّا ستفعل «جيادا»؟

- مَن «جيادا» أصلًا؟

- أختي يا «حسين»، أختي.

- وأمك أنجبت منذ ستة أشهر؟

- ما المشكلة؟ الصقليات خصيبات.

تصرخ «جيادا»:

- أريد ماءً ساخنًا ومقصًا.

يقومُ «حسين» ليأتي لها بما تريد، فتمسك ذراعه قائلة:

- لا تذهب، لا أفهم ماذا تقول! ترجِم لي!

ـ تقول إنها تموت وتحيا.. ماذا أفدتِ بمعرفتك؟!

ـ كلام فارغ.. لِمَ تضحك إذًا؟!

قام «حسين» واقفًا وهتف في حنق بالعربية:

ـ من أين يأتي الطليان بكل هذا الكلام؟! ألا تصمتون؟!

تصرخ «بريجيت» وتركُل «جيادا» كي لا تمس ابنتها التي قد ظهر رأسها، فتصفع «جيادا» «بريجيت» صفعة سريعة وتقول بالإيطالية:

ـ أنا أساعدك يا امرأة، في صقلية نلد مرتين في السنة ولا يسمع لنا أحدٌ حِسًّا!

ترد «بريجيت» بالفرنسية التي لن تفهمها «جيادا»:

ـ لن تلوثيها يا قذرة.. لن يمسها إلا «حسين».. «حسين»!

أمسك «حسين» كفها بين كفيه وقبَّل رأسها، كان «توماسينو» ينظر في عجب ممزوج بالاشمئزاز إلى ما يخرج من رحم «بريجيت». ركله «حسين» من مجلسه على الأرض في قصبة ساقه صائحًا:

ـ استحِ!

ـ ليس منظرًا مثيرًا أبدًا يا «حسين».. لا أظنني سأقرب النساء مجددًا.

يتدلَّى الصليب حول رقبة «جيادا» ويتأرجح وهي تجذب الطفلة قائلة:

ـ أنت قذر يا «توماسينو» ولا شك. هيا.. «حسين»، قل لها أن تدفع لأسفل.

ـ «بريجيت» حبيبتي.. «جيادا» تطلب منك أن تدفعي لأسفل.

تصرخ «بريجيت» وتمتزج آخر صرخاتها أخيرًا ببكاء طفلة معلقة من قدميها الدقيقتين بين يدي «جيادا».

صاح «توماسينو»:

- أنثى فعلًا.. كيف عرفتما؟

ترك «حسين» الصقليين يعتنيان بالطفلة، واحتضن «بريجيت» ناظرًا في عينيها، كان يتوقّع أن تنزلق منه في هوة الموت، لكنها لم تفعل.

اندهشت «بريجيت» أنها لم تمت. راحت تتحسس جسدها بكفيها وتنظر إلى المولودة بين يدي «جيادا». وضعت الأخيرة المولودة الصارخة على صدر «بريجيت» وقالت:

- قل لها أن تُرضعها؛ فأول لبن في صدرها هو الأهم للطفلة.

لكن «بريجيت» كانت تنظر إلى الطفلة في رعب وكأنها حية تجثم على صدرها. دفعتها بقوة فانزلقت المولودة على الأرض. التقفت ستة أكف الجسد الصغير، كفا «حسين» وكفا «توماسينو» وكفا «جيادا»، ونظر بعضهم إلى بعض. ترك الصقليان الطفلة لأبيها وتراجعا إلى الركن. ظلت «جيادا» تثرثر بلهجتها ممطوطة النهايات عن اكتئاب ما بعد الولادة وهي تنظف الطفلة وتلفها بعناية في ثوب قطني، لكن عينيها لم تفارقا «بريجيت» التي كانت تنقل نظرها بين المولودة وبين جسدها.

في الركن، ظل الأخوان ينظران إلى فوضى المشاعر وتضاربها أمامهما، على الرغم من أن لـ«توماسينو» و«جيادا» ثمانية إخوة أصغر منهما، وعلى الرغم من عمل «جيادا» قابلة في أوقات فراغها، فإنهما لم يريا ما حدث من قبل، وإن رأيا مثله فهما لم يشعرا بذلك الجو المقبِض الذي أرغمهما على قراءة صلاة سريعة في السِّرّ.

* * *

«حين تكتشف أن الحقيقة مجرد أكاذيب..

تموت كل السعادة داخلك..

ألا تبغي من تحب؟

ألا تحتاج إلى من تحب؟

ألن تقع في الحب فقط لأجل الحب؟

حبذا لو تجد من تحب..

حين تموت الأزهار الوليدة..

فأنت تموت معها ويُفعم عقلك الأحمر القاني..

عيناكِ، ربما تبدو عيناك كما أشتهي..

لكن عقلك يا حبيبتي، ألا تدرين أين عقلك؟

تنهمر الدموع، تنهمر على صدري الدموع..

وأصدقاؤك يا حبيبتي يعاملونك كالغريبة..

ألا تبغي من تحب؟

ألا تحتاج إلى من تحب؟

ألن تقع في الحب فقط لأجل الحب؟

حبذا لو تجد من تحب».

جيفرسون إيربلين

١٩٦٧م

* * *

يحمل «حسين» «بريجيت» الصغيرة على كتفه ويطوف بها حول المنضدة الصغيرة الملونة في صالة بيته..

لقد غادرت «بريجيت» بلا رجعة.. غادرت بلا وداع ولا تفسير..

أمضت أسبوعين بعد ولادتها في ركن من الحجرة لا تبرحه، لم تكن تتحمل صوت بكاء الرضيعة ولا تتحمل أن تراها من الأساس. لم يكن «حسين» يملك ثمن لبن صناعي، فأحضرت «جيادا» أمها الشحيمة الطيبة كي تُرضع المولودة، لكن السيدة لن تترك منزلها وأولادها لتقيم معهما، خاصة أنها تقيم في قرية صغيرة في مارتساميمي.

كان على «حسين» أن يتدبر أموره المالية بأي طريقة، حتى لو وصل به الحال إلى ترك الدراسة.

لكن «بريجيت» لم تكن رفيقة به، ولم يعرف فيمَ تفكر. كانت مُغيَّبة العقل أغلب الوقت، تهلوس وتقرأ كُتبًا غريبة، وتتابع رقصها الصوفي وصيامها إلا عن عقاقير الهلوسة والماريجوانا.

حين عاد يومًا من عمله في المزرعة، وكان قد ترك «بريجيت» الصغيرة مع المُرضعة و«بريجيت» الكبيرة في الشقة كما هي منذ أسابيع، وجد المرضعة النحيلة واقفة عند الباب في قلق، وعرف أنها تطرق الباب فلا يجيب أحد. فتح «حسين» بمفتاحه وأخذ الصغيرة من المرضعة، وراح يبحث عن «بريجيت» في كل مكان فلم يجدها.

كل ما وجد هو وريقة صغيرة مطوية كُتب على جانب منها بالفرنسية: إلى «حسين».

فتحها فوجد خط «بريجيت» الذي يراه لأول مرة، خطًا مُضطربًا قلقًا كروحها، يهتم بمد نهايات الكلمات وأعالي أوائل الحروف.

كتبت «بريجيت»:

«كم تسع حياة واحدة من أحلام؟ من الظلم أن يُطالَب المرء بإنجاز كل حلم لديه خلال سبعين عامًا أو حتى مائة. أليس من المنطق أن يكون للإنسان حيوات لا نهائية تتسع لكل رغبة أو خاطرة؟

حسين، لسنا مثاليين، ولو كنت ستحكم على الآخرين بأخطائهم، فستحيا وحيدًا.. لا تحكم عليّ ولا تكرهني. سأحيا مجددًا معك،

فالموت مجرد فرصة أخرى للحياة.. بريجيت».

هكذا انتهى كل شيء. لا يعرف إن كانت قد عادت إلى فرنسا أم هامت على وجهها خلف أوهامها في جنبات العالم.

لو كان ثمّة تناسخ يا «بريجيت» لكانت حياتي سلسلة من ولادة الألم وموته وبعثه.

ظل «حسين» حاملًا طفلته، واقفًا أمام النافذة حتى عاد «توماسينو» في المساء. سلّمه الخطاب فلم تُسعفه فرنسيته في فهمه، لكن كل شيء كان مكتوبًا على جبين «حسين» وعلى وجه الرضيعة بارعة الحسن التي كان يحملها.

اتخذت معرفة «توماسينو» بـ«حسين» منحى غير متوقّع؛ فقد كان عامل نظافة في الأكاديمية، ثم صاحبه «حسين» رغبةً في تذوق عالم الشوارع الشهي الحار، ثم صار رفيق سهر، ثم صديقًا، ثم خليلًا اصطفاه المصري ليحمل معه همومه ومخاوفه التي تطارده كأشباح.

أول ما نطق به «حسين» لـ«توماسينو» كان سؤالًا مرتجف الأحرف:

- «توما».. ماذا بي كي يتخلى عني الجميع؟ لماذا لم يستطِع أحد أن يحبني قط؟

ضربت القشعريرة جسد «توماسينو»، شعر باجتماع الدموع خلف مقلتيه فجأة، لكنه لم يبكِ. قال:

- «حسين».. أنت فقط سيئ الحظ. لا تفكر بهذه الطريقة، أنا أحبك.. و«بريجيت» الصغيرة. لو فكرنا قليلًا سنجد أن ماما تحبك و«جيادا» و«نينو» و...

صمت «توماسينو» حين لم يجد في نفس «حسين» متسعًا لحديث يهون ما أصابه. أمسك برأس «حسين» وقرَّبه من رأسه بقوة ونظر إلى عينيه بعينين سوداوين متسعتين وقال:

- «حسين»، أنا معك، وسنفعل ما يتوجّب علينا فعله. لست وحدك ولن تكون كذلك. مفهوم؟

أجهش «حسين» بالبكاء، فتركه «توماسينو» يبكي. لا غضاضة في أن يبكي رجل فينزوي إلى ركن آمن بينما يحمي صديقه ظهرَه.

لأسباب كهذه خلق الله الصداقة ولم يجعل لها قوانين تحكمها أو حدودًا لا تتخطاها.

وحين مسح «حسين» آخر عبراته، أقسم ألا يبكي مجددًا؛ فالموت فرصة أخرى للحياة.

* * *

مارتساميمي - صقلية

سبتمبر ١٩٧٠م

يعدو «ماتيو» القصير المُكتنز تجاه «حسين» المُحمل بأدوات الصيد والعرق ينهمر من جبينه، وقد دُبغ جلده بفعل الشمس وماء البحر.

يتوقف «ماتيو» الصغير لاهثًا ويرفع عينيه إلى «حسين» وهو يصيح:

- سو «حسين».. يوجد رجل مصري يسأل عنك.

إخوة «توماسينو» الصغار دائمًا ما ينادونه سو «حسين»، ويعتبرونه حقًا عمًا لهم. حتى إن «حسين» اعتاد لهجتهم الصقلية التي تحيل كلمة «تزيو» (عمي) إلى «سو» وكأنهم يزقزقون طربًا لمجيئه.

أمسك «حسين» بيد الطفل وراح يصعد معه الشارع المائل، تاركًا باقي العمل لوالِد «توماسينو» وإخوته؛ فقد مر أكثر من شهر على إقامته معهم والعمل في الصيد على قواربهم. لكن العمل شاق، والخلاف بينه وبين «ماسيمو» الأب كان مستمرًا متصاعدًا، على الرغم من كرمه وموافقته على أن ترضع زوجته - أم «توماسينو» - «بريجيت»

الصغيرة وتربيها وسط أبنائها.

لكن «ماسيمو»، شأنه شأن أغلب الآباء، كان يرى أبناء الجيل الحالي فاسدين مدللين، وقد فرَّ «توماسينو» من العمل في الصيد معه، وفضّل العمل في المزارع صيفًا، وفي نظافة أكاديمية الفنون شتاء. هكذا احتفظ بشعرة بينه وبين أبيه لا يقطعها ولا يقصّرها. لكن «ماسيمو» أحب «حسين» حتى صار يصب عليه حنقه من الجيل الحالي بدلًا من «توماسينو».

لم يكن أمام «حسين» حل آخر سوى ترك الدراسة في الأكاديمية، وتوفير إيجار الشقة والإقامة في حجرة صغيرة على سطح منزل عائلة «ماسيمو» الصغير البسيط، وترك كل راحة له في سبيل توفير نفقات «بريجيت» ورضاعتها والعناية بها.

حين وصل إلى البيت، كانت والدة «توماسينو» وإحدى بناتها الصغيرات تُعِدّان مائدة العشاء في باحة البيت، وأبصر الدكتور رجب الشافعي جالسًا يحتسي القهوة ويحدّق في حذاءيه اللامعين وقد أوقف سيارته من طراز «فيات دينو» عند أول الطريق غير الممهد.

رفع «رجب» عينيه من خلف نظارته ذات الإطار السميك الأسود، فرأى «حسين» بملابسه المتسخة المبتلة ونحوله الشديد، فابتلع ريقه ومد يده يضع كوب القهوة على السور الحجري جواره فسقط منه أرضًا.

كان رجب الشافعي صديقًا قديمًا لعائلة والدة «حسين»، ويُعتبر أبًا روحيًا لأبناء أغلب العائلات المصرية في صقلية. هو جرّاح معروف وبيته مفتوح للمصريين من المغتربين.

تمالك «رجب» نفسه سريعًا وفتح ذراعيه باسمًا، فتقدم إليه «حسين» مترددًا وصافحه، لكنه لم يستطِع أن يسعد لمرآه أو يبعد عن عقله تفسيراتٍ لسبب زيارته.

جلس الرجلان ووضع «رجب» كفه السمراء على كتف «حسين» في لفتة أبوية خالصة، وقال:

- كيف حالك وأحوالك؟!

- الحمد لله بخير. كيف وجدتني؟

ضحك «رجب» متباسطًا:

- ماذا يا «حسين»؟! أهاربٌ أنت منا؟! لقد قلقت أمك عليك عندما لم تحضر جنازة أبيك ولم تتصل بها أو ترد على خطاباتها، فطلبت مني أن أبحث عنك و...

- أنا لم أتواصل معها منذ ما يقرب من العام. لماذا تذكَّرتني الآن؟

- «حسين»، لقد مات أبوك وأنت مُختفٍ من قبل وفاته بأشهر، ولم تتصل بالمسكينة أو تعبأ بها. وأنت الآن غاضب لأنها لم تسأل عنك؟! ذهبت إلى عنوان شقتك فقيل لي إنك رحلت، سألت عنك في الجامعة فقالوا لي إنك لم تُسجِّل اسمك للدراسة في الخريف. لكن الجميع يعرف بشأن صداقتك بذلك الشاب الذي يعمل في النظافة، «توماسينو»..
بحثت عن المكان الذي يحيا فيه في شاحنته فلم أستدل عليه،
وأخبروني بعنوان بيت أهله فجئت. الآن يا «حسين» أريد تفسيرًا لكل هذا. شاب مثلك جاء ليدرس في أكاديمية فنِّيَّة مُعتبرة، فيصادق عامل نظافة!

- اسمه «توماسينو».. وهو أفضل مَن عرفت في حياتي.

- ويترك دراسته وشقته وتنقطع اتصالاته بعائلته؟!

- لم أعتبرها قط عائلتي..

- ثم أجده يعمل صيادًا في مارتساميمي؟! انظر إلى مظهرك يا «حسين» وقل لي ما الذي دفعك إلى ترك حياتك الواعدة إلى هذه الحياة؟ صارحني، هل تورطت في جريمة أو شيء من هذا القبيل

وتختبئ هنا؟

- أنا لم أرتكب أي جرائم.

- إذًا ماذا حدث؟! هيا، اجمع حاجياتك وتعالَ معي.

- لن أذهب إلى أي مكان.. طمئِن أمي أنني حي وآسف للمشقة التي تكبّدتها في سبيل الوصول إليّ.

- ما مشكلتك؟!

علا صوت «رجب» فتوقف الأطفال عن اللعب ودخلت والدة «توماسينو» ساحبةً معها ما استطاعت من أعين فضولية.

- دكتور «رجب».. لن يفهم أحد منكم مشكلتي أبدًا. لطالما كنتم ترونني ابنًا مدللًا لأبوين مثاليين. لم يفهم أحد كيف محا والدي شخصيتي حتى يمد حياته في جسدي وأحيا بدلًا منه حين يعجز عن الحياة بنفسه. لن تفهم أن أكون ابنهم فقط إن كنت نسخة منهما ومصدر فخر لهما. كنت دمية يزينانها بملامحهما ويمحوان عنها أي بادرة حياة خاصة. كنت آكل ما تريدني أمي أن آكله، وأرتدي ما يُشعر أبي بالفخر كوني ابنه. كنت أداة ضغط في يد أمي على أبي، كنت شيئًا يا دكتور، مجرد شيء يمتلكانه ويصممان تفاصيله على أمزجتهما.

- والآن ماذا تكون؟

- أنا «حسين»، بآلامه وأحلامه المحطمة واشتياقه إلى حياة كسرابٍ كلما اقترب منها فرّت. لقد وُلدت منذ عام وأختبر كل شيء بعين جديدة، أبكي وأركل كأي رضيع ولا أتوقع أن أصير الأفضل ولا الأغنى ولا الأذكى.. سأصير كما ستُصيّرني الدنيا، وسأرضى بكوني أنا «حسين»، لا ابن الرافعي باشا وآمال هانم ذو الفقار.

- يقولون إن لديك ابنة.. أهي حفيدة الصياد «ماسيمو»؟

- لا شأن لأحدٍ بي. شكرًا يا دكتور، وأرجو أن تترك العائلة الطيبة

لتتناول عشاءها في هدوء.

قام «رجب» كاتمًا غضبه من أسلوب «حسين» وسار سريعًا لسيارته. قبل أن يركبها نظر نظرة أخيرة إلى الشاب الواقف وحيدًا تحت شمس المغيب، ثم قاد سيارته مبتعدًا.

جلس «حسين» في مكانه على المقعد الخشبي وأمسك رأسه بكفيه. وارب «ماتيو» باب المنزل وأطل برأسه متفحصًا المكان، ولمَّا وجد «حسين» وحيدًا خرج إليه حاملًا «بريجيت». في اللحظة ذاتها، دخل «ماسيمو» مع أخيه الأصغر من البوابة حانقًا، ناويًا أن يلوم «حسين» على أخطاء اليوم كما اعتاد، لكنه وجده مهمومًا لا يُدرك أي شيء

مِمَّا حوله. فجلس عند رأس طاولة الطعام ونادى على زوجته وأولاده، وأخيرًا نادى على «حسين» بصوت خفيض هادئ ودعاه إلى الطعام. لكن «حسين» اعتذر وصعد السلم الخارجي إلى حجرته أعلى السطح حاملًا «بريجيت» بين ذراعيه، محملقًا في انعكاس السحب المُحمرة على عينيها الزرقاوين.

* * *

ربيع آخر، من يعلم متى سيعود الربيع مرة أخرى؟!

لهذا أقبَل ما تجود به الحياة عليَّ..

وسأقع في الحب من جديد، هذا ما سأفعل..

وسأوهم نفسي مجددًا أنني عدت..

لدفء الحشائش الخضراء حول منزلي.

ماسيمو رانييري

الحشائش الخضراء حول منزلي

١٩٧٠م

***

موقف عربات الكرفان (الفورتينو) - كاتانيا

٩ يونيو ١٩٧١م

تلقى «حسين» ضربتين في بطنه وقع على أثرهما أرضًا، وكان يضحك.. يضحك متمسكًا بقرص إكستاسي في كفه الغارقة في الدماء.

سرق الشابان كل ما كان في جيبه من مال ولاذا بالفرار، بعدما تأكدا أنه لن يلحق بهما.

لم يغد مع «حسين» مال لباقي الشهر، ولم يبقَ له ما يشتري به الماريجوانا حتى. «توماسينو» سيتصرَّف.. «جيادا» ستتصرف.. ماما «جيوسيبينا» ستتصرف..

يترنَّح عبر الشوارع الغارقة في الظلام قرب الفجر، حتى يصل إلى الكرفان الملون الخاص بـ«توماسينو»، والواقف داخل موقف «الفورتينو» القذر، الذي يعج بالعربات والضوضاء ورائحة الدخان والطعام الفاسد.

رأى «توماسينو» جالسًا على كرسي خشبي أمام عربته، والغضب بادٍ على وجهه. مسح «حسين» شفتيه بظهر يده وحاول أن يقلل ترَنّحه ويسير طبيعيًا.

لم يتحرك «توماسينو» من مكانه، ولم يغير من نظرته الثابتة، ظل يرقُب اقتراب «حسين» حتى صار بينهما أقل من متر، ثم قام ممسكًا بياقة قميص صديقه مُغمغمًا من بين أسنانه في غضب مكتوم:

- فعلتها مجددًا يا «حسين»؟ هه؟ لن يبيع أحد إكستاسي لأمثالنا.

فتح «حسين» كفًا دامية وكشف عن قرص مُصفر وهمس باسمًا:

- لكنني حصلت عليه من بين أنياب الشيطان.. سرقته منهم.

- سرقته؟ مظهرك لا يوحي ليَ بذلك. ماذا حدث؟

- أين «بريجيت»؟

- نائمة.. ماذا حدث؟

- كف عني الآن.. تصبح على خير.

لم يتخلَ «توماسينو» عن ياقة القميص، فحدجه «حسين» بنظرة مُهددة.

- «حسين».. الطفلة تحتاج إلى طعام.

- اشترِ لها..

- مالي لا يكفي! أين مالك؟!

- «توماسينو»، يمكن لكل شيء أن يؤجّل للصباح.. دعني الآن كي أنام.

- سُرقت؟ أعرف.. أعرف!

أطلق «توماسينو» سراح «حسين» الذي كاد يسقط أرضًا، فجلس على سلم العربة ودس القرص في جيبه قائلًا:

- نعم.. سرقوا كل ما معي. ماذا تريد؟ تريدني أن أرحل وابنتي؟ ستطردني كما طردني أبوك؟

- أبي طردك لأنه لن يتحمَّل أن تكون عالة عليه. أنت لا تلتزم في عمل، ولا تراعي قواعد البيت الذي آواك. كيف يأمن على بناته وزوجته في وجود رجل غريب مُخدَّر أغلب الوقت؟ نحن صقليون يا «حسين» ولا نطمئن للغرباء، لكنه قبل أن تُرضع أمي ابنتك وأن تعمل معه لأجلي. أنت لم تعبأ بي ولا بالثقة التي منحها أبي لي ولاختياري صداقتك. لقد سمعت منه ما لم أكن لأتحمله لولاك، ولولا الصغيرة البائسة، ولم أخبرك بشيء من كل هذا. والآن تلومني على حفاظي عليك وعلى الطفلة؟ إن

كنت تريد الرحيل يا «حسين» ارحل، لكن لا تأخذ «بريجيت» معك. لا ذنب لها في غذوك خلف الأوهام. لن تستطيع تحمُّل مسؤولية أحد ولا حتى نفسك.

ـ أهكذا تراني؟

ـ هذه هي الحقيقة، أما أنا فما زلت أرى في داخلك «حسين» صديقي، الذي يحمل تناقضات العالم في داخله.. الذي عانى الهجر والتخلي ولن يسمح لابنته أن تعانيهما. لست خير من يعظ؛ فأنا أيضًا ضال، أبحث عن لقمة ولفافة ماريجوانا ولا يهم ما سيحدث لي غدًا. لكني لن أسمح لـ«توماسينو» أن يضر أحدًا.. ولن أسمح أن تؤذى طفلة في عمر أختي الصغيرة أو أن تُضار بذنب لم تقترفه.

لم يسمع «حسين» من «توماسينو» طيلة الأعوام التي عرفه فيها كلامًا أشد قسوةً مِمّا قاله، ولم يكُن من شيم الصقلي الشاب أن يتحدث كثيرًا في أي أمر جاد. لكن منذ ولادة «بريجيت» وهو يتغيَّر تدريجيًا، وبعد عامٍ صار «توماسينو» شخصًا آخر، وصار «حسين» هو الآخر شخصًا آخر، شخصًا لا يود أن يواجهه حتى في انعكاس وجهه في المرآة.

لكن «بريجيت» رحلت وتركت وراءها أسئلة مُعلقة، وبابًا مواربًا خلفه طريق مظلم. لا يجد «حسين» في نفسه طاقةً إلا لاتباع الطريق ذاته لعلّه يصل إليها حتى إن كان مُستقرها في الجحيم.

ويالروعة الإكستاسي، ويالغرابة العالم الذي يسحبه إليه. كل شيء ممكن، كل إحساس فيه يتضاعف حتى يفعم الحواس ويفيض. العالم ليس كما نراه؛ فلم يعد في مقدور «حسين» أن يحيا في عالمنا محدود الأبعاد، ويهجر العالم الذي جاءت منه «بريجيت» وإليه رحلت.

وكأنّ «توماسينو» هو ذاكرة إضافية لـ«حسين»، كلما نسي الثاني تذكّر الأول.. كلما ابتعد «حسين» اقترب صديقه. روح واحدة سُكبت في جسدين، ولم يدرك «توماسينو» أن نصف روحه خاض رحلة في

جسد آخر، وعليه أن يكملها هو. تلك هي غرابة الصداقة وقسمة الأرواح.

ستة أشهر تحمّل «حسين» فيها «ماسيمو»، وتحمل الصقلي فيها الغريب الذي أكرمه لأجل ابنه، طمعًا في أن يعود «توماسينو» يومًا إليه. لكن الطفلة صارت في عمر يسمح بفطامها، وعلى «حسين» أن يتدبّر أمره وأمر ابنته.

عاد «حسين» إلى العمل في المزارع مع «توماسينو»، ثم وجد له الأخير عملًا في مطبخ الأكاديمية، حيث يعمل هو و«جيادا» شتاءً.

لكن «حسين» كان يعمل فقط ليشتري تذاكره لعالم «بريجيت» السحري، ولم يعُد يرى ما سواه.

قام «حسين» من مجلسه على سلم العربة وفتح الباب داخلًا ليجد «بريجيت» الصغيرة مستيقظة في صمت، ممسكة بلعبة مطاطية صغيرة. عندما رأته هتفت في تلعثم مضحك:

ـ سو بابًا!

وكانت تدعو الجميع «سو» كما اعتادت أن تدعو «توماسينو». جلس أبوها جوارها وقبّل جبينها. غدًا ستبلغ من العمر عامًا، لكنه لم يشعر برغبة في شيء إلا في استعادة يوم ولادتها على الرغم من الهول الذي لاقاه فيه. تمدد جوارها مستعيدًا صرخات «بريجيت»:

ـ أنا أموت.. لن تخرج روحي يا «حسين»، لكنها ستهبط إلى رحمي لتحل فيها.. أنا أموت.

مغمض العينين، يمد يده في جيبه ويُخرج القرص المصفر ويبتلعه.

* * *

في الصباح، جاءت «جيادا» وأخذت «بريجيت» لتحتفل بعيد مولدها مع إخوتها وأمها بالرضاع. لم يمانع «حسين» ولم يوافق. كان يعاني

صداعًا حادًا فطلب منهم أن يتركوه لينام.

رحلت «جيادا» و«توماسينو» مع الصغيرة، وبعد ساعتين قام «حسين» مترنحًا وتقيأ عصارة معدته. بحث في حاجيات صديقه عن بيرة أو لفافة ماريجوانا فلم يجد. احتسى كوبين من القهوة حتى استطاع أن يعي ما حوله، ثم فتح البرطمان الزجاجي الذي يحتفظ فيه «توماسينو» بالعملات الفضية ويستخدمه كحصالة، فأخذ ما به وركب حافلة متجهًا إلى منزل دكتور «رجب».

كانت رحلة طويلة، لكنها ضرورية. قال لنفسه هو يشاهد الجبال تجري في اتجاه معاكس لاتجاه الحافلة إنه لن يسمح بأن يكون هو وابنته عالة على أحد. لكنه لم يستطِع أن يكرر تلك الحُجّة مرة أخرى أمام نفسه، فحين وقعت عيناه على انعكاس وجهه الشاحب في زجاج النافذة أدرك أنه فقط يريد مالا كي يبتاع أحلامًا لا أكثر.

قرر «حسين» أن يذهب إلى عيادة دكتور «رجب»، لا منزله؛ فهو لن يتحمل تعليقات زوجته وأبنائه على مظهره. ظل جالسًا على سلم البناية حتى أبصر السيارة الـ«دينو» تتوقف عند المنعطف، ويترجّل منها الرجل الخمسيني حاملًا حقيبته الصغيرة.

توقّف دكتور «رجب» وهلةً عندما أبصر «حسين»، ثم جدّ السير إليه باسمًا قلقًا، يتخيّر عباراته قبل أن ينطق بها.

كان حكيمًا، فعلم أن أي لوم سيدفع الشاب إلى الفرار، وهو شيء لا يتمناه أبدًا.

صعدا معًا إلى العيادة الفاخرة وأجّل الطبيب استقبال أول كشف لديه، وأغلق باب مكتبه عليه وعلى الشاب الهزيل الناحل.

على الرغم من تعمُّد «حسين» خفض عينيه حتى لا تقابلا عيني الطبيب، فإنه كان ينظر إلى محتويات سطح المكتب ويتفحصها جيدًا. لم يستطِع أن يطرد من عقله منظر القلم المُذهب الفاخر ولا ساعة

الجيب الذهبية التي أخرجها الطبيب من جيبه ووضعها على المكتب.

بعد أن طلب له «رجب» مشروبًا دافئًا، بدأ «حسين» في الحديث زائغ النظرات، مُهتز الأعصاب:

- كنت.. أفكر في زيارة سريعة لمصر؛ كي أرى الوالدة.

- ممتاز يا بني.. خيرًا فعلت.

- وكنت.. في حاجة إلى مال كي أشتري تذاكر السفر والعودة.

- ماذا تعمل الآن يا «حسين» بعد تركك الدراسة؟

- أعمل في الأكاديمية.

- ما طبيعة عملك؟

- أعمال يدوية.. كنت أقول إنني أريد السفر في أقرب وقت.

- يمكنني أن أدبّر لك عملا، ويمكنني مساعدتك لو كنت تحتاج إلى مساعدة طبية أو دعم نفسي كذلك.

- أتعني أنك لن تستطيع إقراضي مالًا للسفر؟

- لا أقصد ذلك. كل ما أردت قوله هو: إنه يمكنك العودة إلى مصر والعمل هناك؛ فلا أرى سببًا يجعلك تظل هنا بلا دراسة أو عمل مميز. ما رأيك؟

- سأفكر في هذا الاقتراح حين أرى الأحوال في مصر.

فكّر «حسين» في أن يسأله مباشرة إن كان والده قد ترك ميراثًا مُعتبرًا أم خسر ماله في عملية التهريب الأخيرة، لكنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الطامع، خاصة أن «رجب» طبيب، ولن تخفى عليه علامات الإدمان.

- حسنًا يا بني.. يمكنني أن أقطع لك تذكرة سفر وأوصلك للمطار

كذلك، ما قولك؟

ـ لا أريد أن أكون عبئًا عليك.. فقط أقرضني ما يكفي من الليرات وسأردها لك.

رفع «رجب» سماعة الهاتف الموضوع على المكتب، ووضع إصبعًا على زرٍّ أخضر وسأل «حسين»:

ـ متى تريد السفر؟ سأطلب من مديرة العيادة أن تحجز لك التذكرة.

تأكد «حسين» أنه لن يستطيع الظفر من الرجل بمال، فقال يائسًا:

ـ أقرب وقت.

ـ ستسافر وحدك، أليس كذلك؟

ـ ومن تظنه سيأتي معي؟

ـ أنا فقط أتأكد.

طلب الطبيب من مديرة العيادة أن تحجز التذكرة، ولم يستطِع «حسين» رفع عينيه عن ساعة الجيب على المكتب. دفع كوب الشاي بكوعه فسكبه على الملفات أمامه. قام «رجب» محاولًا أن يبعد الأوراق عن السائل. ظل «حسين» يعتذر ويحاول إثارة فوضى أكثر على سطح المكتب بحجة تجفيف الشاي.

بعد أن هدأ الوضع، شكر «حسين» الطبيب على وعد بالاتصال به في اليوم التالي لمعرفة موعد السفر.

وفي طريق العودة، أخرج «حسين» ساعة الجيب الذهبية من جيبه وراح يحدِّق فيها. كانت دليلًا على أنه لم يعُد «حسين»، ولم يعُد أحدًا يُشرِّفه معرفته.

* * *

الإسكندرية ـ مصر

٢٤ يونيو ١٩٧١م

يسند «حسين» رأسه إلى نافذة الترام المتربة، كلما رفع عينيه إلى انعكاس وجهه على الزجاج رآها ـ «بريجيت» ـ مرتدية شالها الشهير ويكلل طوق مزدان بالأصداف جبينها.

صارت رفيقته كظله، هي والإكستاسي رفيقا درب الأوهام المريح الهانئ.

أخبره الدكتور «رجب»، وهو يوصله إلى المطار، متحاشيًا الحديث عن الساعة المفقودة، أن أمه قد تزوجت بعد أربعة أشهر من وفاة أبيه. وأعطاه عنوانها الجديد في سان استيفانو.

لم يجد «حسين» في نفسه أي رد فعل مِمَّا كان يتوقع، لم يغضب، لم يتساءل، لم يخطر على قلبه أي شعور.

كل ما كان يريده هو معرفة ما آل إليه بالوراثة من أبيه. كان يعرف أنه يملك شقة في القاهرة و«شاليه» فاخرًا في المعمورة، بالإضافة إلى مبالغ معقولة متفرقة في عدة بنوك. كل ذلك مقدور على معرفته، لكنه كان يريد رؤية أمه لسبب آخر.

حين وصل راجلًا إلى العمارة الفاخرة، منعه البواب من الصعود قبل أن يستأذن من «عامر» بيه وحرمه. وقف «حسين» يدخِّن تحت عمود الإنارة، واضعًا حقيبته الصغيرة بين قدميه. دقائق حتى عاد البواب وطلب منه الانتظار ريثما تنزل له الهانم.

ابتسم «حسين» ابتسامة ساخرة. أخبره دكتور «رجب» أنه أرسل لأمه برقية بقدومه. على الأغلب اتصل بها وحكى لها عن مظهره، وعن إدمانه وسرقته.

كان مستمتعًا بخوفها منه، وقلقها من إضراره بمظهرها أمام سيدات

المجتمع. الآن تدفع له ثمن مباهاة صديقاتها به.. الآن تدفع...

نزلت السيدة «آمال» بفستان بسيط وقد جمعت شعرها تحت إيشارب حريري. مكياجها الكامل وأهدابها الصناعية تشي بجهد جهيد لتبدو أصغر سنًا دومًا. هذا هو سلاحها الأوحد، ومن أجله يدفع العجائز المال للاستمتاع به في الحلال، فلا يهم سوى مظهرها الاجتماعي.

يبدو أن «عامر» بيه هذا ثريٌ مسنٌ، قادرٌ على الدفع مقابل التباهي بجمال أرملة «الرافعي» بيه ذائع الصيت.

حاولَت أن تبتسم، ولم يحاول هو؛ فقد كان مبتسمًا بالفعل ابتسامة جعلتها تجفُل وهي تتعرفه بصعوبة. مدت يدها إليه فلم يسلم عليها، فمسّدت على كتفه النحيلة كما تُمسّد على كلب مسعور لتهدئته، واغرورقت عيناها بالدموع:

- «حسين»، لِمَ كل هذه الغيبة والقطيعة؟

- لا لشيء.. لا تشغلي بالك.. أرى أنك لم تشغلي بالك كثيرًا.

شهرت «آمال» سلاحها القديم في وجهه وقالت وقد انتفخ الشريان في منتصف جبهتها:

- وأين كنتَ حين ترمّلتُ؟ أنا التي أرسلتُك للدراسة التي كنت تحلم بها، وحرمت نفسي منك، والآن تسخر مني؟! أنا لم أفعل شيئًا يُشين، أم كنت تتصور أنني سأترك السباع تنهش في جسدي وأنت تدور في البلاد جالبًا لنا العار؟!

لم تختفِ ابتسامة «حسين»، بل انفلتت منه قهقهة مريرة، مسح جبينه ونظر سريعًا إلى فاترينة محل الملابس خلفه، كانت «بريجيت» منعكسة على الزجاج، تبتسم وتطوح شعرها الكثيف الأشعث جانبًا كعادتها. عالم «بريجيت» البهيج، مقابل واقعه البغيض. قال:

- مهلًا.. لن نقف وسط الشارع نتحدث في أمور عائلية.. ألا تقلقين

الجيب الذهبية التي أخرجها الطبيب من جيبه ووضعها على المكتب.

بعد أن طلب له «رجب» مشروبًا دافئًا، بدأ «حسين» في الحديث زائغ النظرات، مُهتز الأعصاب:

- كنت.. أفكر في زيارة سريعة لمصر؛ كي أرى الوالدة.

- ممتاز يا بني.. خيرًا فعلت.

- وكنت.. في حاجة إلى مال كي أشتري تذاكر السفر والعودة.

- ماذا تعمل الآن يا «حسين» بعد تركك الدراسة؟

- أعمل في الأكاديمية.

- ما طبيعة عملك؟

- أعمال يدوية.. كنت أقول إنني أريد السفر في أقرب وقت.

- يمكنني أن أدبّر لك عملًا، ويمكنني مساعدتك لو كنت تحتاج إلى مساعدة طبية أو دعم نفسي كذلك.

- أتعني أنك لن تستطيع إقراضي مالًا للسفر؟

- لا أقصد ذلك. كل ما أردت قوله هو: إنه يمكنك العودة إلى مصر والعمل هناك؛ فلا أرى سببًا يجعلك تظل هنا بلا دراسة أو عمل مميز. ما رأيك؟

- سأفكر في هذا الاقتراح حين أرى الأحوال في مصر.

فكّر «حسين» في أن يسأله مباشرة إن كان والده قد ترك ميراثًا مُعتبرًا أم خسر ماله في عملية التهريب الأخيرة، لكنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الطامع، خاصة أن «رجب» طبيب، ولن تخفى عليه علامات الإدمان.

- حسنًا يا بني.. يمكنني أن أقطع لك تذكرة سفر وأوصلك للمطار

ترتجف وتدعو الله ألا تراه مرة أخرى.

* * *

عرف من المحامي أن أغلب أموال أبيه كانت باسم والدته، أما ما سيخضع للتقسيم فهو شاليه المعمورة وشقة القاهرة.

أصرت «آمال» على عدم الاجتماع بـ«حسين» حتى عند المحامي، لكن بعد أسبوعين آلت التسوية إلى أنها ستأخذ شاليه المعمورة وسيأخذ هو شقة القاهرة. لم تكُن تسوية عادلة، لكنه كان في حاجة شديدة إلى المال.

في يوم ٩ يوليو ١٩٧١م، سافر «حسين» إلى القاهرة ليرى الشقتين ويقابل المشتري الذي جلبه له المحامي. وهناك تعرَّف لأول مرة على عادل دميري.

* * *

٩ يوليو ١٩٧١م

الدقي - الجيزة

أرسل «حسين» خطابه الرابع لـ«توماسينو»، يطمئنه فيه على مسار رحلته، ويخبره أنه سيعود في أقرب وقت. لم يكُن له مُستقَر يتلقى عليه الرد، لكنه كان مطمئنًا على ابنته معه ومع ماما «جيوسيبينا» التي انتصرت أمومتها على الجفاء بينه وبين «ماسيمو». المرأة تحبها والأطفال يحبونها، فما المشكلة؟

كانت الشقة في بناية جديدة في شارع هادئ بالدقي، وكانت على نظام الفيلا الداخلية، شقتان يربطهما سُلم داخلي. فتح الباب وخطا إلى المكان المترب المفروش بأثاث مودرن ملون بألوان كانت مبهجة قبل أن تتغطى بطبقات الغبار الكئيبة.

وقف أمام خوان صغير، مِمَّا يُطلق عليه «بار» وفتحه. كان مليئًا

بزجاجات النبيذ والشامبانيا والكؤوس الفاخرة. أخرج زجاجة وقرأ عليها سنة الصنع (١٩٥٥م). فتح السدادة وتشممها، ثم ارتمى على الأريكة يجرعها دفعة واحدة.

جال بعينيه في المكان وشعر بألفة فورية، لم يفكر كثيرًا في ما كان يفعله أبوه في تلك الشقة، فربما كان يجتمع بشركاء عمل أو شريكات فراش.. لا يهم.. المهم أنه تركها له كما ترك له خواء النفس والهوان.

صعد السلم الضيق إلى الطابق العلوي، وظهرت أمامه شقة مماثلة للسفلى، لكن على مساحة أكبر، تزيد عليها بغرفتين كبيرتين. لم تكن مؤثثة بالكامل، فقط أنتريه جلدي في الصالة مع بعض أصص النباتات الصناعية، وحجرة من الحجرات الأربع مفروشة مكتبًا فاخرًا.

أخرج من جيبه سلسلة المفاتيح التي أعطاها إياه المحامي وفتح الحجرات الثلاث. ثم نظر سريعًا على المطبخ الخالي والحمام.

التفت ليصطدم بشخص صلب طويل.

لوهلة جحظت عيناه ولم يرَ أمامه سوى بقع سوداء، ثم مادت به الأرض فكاد يسقط، لولا أن شعر بمن يسنده.

ضيق عينيه ونظر فرأى شابًا ثلاثينيًا أشقر الشعر، باهت العينين، يرتدي قميصًا ضيقًا نصف مفتوح.

ضحك الشاب معتذرًا، فرنّت ضحكته الخشنة في الشقة شبه الخالية.

سأل «حسين» وهو يحاول الوقوف:

- معذرة.. من أنت؟

- عادل دميري، طيار مدني. أعتقد أنك السيد حسين الرافعي صاحب الشقة. وجدت الباب مفتوحًا بالأسفل، فدخلت.

- أنا هو.. تفضل.. اجلس، أم تحب أن ترى المكان؟

- لنجلس بعد أن أراه..

جال الشابان في الحجرات، وراح «عادل» يدق على الحوائط ليتبيّن سُمكها، ويقرع الأرضيات الباركيه بكعب حذائه الخشبي الفاخر. تفحّص السباكة والكهرباء، بينما وقف «حسين» في ركنٍ يُدخن.

عاد «عادل» من جولته باسمًا مُستحسنًا، وجلس دون دعوة على الأريكة الجلدية فاردًا ذراعيه على مسند الظهر، واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

كان انطباع «حسين» الأول عنه أنه شخص سَمج، لكنه ليس مضطرًّا للتعامل معه بعد اليوم حتى لو اشترى الشقة، فسيُتِم المحامي إجراءات البيع. قال «حسين» وهو يشير إلى السُلم الداخلي:

- ألا تريد أن تلقي نظرة على الطابق السفلي؟

- لا داعي.. أنا أحتاج إلى هذه الشقة فقط.

رفع «حسين» حاجبيه؛ فقد كان يتمنى فعلًا لو استطاع الاحتفاظ بالشقة السفلية الصغيرة اللطيفة. مكان آمن له ولـ«بريجيت» الصغيرة لو اضطرتهما الظروف للسفر إلى مصر أو الإقامة بها. من ناحية أخرى، كان «حسين» في حاجة إلى ادخار مال بعيد عنه، شيء بداخله كان موقنًا أنه سيضيع أي مال سائل في يديه وسيظلم ابنته بمستقبل قلق مجهول.

جلس «حسين» وأخرج علبة سجائره، لكن «عادل» اعتذر عن عدم التدخين.

- متزوج يا كابتن «عادل»؟

- خاطب.. سأتزوج خلال أشهر، ويمكنني أن أعتبر أن ما نجلس فيها هي شقة زواجي، وأنت أول من يزورني فيها.

ضحك «عادل» بصوتٍ رنان عادته، وابتسم «حسين».

- وأنت يا أستاذ «حسين»، متزوج؟

- كلا..

غيَّر «حسين» مسار الحديث إلى تفاصيل البيع، ثم أخيرًا قام «عادل» وسار نحو السلم الداخلي وهو يتحدث إلى «حسين» قائلًا:

- متى ستعود إلى إيطاليا؟

- خلال أيام.

- قلت لي ماذا تعمل!

- أدرس الرسم والنحت.

- ممتاز.. ما رأيك أن تساعدني في تجهيز الشقة؟ أحتاج إلى رأي متخصص، على الرغم من أنني قادر تمامًا على تجهيزها كأفضل مهندس ديكور.. لقد فعلتها مرارًا، لكن خطيبتي ستفخر كثيرًا بأن مَن أشرف على ديكورات شقتها فنان درس في إيطاليا. يمكنك أن ترسم لي أيضًا بعض اللوحات على الحوائط مباشرة. رأيتها في فيلّات أصدقاء لي وأعجبتني للغاية.

- يشرفني بالطبع.. لكن...

- أجِّل سفرك قليلًا ولننتهِ من الشقة، بعدها ستجد عروض العمل تنهمر عليك يا صديقي.. اسمح لي أن أعتبرك صديقًا. عمل كهذا يُدر دخلًا ممتازًا لشاب في مقتبل حياته مثلك. سأساعدك وسأرشحك لمعارفي.. كلهم من علية القوم يا «حسين».

شعور متداخل بالأمل في مستقبل أفضل في مصر، وبالضيق لتباسط «عادل» الزائد على الحد. لكن.. ماذا لو عاد إلى مصر ومكث في شقته مع ابنته، يعمل ويكسب ويمارس الرسم بلا حاجة إلى شهاداتٍ حتى؟!

لأول مرة منذ سافرت «بريجيت»، ابتسم «حسين» حتى تبدَّت أسنانه

النضيدة.

مد «عادل» يده وصافحه ليوثق اتفاقهما. أوصله «حسين» إلى سيارته وأخذ رقم هاتفه على وعد بالمقابلة في مكتب المحامي بعد يومين لإبرام عقد البيع.

عاد «حسين» إلى شقته مجددًا، وقد سطعت الموجودات في عينيه كأنَّ التراب الذي يحجب الألوان قد زال، وتوسطت «بريجيت» البساط الملون على الأرض، تمد له يدها وتضحك.

***

مارتساميمي - صقلية - إيطاليا

٨ أغسطس ١٩٧١م

لم تكُن ثَمَّةَ نسمة هواء على الشاطئ، وكأنهما يتنفسان ماءً خالصًا وسط الجو الجحيمي المشبّع بالرطوبة.

قال «حسين»:

- إنها فرصة عمرنا يا «توماسينو».. لن تتكرر! فكّر في مستقبلك رسامًا في مصر، لا أحد يعرفُ هناك سوى أنك الفنان الإيطالي! لن يأبه أحد لتعليمك من الأساس. أي شيء إيطالي في مصر هو قطعة من الفن الرفيع. سنعمل معًا وربما نتشارك في مكتب للديكورات قريبًا. أي مستقبل لنا هنا؟

- أتريدني شريكًا يا «حسين» أم أبًا لابنتك؟

- لماذا تدور في كل مرة وتصل إلى الاستنتاج الغبي نفسه؟ لماذا تقذف في وجهي دومًا تضحياتك لأجلي ولأجل ابنتي وتذكّرني أنني أب مهمل عربيد لا يهتم بمصلحة أحد سوى نفسه؟

بهدوء قال «توماسينو» وهو يحدق في عيني «حسين»:

ـ ببساطة لأنني أضحي من أجلك ومن أجل الطفلة المسكينة ولا أشكو من هذا يا «حسين».. لا أشكو أبدًا وليعلم الرب كم أحبكما. لكنك أب مهمل عربيد ولا تهتم بمصلحة أحد سواك.

ـ أنت وقح!

ـ أنا فقط لا أفهم كيف يحيا المرء وهو يكتم رأيه فيمن حوله. أي شيء سيستفيد هو أو مَن حوله من هذا الكتمان؟ فكر فيها.. لن أستفيد سوى ري الغيظ بداخلي حتى تبتلعني أدغاله، ولن يستفيد الظالم سوى التمادي في غيِّه!

ـ والآن أنا ظالم؟!

ـ أجل.

لم يزد «حسين» ولم يبتعد. «توماسينو» مرآة لا ذنب لها فيما ينعكس على سطحها. «توماسينو» بارع في الرسم فوق ما لا يستطيع تغييره، ربما كانت فلسفته أعمق من هذا؛ فهو لا يخفي ما لا حيلة له فيه، بل يغير فعلًا كينونته.. «توماسينو» نحّات لا رسام، يستطيع بالطرق الشديد أن يحيل حجرًا إلى معجزة فنية.

ـ ستأتي معي إلى مصر يا «توماسينو».

ـ أتعرف كم مر من الوقت لم أمس امرأة؟

نظر إليه «حسين» متسائلًا عن ذلك التغيير في مجرى الحديث. أردف «توماسينو»:

ـ ستة أشهر، منذ أن عدت لتعيش معي. ومنذ سافرت أنت، وأنا في رفقة «بريجيت» دومًا، حتى تيقن أبي أنها ابنتي وألصق أبوتها فيك. المهم.. ستة أشهر كافية لتتسلّم أنت راية الأبوّة..

قفز «توماسينو» من فوق السور الحجري القصير إلى الأرض وهتف مُبتعدًا:

ـ سأعمّد نفسي غمسًا في حوض الملذات المقدس، وسأعود لك إنسانًا جديدًا غدًا لنرى ماذا بشأن مصر.

ضحك «حسين» ومسح جبينه الغارق في العرق. ضحك وتمنى لو أن «توماسينو» من لحمه ودمه.

***

الدقي ـ الجيزة

٣١ ديسمبر ١٩٧١م

كان من الصعب العثور على إكستاسي في مصر، بل لم يسمع عنه أحد من الأساس. فلم يجد «حسين» بدًا من تجربة أنواع من الأمفيتامينات المتداولة بوصفها أدوية في الصيدليات. كانت تتيح له رحلة إلى عالم «بريجيت»، إلى جانب أثرها الجانبي في منحه طاقة للعمل والسهر ساعات طوالًا.

عاد «توماسينو» من الخارج حاملًا «بريجيت» الصغيرة على كتفيه، مُحملًا بأكياس ورقية من الفاكهة، وعلبة حلوى.

كان هذا هو احتفال «توماسينو» بأول مال يكسبه من عمله رسامًا؛ فقد رسم هو كل اللوحات الخاصة بشقة «عادل» وأشرف إشرافًا كاملًا على تشطيبها، بينما اقتصر دور «حسين» على الترجمة من الإيطالية وإليها، ومجالسة «عادل» في الأيام التي يزور الشقة فيها والتباهي بما رسمه «توماسينو» على اعتبار أنه من صُنع يديه هو، ولم يكُن «توماسينو» يفهم حديثهما، فقط كان يتساءل عن سر تجاهل «عادل» إياه.

أما الصغيرة «بريجيت» فكانت تقضي وقتها في الرسم واللعب حول «توماسينو»، ولكم من ألوان سكبت، ولكم من لوحات أفسدت. لكن سو «توماسينو» كان معتادًا شقاوة الأطفال، وقد كانت «بريجيت» رسميًا

أختًا له.

ظل «حسين» مُحاطًا بالخمور وكتب فلسفات الشرق الأقصى، وأقراص الريتالين. ولم تبرحه أشباح «بريجيت» قط.

حاول «حسين» في البداية أن يرسم اللوحات لـ«عادل» كما كان الاتفاق، على أن يقتصر عمل «توماسينو» على معاونته والإشراف على تشطيب الشقة.

مع الوقت، لم يكُن في مقدوره إلا رسم هلوسات مختلطة بشعر أشقر أشعث، وشال واسع النسيج، وطوق من أصداف البحر.

لم يكُن «حسين» رسامًا، وقد جرب أشياء عدة وعرف ما لا يتقنه، وتوصل إلى أنه والخواء سواء، وعاء ضيق فارغ يفيض بكل ما يوضع فيه.

وضع «توماسينو» المشتريات على المنضدة، ونزلت «بريجيت» من فوق كتفيه، تعدو نحو شجرة الكريسماس الصغيرة المُزدانة بالكُرات الملونة.

نظر إليها «حسين» باسمًا فاتحًا ذراعيه:

- أين حِضن بابا؟

اكتفت «بريجيت» بأن لوَّحت له من بعيد، ثم وقفت على أطراف أصابعها تشير إلى النجمة التي تتوِّج شجرة عيد الميلاد وتصيح:

- ستِدًّا!

حملها «توماسينو» ومكَّنها من الإمساك بالنجمة. على الرغم من أن «حسين» هو من ترك ابنته لصديقه، فإنه كان يشعر بالغيرة كلما تجاهلته وتعلقت بـ«توماسينو».

- ستِلًا يا «بريجيت».. «توماسينو»، أنت تتحدث أمامها كثيرًا باللهجة الصقلية، ما فائدة إتقانها لهجةً كتلك بينما يمكنك تعليمها الإيطالية

حتى؟!

ـ الطفلة ثلثها صقلي، لا دخل لي في ذلك. ثم إن كنت تريدها أن تتكلم العربية، فلتتحدث أمامها. لا أظنك ستأخذ درجة الدكتوراه في الفلسفات الشرقية قريبًا.

صعد «توماسينو» إلى شقة «عادل» ليلقي عليها نظرة أخيرة قبل تسليمها وأغلق فتحة السقف التي تؤدي إليها للأبد، وكان «حسين» منشغلًا في قراءاته فلم يشعر بشيء سوى بنداء «توماسينو» الغاضب عليه من أعلى.

صعد متأففًا وخلفه «بريجيت». رأى «توماسينو» واقفًا أمام لوحة قد رسمها في المدخل تُغطي نصف الحائط العلوي، وكان يشير إلى ركنها السفلي غاضبًا.

ـ «حسين».. لِمَ وقّعت باسمك على اللوحة؟

لم يتردد «حسين»، وكان قد أعد كل شيء لهذه اللحظة:

ـ «توماسينو».. هذا طبيعي، «عادل» قد طلب مني أنا أن أصمم ديكورات الشقة وأرسم له اللوحات، وأنا أخبرتك أننا سنقتسم العمل معًا، وقد قسمناه وأعطيتك المال الذي طلبته مقابل لوحاتك وإشرافك على العمل. كيف تظنني سأخبره أنني عاجز عن الإبداع؟ أنا مُتعب يا «توماسينو».. مُتعب وضائع، ولو عرف «عادل» بعجزي لن يرشّحنا للعمل لدى أصدقائه كما وعدني. في كذبتي هذه مصلحتنا واستمرار عملنا.

ـ افعلها مجددًا يا «حسين»، ولن تراني مرة أخرى.. اتفقنا؟

ظلّ «توماسينو» في حجرته حتى الحادية عشرة مساءً، بينما جلست «بريجيت» عند بابها المغلق تغنّي وتحدث نفسها كعادتها. دقّ جرس الباب، وكان القادم «عادل»، حاملًا زجاجتين من الخمر يسندهما إلى

صدره.

ـ مساء الخير يا «حسين».. عام سعيد!

ـ مساء النور، تفضل.

دخل «عادل» وجال بعينيه في المكان سريعًا، ثم جلس على الأريكة الزاهية وراح يقلّب في الكتب الموضوعة على المنضدة ويقرأ أغلفتها:

ـ أنت مهتم بهذه الفلسفات، هه؟

ـ ليس كلها، فقط بعض الأجزاء التي تتحدّث عن تناسخ الأرواح والوصول إلى النيرفانا.

ـ أنا أعشق تلك الأمور وأفهم فيها جيدًا.. سنجلس ونتحدث أكثر، وعد.

صمت «عادل» حين وجد «بريجيت» تسير إليه في فضول. قال لها باسمًا:

ـ أهلًا بالصغيرة.. أين بابا؟

أشارت «بريجيت» إلى الحجرة المغلقة. قال «حسين» وقد احمرَّ وجهه اضطرابًا:

ـ هي تفهم العربية، لكن لا تتكلمها جيدًا.

ـ لا يهم؛ فهي في النهاية إيطالية، ولو مكثت في مصر ستتعلم وحدها. أنت شهم حقًا كي تؤوي صديقك هذا وابنته في بيتك.

لم يرّد «حسين»، فأردف «عادل»:

ـ أنتظر أصدقاء لي لقضاء رأس السنة معًا، أريدك أن تنضم إلينا ليعرفوك، ولتشرَح لهم سبب اختيارك موضوعات لوحاتك في شقتي.

كانت تلك هي الفرصة التي يتحيّنها «حسين» لفتح باب المستقبل.

قام وارتدى ملابسه، ثم وقف أمام «عادل» مقترحًا في تردد:

ـ هل يمكن أن يحضر «توماسينو» الحفل معنا؟

وافق «عادل» وسبق «حسين» إلى الشقة ليجهز الجلسة، بينما طرق «حسين» باب «توماسينو» ودخل. طلب من صديقه أن يشاركهم الحفل. أطفأ «توماسينو» سيجارته وقال في برود:

ـ اذهب أنت. على أحدنا أن يبقى ليرسم ذكرى رأس السنة في عقل «بريجيت». لم أفوّت قط رأس السنة واحتفالات عيد الميلاد المجيد مع أهلي، هذه هي الذكريات التي ستعزل عن أرواحنا الصدأ. لو أردت أن تبقى معنا ابق. لو لم تُرد فهي حياتك في النهاية. ولا تعتبر هذا وعظًا بالمناسبة. أنا فقط أبرر لك رفضي.

ـ لديك حق.. سأصعد إليه نصف ساعة فقط.

***

تحت مصباح السقف الأصفر الفاقع، وأمام لوحة الفتاة الصقلية ذات النظارة الملونة والفستان الزاهي ذي الخطوط الموصولة بأشعة الشمس، جلس «عادل» و«حسين» وأربعة رجال آخرين وأربع نساء حول طاولة مستديرة، تناثرت عليها الكؤوس الفارغة والطفايات المفعمة بأعقاب السجائر.

نظر «حسين» إليهم وتفحص علاقاتهم، بدا أن الرجال والنساء أصدقاء، عشاق، هي جلسة غير عائلية. لكن «عادل» لم يك له رفيقة سهر، وهذا أمرٌ اعتبره «حسين» إيجابيًا.. الرجل محافظ وفيٌّ لخطيبته.

كانوا منهمكين في لعب لعبة يديرون فيها زجاجة خمر خالية، ويرون إلى أي شخص تشير فوهتها، فيكون من نصيبه سؤال من الشخص الذي تواجهه قاعدة الزجاجة.

لفّت «سميرة»، إحدى الضيفات، الزجاجة، لتستقر فوهتها تجاه «حسين». سألته في غنج وهي تميل أكثر على الطاولة فينكشف صدرها أكثر:

- «حسين»، كم امرأة عارية رسمت وأنت في إيطاليا؟

نظر «عادل» تجاه «حسين» باسمًا، وقال:

- أعتقد عشرات، أو مئات.. لكنني سعيد أنه لم يرسم إحداهن على حوائط الشقة، لكنني حتمًا سأكون شاكرًا لو أهداني لوحة الجمال الصقلي العاري أعلقها في مكتبي بعيدًا عن نظر «حنان».

ضحك الحضور، وراحوا يتحدثون عن جمال النساء الإيطاليات الملائكي، ووسامة رجالهم الشيطانية، بينما احمرّ وجه «حسين» وهو يستعيد المرة الوحيدة التي مسّ فيها امرأة. قال وهو يجرع الخمر من الزجاجة مُباشرة:

- الحقيقة أنا لم أرسم سوى لوحة واحدة لامرأة واحدة، ولم تكُن فرنسية.

تساءل «حسين» عمّا قاله. حاول أن يغيّر الموضوع، حاول أن يتذكّر السبب الذي يجبره على الكذب بشأن «بريجيت» وبشأن عجزه عن الرسم، لكه لم يستطِع أن يتذكّر. عقار الهلوسة مع الخمر أفقده عقله تمامًا وأصابته نوبة من الضحك والحديث المستمر بلا داعٍ:

- في الأساس، أنا رسّام فاشل، وأبٌ فاشل.. لكن «عادل» صديقي ويثق بي، وعليّ أن أكون عند حسن ظنكم.. أنتم أصدقاؤه مَن ستجلبون لي فرص العمل، هه؟

راح «عادل» يحك أنفه في حرج، ثم استأذن من أصدقائه وأمسك بذراع ضيفه المخمور برفق، وقاده إلى غرفة المكتب التي لم يتسنَّ لـ«حسين» دخولها من قبل، لكن «حسين» قال قبل أن يقوم:

ـ سأرسم لكم بشرط، أن تتركوني أنا و«توماسينو» وحدنا..

نظرت بعض النساء إلى بعضهن وضحكن في خُبث، أغلق «عادل» باب المكتب خلفه هو و«حسين». نظر الأخير حوله إلى الحجرة ومحتوياتها.

لم يغيّر «عادل» فيها كثيرًا، احتفظ بالمكتبة الأصلية وكتبها والمكتب وكرسيه الفاخر، لكنه أضاف عددًا من اللوحات الكلاسيكيّة التي بدت لـ«حسين» أصلية، كي تضفي على المكان رونقًا أصيلًا خاصًا.

جلس «عادل» على الأريكة الصغيرة وربّت على المكان الخالي جواره كي يجلس «حسين». ارتمى الأخير وهو يدندن أغنية البيتلز: «ابكي يا حبيبتي ابكي».

ـ يمكنك البقاء في المكتب يا «حسين» ريثما تفيق. لا مشكلة.

تكلّم «حسين» وهو يجاهد كي لا ينظر إلى حيث تجلس «بريجيت» حبيبته على المكتب. قال بلسان ثقيل:

ـ عليّ أن أنزل لأحضر احتفال رأس السنة مع ابنتي و«توماسينو».

ـ ابنته تقصد.. عمومًا الساعة الآن الثانية والنصف.. عام سعيد يا «حسين».

ـ كم الساعة؟!

قام «حسين» فزعًا فتعثّر وسقط على ركبتيه.. فرصة أخرى ضاعت ولن تعود قبل عام آخر.

ابتسم «عادل» في رفق وقال:

ـ يبدو أنك تحبها كثيرًا.. الفتاة لطيفة فعلًا وأبوها كذلك. لكنه صقلي زيادة على اللازم، وتؤلمه كرامته كثيرًا.

ـ أعرف.. لكنه أب عظيم..

ـ يمكننا أن نقيم حفل رأس سنة آخر في أي وقت. ثم قليلًا هنا لو أردت.

ـ لا.. سأنزل لهما.

ـ كما تشاء.

ظلَّ «عادل» جالسًا فاردًا ذراعيه على جانبي ظهر الأريكة، عاقدًا ساقيه. ترنح «حسين» وفتح الباب خارجًا منه. توجه نحو السلم الداخلي، واسترعى انتباهه شيء. ضيَّق عينيه ونظر نحو الحجرة المفتوحة التي يتحلَّق فيها الضيوف حول المائدة. كانوا ثمانية.. نعم.. وكان «عادل» تاسعهم. نظر خلفه نحو المكتب، ورأى «عادل» جالسًا على الأريكة حيث كان يشير إليه ويبتسم.

* * *

٩ يونيو ١٩٧٢م

الدقي ـ الجيزة

تعهد «حسين» لنفسه ألا يفوِّت مناسبة تخص «بريجيت» الصغيرة مرة أخرى.

نظَّف المنزل بنفسه تحت تأثير النشاط الذي تمنحه له الأمفيتامينات. كان يستعين بتقويم ورقي يساعده على تذكُّر مواعيده؛ فقد كانت ذاكرته في حالة يُرثى لها، وكل ما كان يهمه هو أن يتذكر المناسبات التي يجب عليه الاحتفال بها مع ابنته، وكل ما يخص بريجيت دومينيك وعالمها ومعتقداتها الآسيوية الغريبة.

لأسباب عِدة، كان وجود شبح «بريجيت» مقنعًا بالنسبة له؛ فهي بالتأكيد قد ماتت، وحلت روحها في جسد «بريجيت» الصغيرة، وهذا جزء من وعيها قد تحرر ويحوم حوله ليقوِّيه على مسؤوليته في تحرير روح «بريجيت» للأبد. لا توجد أشباح حقيقية في هذا العالم، الشبح

هو ما يتبقى من ذكرى حين يغادر الإنسان للأبد.

جمع كل ما يمكن إخفاؤه من أدوات فنية خاصة به وأغلق عليها حجرته، علق زينة ورقية ملونة، نفخ البالونات ونثرها في الأرجاء، تأكد من وجود المشروبات الغازية وقالب الحلوى في الثلاجة.

سمع ثلاث طرقات على باب السلم الداخلي، وعرف أن «عادل» يريد النزول إليه؛ فبعد زواج الأخير صارت هذه هي الطريقة التي ينبّه بها «عادل» «حسين» إلى أنه قادم وحده دون «حنان»، زوجته.

لم يكُن ما وضعاه عند السلم الداخلي بين الشقتين بابًا بالمعنى المفهوم، بل هي قطعة خشبية سميكة تُغلق فتحة السقف عند «حسين»، وفتحة الأرض عند «عادل»، إلا أن «حسين» قد احتفظ بالسلم نفسه ووضع «توماسينو» عليه أصُص الزرع وصورًا فوتوغرافية مؤطرة لـ«بريجيت» الصغيرة، وعند القمة وضع «حسين» لوحة «بريجيت» الكبيرة، اللوحة الوحيدة التي أتمَّها في حياته.

ارتدى «حسين» روبًا فوق بنطال بيجامته وفانلته الداخلية وفتح الباب سامعًا صوت خطوات «عادل» نازلًا إليه.

كان يحمل علبة ضخمة من الحلوى أعطاها لـ«حسين» باسمًا:

- لا أعرف إن كنت نسيت موعد عيد مولد ابنتك.. ابنة «توماسينو» أعني. هذه علبة شيكولاتة كنت قد اشتريتها خصيصى من سويسرا في سفرَتي الأخيرة لهذه المناسبة. أعرف إلى أي حد تهتم بها.. خذها.

- تفضل يا «عادل». لم أنسَ طبعًا، انظر ماذا حضَّرت لها.

- ممتاز.

دخل «عادل» وكعادته تمشَّى بهدوء في المكان حتى توقف أمام التقويم الورقي المعلق على الحائط، وراح يقلّب في الأشهر التالية ويرى العلامات الموضوعة عند أيام معينة. ثم عاد إلى صفحة شهر

يونيو وأشار إلى العلامة حول تاريخ اليوم وقال:

ـ مفيدة تلك التقويمات، أحيانًا ما تخوننا الذاكرة وتكشف عن اهتماماتنا الحقيقية.

ـ ماذا تعني؟

ـ أبدًا.. أنا أيضًا أنسى عيد مولد «حنان»، وتُحيل حياتي جحيمًا لهذا منذ أن كنا مخطوبين. كل الأمر أنني أهتم بأشياء أهم بالنسبة لي من تذكُّر يوم مولد شخص آخر، ولا يعني هذا أبدًا أنني لا أحبها.. لا بُدَّ أنك أيضًا تهتم بأشياء أقرب لقلبك.

لم يترك «عادل» فرصة لـ«حسين» كي يرد، وسار نحو الباب مجددًا مُردِفًا:

ـ أتركك كي تُنهي استعداداتك. سأكون أنا و«حنان» عندك في تمام السابعة كما اتفقنا.

راقب «حسين» «عادل» يصعد السلم، ثم أغلق الباب ووضع علبة الشيكولاتة في الثلاجة.

سمع صوت المفتاح يدور في الباب، ثم صياح «بريجيت» وصوت وَثَباتها المَبتهجة، وهي تدور حول نفسها ناظرة إلى الزينة المُعلقة والبالونات.

كانت ابتسامة «توماسينو» أكبر بكثير من ابتسامتها؛ فقد كان قلِقًا من أن يخذل «حسين» ابنته مجددًا، ويعودا من الخارج ليجداه غارقًا في العرق والخمر والموسيقى الصاخبة.

جرت «بريجيت» نحو «حسين» وعانقته وقبلته فابتهج واستبقاها بين ذراعيه قدر الإمكان، لكنها تملَّصت منه وعادت إلى «توماسينو» وطلبت منه أن يحملها، وحين فعل، ظلت متشبثة بعنقه تحاول الإمساك بالزينة المتدلية من السقف.

تجهَّم «حسين» حُزنًا؛ فهو لا يعرف ماذا يفعل كي تحبه، لكنه يعرف تمام المعرفة سبب استحقاق الصقلي لهذا الحب. وكان السبب هو الذكريات. بينما كانت «بريجيت» تحتل أربع مناسبات أو خمسًا في تقويمه، كانت تحتل عالم «توماسينو» كله، وكان هو راضيًا بهذا الاحتلال الملائكي.

أما «حسين»، فهو غير راض أبدًا..

* * *

طرحت «حسين» أرضًا موجة من تأرجح المزاج، كان يشعر بالغضب لفقد «بريجيت» الكبيرة، والغضب من عدم تقبُّله للصغيرة بديلًا. لم يكُن لديه سوى الاقتناع بأمر التناسخ، وإلا فلن يمكنه أن يحبها أبدًا.

ظلَّ في حجرته حتى السادسة والنصف. من خلف بابها يسمع صوت تحضير المائدة واصطكاك الأطباق، وصخب الراديو، وضحكات «بريجيت».

دلف إلى الحمام متحاشيًا أن ينظر إلى الصالة، وحين خرج منه وجد «عادل» بمفرده جالسًا على الأريكة، شاردًا. ولم يكُن «توماسينو» يُعيره انتباهًا كعادته، متحججًا بأنه لا يفهم العربية، وهي حجة واهية. «توماسينو» يعمل الآن مدرِّب رسم لدى عددٍ من العائلات ويجيد العربية والإنجليزية إلى حد كافٍ لإقامة حوار بنَّاء.

تسلَّل «حسين» إلى حجرته وغيَّر ملابسه، وخرج فلم يجد «عادل»، فسأل «توماسينو»:

- أين ذهب «عادل»؟

- أين ذهب؟! وكيف أعرف أين ذهب؟

- هل طردته؟! كعادتك تفعل ما تشاء وقتما تشاء!

على الرغم من غضب «حسين»، فإن «توماسينو» كان يرد بهدوء

وخفة، وهو يثبت وردة بيضاء على شعر «بريجيت» صنعاها معًا من قصاصات قماش الساتان:

- أولًا: أنا بالفعل أفعل ما أشاء، هل تتوقع أن أفعل ما يشاؤه غيري؟ ثانيًا: كيف أطرده وهو لم ينزل بعدُ؟!

نظر «حسين» إلى الأريكة ولم يكُن أحدٌ جالسًا عليها فعلًا.. هلاوس مرة أخرى؟ وهل كان طيف «بريجيت» هلاوس؟ لا يمكن.. هذا يهدم كل ما أقنع نفسه به.

غير أن «بريجيت» الصغيرة قالت بطريقتها الطفولية التي تخلط العربية بالصقليَّة وهي تشير نحو الأريكة:

- سو هنا وذهب تشاو..

تلاقت أعين «حسين» و«توماسينو» على وجهها. وأدرك «توماسينو» أنه كان موليًا الأريكة ظهره طيلة الوقت، لكن كيف كان «عادل» هنا ولم يشعر به؟

سأل «توماسينو» «بريجيت» بعربية مُهشَّمة:

- من كان هنا يا حلوة؟

- «عادل»!

أمسك «حسين» بكتفيها بقوة، فنظرت إلى «توماسينو» مستغيثة.

- هل رأيته؟ هه؟

همس «توماسينو» بالإيطالية:

- «حسين»، كفى، أنت تؤلمها.

لم يعبأ «حسين» بشيء سوى أن يستنطق الطفلة. سألها والأمل يطل من عينيه:

ـ رأيتِ عمو «عادل»؟ انظري يا «جيجي»، هل ترين لوحة المرأة الشقراء، لوحة ماما؟

ـ نعم.

ـ هل رأيتِها معنا من قبل؟

اتسعت عينا الصغيرة وهزت رأسها يمنة ويسرة.

انتزع «توماسينو» «بريجيت» من بين يدي أبيها وأدخلها حجرته وقال لها باسمًا:

ـ هيا ارسمي شيئًا جميلًا بسرعة كي نهديه لـ«حنان» و«عادل».

ـ سو «عادل»؟

ـ أجل.

أغلق الباب خلفها بهدوء، ثم سار غاضبًا نحو «حسين» وهتف بصوت جاهد كي لا يعلو فتسمعه الصغيرة:

ـ لا تنقل أوهامك إليها.. أتفهم؟

ـ هي رأت «عادل»، ألم تسمع؟

ـ هي مجرد طفلة، والعربية مُختلطة في ذهنها مع الإيطالية مع إصرارك الغبي على تعليمها الفرنسية. ربما فهِمَت ما قُلته فهمًا خاطئًا. ربما لا تعني أنها رأته. المهم يا «حسين»، لا أحد يرى «بريجيت» اللعينة سواك.. وما تراه ليس تجسدًا ولا روحًا ولا أي شيء ذي معنى، ما تراه وهمٌ مِمَّا تتعاطاه.

ـ ها أنت تعظني مجددًا.. هل أدخل حجرتك وأخرج من دُرجك الماريجوانا؟

ـ ادخل وأحضرها.. «حسين»، أنا لم أتعاطَ أي مخدر منذ ما يقرب من السنة ونصف السنة وأنت تعرف هذا. لديَّ حياة الآن وعمل ولديَّ أخت

صغيرة أربيها. أوجِد لنفسك حياة.

كان جسد «حسين» يرتجف، ويتفصَّد العرق من جبينه عندما رن جرس الباب. دفع «توماسينو» صديقه برفق نحو حجرته، ثم ذهب ليفتح الباب مُرحبًا بالضيفين.

ابتسمت «حنان» وهي تصافح الشاب وتُجيل عينيها السوداوين بين وجهه ووجه «عادل» كأنما تريد أن تعرف رد فعله على مصافحتهما. «عادل» لم يمانع من قبل في حديثها إلى جاريهما، لكنه كان دومًا ينتقد «توماسينو» وتصرفاته وحياته وعلاقته المريضة بـ«حسين».

أجلس «توماسينو» «عادل» و«حنان» في مكان آخر غير الأريكة التي زعم «حسين» و«بريجيت» أنهما رأيا الطيار الشاب جالسًا عليها، واستأذن ثواني كي يستدعي «حسين».

لم يستجِب «حسين» لطرقات صديقه على الباب، وتصاعد صوت أغنية سان فرانسيسكو وراح «حسين» يصاحبها بالغناء النشاز.

فتح «توماسينو» الباب فوجد صديقه جالسًا على الفراش، وشريط المُخدر جواره مع زجاجة بيرة.

- أنا أبحث عن حياة.. اخرج وعِش أنت حياتك الحقيقية.. إنه عيد ميلاد ابنتك يا «توماسينو»، هذا ما يعرفه الجميع عن «بريجيت».. اذهب.. لا مكان لي في أي موضع في العالم.

- يكفي أنها تعرف أنك والدها.. هذا ما يهم. هيا اخرج معي يا صديقي، وفكر في أيام تقضيها وحدك معها في جمصة مثلا..

- أو الإسكندرية.. ما رأيك؟ أن تقابل الفتاة جدتها؟

ابتسم «توماسينو» في مرارة، فلم يتخطَّ «حسين» أبدًا مشكلاته مع أمه، ويبدو أنه لن يتخطاها. كان يزورها من وقت لآخر في المقام الأول لإخافتها ورؤيتها ترتجف أمامه خوفًا من أن يرى زوجها حالته،

وفي المقام الثاني، كانت معينًا لا ينضب من المال، ابتزازًا، لكنه بالنسبة لـ«حسين» تصفية حسابات نفسية قديمة.

قال «توماسينو»:

- أعتقد أنني أنا من سيذهب إلى جمصة ويترككما قليلا.. الآن اخرج لابنتك وضيفيك.

* * *

في المطبخ، وجد «توماسينو» أمرًا غريبًا للغاية.

كان قد أخرج الحلوى من الثلاجة ووضعها في أطباق كبيرة ووضعها على الطاولة، ثم عاد ليُخرج علبة الشوكولاتة من الثلاجة، وكانت محشورة بين الأرفف التي ضاقت ببقايا الطعام وزجاجات المشروبات الغازية والبيرة.

حين أخرجها ووضعها فوق طاولة المطبخ لاحظ أنها ملأت فراغًا أكبر بكثير من الذي كانت تحتله في الثلاجة. نظر إليها في يده وإلى مكانها على الرف، فلم يجد أي طريقة يمكن بها أن تسع الثلاجة تلك العلبة الضخمة. حاول أن يُعيدها إلى الرف فعادت بسهولة، وبدت صغيرة في رُبع حجمها خارج الثلاجة.

«توماسينو» لم يقرب المخدرات منذ عام ونصف العام تقريبًا، ولم يشرب منذ أيام. ليس مخمورًا ولا يهلوس لأي سبب.

نادى «حسين» من مجلسه مع صديقه، وأراه المُعضلة. كان «حسين» يرى ما يراه «توماسينو» بالضبط ومن قبل أن يعرض عليه صديقه أي استنتاج.

- أنا أخذت العلبة منه صباحًا، والحق أنني لم أكُن واعيًا تمامًا، وتعجبت حين دخلت العلبة الكبيرة في هذا المكان الضيق، لكن «عادل» كان قد عكر مزاجي بحديثٍ فارغ، فلم أعبأ بما رأيت. والآن أنت تؤكد

هلاوسي!

ضحك «توماسينو» ساخرًا كعادته وهو ينظر إلى العلبة في اهتمام وكأنه يشاهد عرضًا سخريًا على مسرح. قال وهو يفتح العلبة:

- هات ما نفرغ فيه الشيكولاتة. لن نتركهم بالخارج أكثر من ذلك. زوجة «عادل» هذه مهووسة باستخدام كاميرتها الجديدة، وكنت أظن أن «بريجيت» قادرة على إرهاق بلد، لكن الحق أن الطفلة ستهرب لو صوّرتها أكثر من ذلك.

أحضر «حسين» بونبونيرة زجاجية كبيرة، أفرغ «توماسينو» محتويات العلبة الضخمة فيها فلم تملأ سوى نصفها!

- ما هذا؟! مقلب؟!

- لنخرج يا «توماسينو» ولنرَ أمر العلبة لاحقًا.

وضع «توماسينو» العلبة فوق المنضدة وهو يرمقها في شك.. سار خطوتين ثم التفت لها فجأة لعلّه يضبطها في حجمها الحقيقي، لكنها ظلت كبيرة، يتدلى غطاؤها خارج حدود المنضدة.

سمع الشابان صوت شيء يسقط، وشهقت «حنان». خرجا ليجدا «بريجيت» الصغيرة عند قمة السُلم ولوحة أمها ساقطة على الأرض.

جرى «حسين» نحو اللوحة يتفحصها، بينما تلقّف «توماسينو» الطفلة الباكية بين ذراعيه. سأل «حسين» في عصبية:

- ماذا حدث؟

رد «عادل» وهو ما زال جالسًا جلسته الشهيرة لم يحرّك ساكنًا:

- كانت «حنان» تُصور البنت بجوار لوحة أمها.. أمها، أليست كذلك يا «توماسينو»؟ هكذا قالت الطفلة. المهم أن اللوحة سقطت. لم يقصد أحدٌ أن يهين لوحتك يا «حسين»، أم هي لوحة «توماسينو»؟

توترت «حنان» وأعادت الكاميرا إلى جرابها وقد قررت أن هذا يكفي، قالت وهي تنظر نحو «عادل» كأنه المعني بما حدث:

- لا أعرف كيف سقطت، لم يلمسها أحد.. أنا لم أفعل شيئًا.

لم يُعِرها «عادل» انتباهًا، وظل يحدِّق إلى تعبير وجه «حسين» وهو يُعيد اللوحة بحرص إلى مكانها. قال «عادل» بهدوء واهتمام:

- الطفلة فزِعة. تعالي يا صغيرتي لتري هداياكِ.

أجلسها «توماسينو» بجوار «عادل» وركع بجوارها على الأرض يساعدها كي تفتح هدية صديق أبيها، لكنه لم يرفع عينيه عن عيني «عادل» المحدقتين في «حسين» واللوحة.

أسفرت هدية «عادل» عن دمية كبيرة مبهجة، شكرته الصغيرة واحتضنت الدمية التي كانت في مثل طولها تقريبًا.

قال «عادل» لـ«توماسينو» بعد أن رفع عينيه عن «حسين»:

- جميلة زوجتك.. أم هي صديقتك؟

- آه.. جميلة.

- وأين هي؟

- لا أعتقد أن الحديث عن هذا الأمر مناسب أمام الطفلة.

- آه.. مفهوم. وهل رسم لها «حسين» تلك اللوحة؟ أراه قد فزع لسقوطها. يبدو أنها غالية عنده.. أعني اللوحة.

- «حسين» مَن رسمها.. أجل.

لم يعتد «توماسينو» الكذب، وكان عقله يضيق بحبك الأكاذيب عمومًا. ظل «حسين» يحدق في اللوحة، حتى شعر «توماسينو» برغبة في لكمه. ما حدث لن يمر على خير، «عادل» لاحظ تعلّق «حسين» بمَن في اللوحة، لا اللوحة نفسها. «عادل» يختزن الزلات والهنّات لسببٍ ما

لا يعلمه إلا الله.

قطع «توماسينو» قالب الحلوى، وغنّى الحضور للطفلة، لكن «حسين» كان شاردًا مُغيّبًا، أما «حنان» فظلت تفرك في منديل يدها القماشي وتهز ساقيها توترًا وهي تختلس النظرات، تتفحص بها تعبيرات وجه «عادل» الضاحكة.

لم يمكث الزوجان أكثر بسبب تعب «حنان»؛ فهي في الشهر الخامس من الحمل والتوتر قد أتعبها. لف «عادل» ذراعه حول «حنان» وتمنّى للأسرة الصغيرة غير المتجانسة ليلة طيبة.

لم يجد «توماسينو» في نفسه طاقة للوم «حسين»، ويبدو أن الأخير قد أدرك ما وقع فيه من مشكلة أمام صديقه. إما أنه هو أبو «بريجيت» من الفتاة في اللوحة، وإما أنه كان على علاقة حب بزوجة صديقه أو حبيبته. عليه أن يختار ويشرح الأسباب لـ«عادل» لاحقًا إن لم يُرِد أن يزيد الشك في قلب جاره نحوه.

جلس «حسين» و«توماسينو» على جانبي سرير «بريجيت» الراضية عن حفلتها. قبّلها «حسين» وتمنّى لها أحلامًا سعيدة، لكن الصغيرة مدت يدها تحت الغطاء وأمسكت إصبع «توماسينو». بعد أن خرج «حسين» متعثرًا مترنحًا، قالت الصغيرة هامسة:

- إن سو «عادل» هو من أسقط اللوحة.

- كيف أسقطها يا حلوة؟

- كان هناك سو «عادل» وسو «عادل».

- ماذا تعنين؟ كان معنا سو «عادل» واحد فقط.

- لا.. كان «عادل» و«عادل».

قبّل «توماسينو» جبينها وطمأنها أنها كانت تتخيّل، فكما يوجد بابًا «حسين» واحد، وسو «توماسينو» واحد، فيوجد «عادل» واحد..

غالبًا.

* * *

في اليوم التالي، لم تجد «بريجيت» أي أثر لدميتها العملاقة، لم يكُن ثَمّةَ أثرٌ سوى لعلبة فارغة كبيرة.

بحث «توماسينو» و«حسين» في كل مكان فلم يجداها، حتى بحثا في صندوق القمامة أيضًا، وهنا وجد «توماسينو» علبة الشيكولاتة ساقطة في فراغ بين منضدة المطبخ والموقد.. فراغ صغير لا يتسع لتلك العلبة.

ما شأن هدايا «عادل»؟ بل ما شأن «عادل» نفسه؟!

مرت الأيام، وكان «عادل» يترك زوجته فترات متقطعة وحدها، وأحيانًا ما كانت تستضيف «بريجيت» عندها لساعة أو اثنتين لو صادف ولم يوجد «حسين» أو «توماسينو» في البيت ولم يستطيعا أن يأخذاها معهما.

في أحيانٍ كثيرة، كان يصعد «حسين» ليأخذ الطفلة من الشقة في الدور العلوي، فيجد «حنان» متورمة العينين، تحيط عينيها هالاتٌ سوداء كثيفة لم تُخفِهما بالمكياج الذي اعتادت وضعه كلما خرجت.

تحرّج «حسين» من سؤالها، ومن سبب عدم زيارة أيٍّ من أهلها إياها في غياب «عادل».

حتى جاءت ليلة، كان «توماسينو» ساهرًا مع أصدقاء له، وكانت «بريجيت» غافية على الكنبة، و«حسين» قد أتى بلوحة قماشية خالية، وراح يسكب عليها الألوان بعشوائية، وسيجارته متدلية من بين شفتيه، والمذياع عالٍ يذيع فقرات من البرنامج الموسيقي.

سمع «حسين» صوت اصطدام بالأعلى، توقف عمّا يفعله هنيهة وأنصت، لكن الصوت لم يتكرر.

راح يلصق بعض أوراق الأشجار الجافة فوق لوحته، محاولًا دمج عناصر مجسمة مع خلفية الألوان، لكنه سمع صوت أقدام تعدو.. لم تكُن صوت خطوات «حنان» فقط، شخص آخر كان معها.

أزاح ستار النافذة ونظر خلالها إلى الشارع، لم تكن سيارة «عادل» هناك. ربما لديها ضيوف.. ضيوف ثقيلو الوزن يجرون في أنحاء الشقة قرب منتصف الليل؟

لم يعبأ على الرغم من غرابة ما يحدث، فلكلّ خصوصيات لا ينبغي التدخل فيها.

ثلاث طرقات عنيفة أيقظت «بريجيت»، كان مصدرها الحاجز الخشبي الذي يسد السلم الداخلي. هذه إشارة «عادل» كي ينبهه أنه نازلٌ إليه.

ارتدى «حسين» سُترة البيجاما وفتح الباب ينتظر أن ينزل جاره، لكنه لم يفعل. قبل أن يغلق الباب مجددًا سمع صوت باب الشقة في الطابق العُلوي يُفتح، وصوت صرخات «حنان» النازلة على الدرجات حافية بملابس منزلية. رأته فتراجعت في ذعر للجهة المقابلة لباب شقته، وألصقت ظهرها بركن مدخل البناية حتى كادت تُسقط أوعية نباتات الظل.

سألها «حسين» وهو ينظر إلى أعلى السلم حيث ثبتت نظرها:

- مدام «حنان»، ماذا حدث؟

لم ترد، بل ظلت مُحدقة إلى أعلى السلم. كان باب الشقة في الجهة البعيدة، فلم يكُن ظاهرًا لـ«حسين» إلا عندما صعد الدرجات ناظرًا إلى أعلى.. من مكانه سأل «حنان» مجددًا:

- هل عاد «عادل»؟

غطت فمها بكفها، ثم سألته هامسًا:

- هل تراه؟

- كلا.. سأصعد إليه.

- لا!

صاحت «حنان» وجرت صاعدة الدرجات عابرة بجوار «حسين»، ودخلت شقتها وأغلقت الباب خلفها.

ربما قام خلاف بين الزوجين، وضربها مثلًا فهربت منه، ثم فكرت ووازنت أمورها فعادت. تفسير غير مقنع، لكن ماذا لديه من تفسيرات سواه؟

بعد نصف ساعة، سمع «حسين» الطرقات الثلاث، ارتدى ملابسه وقرر الصعود ليرى ماذا يحدث، إلا أنه وجد «حنان» عند باب شقته، تدفعه إلى الداخل وتغلق خلفهما الباب وتسند ظهرها إليه وهي ترتجف مشوشة الشعر زائغة العينين.

أجلسها «حسين» بجوار «بريجيت»، فاحتضنت الطفلة كأنها تبحث عن الأمان في حضنها.

- ماذا حدث؟ هل عاد «عادل»؟ وأين سيارته؟

- لا أعرف.. لا أعرف كيف عاد ولا إن كان مَن بالأعلى هو.. أعني.. «عادل» في الشقة، لكنه ليس «عادل» نفسه..

- اهدئي.

أحضر «حسين» كوبًا وزجاجة مياه غازية أفرغها فيه وأعطاها إياه:

- احكي لي بهدوء، ماذا حدث؟

- لا أعرف كيف أحكي.. لكن.. «عادل» «مخاوي»!

* * *

عاد «توماسينو» من شقة «عادل»، وقد أحضر بعض الصور الفوتوغرافية من دولاب «حنان» كما طلبت؛ فقد كانت مذعورة، تخشى العودة مرة أخرى، خاصة بعدما حكت لجاريها كل ما كانت تخفيه منذ ستة أشهر، ويالَعِظَم ما تخفي البيوت خلف أبوابها المغلقة.

تعرفت «حنان» إلى «عادل» في حفل زفاف صديقتها المقربة، وكان هو قريبًا لزوج صديقتها. لم تعرف لمَ أعجبته، لكنها وقعت في هواه من أول مرة رأته فيها. دعت الله يومين متتاليين أن تراه مرة أخرى، فاستجاب لها الله بمكالمة من صديقتها تخبرها أن «عادل» يريد أن يتعرَّف إليها أكثر بهدف الخطبة.

نسَّقت الأسرتان أن تتلاقيا في مصيف رأس البر، لتتعارفا ويتعارف الشابان تحت أنظارهما. لم تكُن «حنان» أجمل الفتيات، ولم يكُن فيها ما يليق برجل رأته كاملًا كأنما نحتته على ذوقها.

لم تعبأ بتصرفاته الغريبة، ولا بتقريبه إياها حتى تظن أنها ملَكته، ثم إبعادها عنه حتى توقن أنه قد أبغضها بلا رجعة. كلما أخطأ في حقها اعتذرت هي، ولم تشعر قط أنها تستحقه، فكانت تدفع مقدمًا ثمن كل لحظة خُلوة قد يمنحها إياها، وتشعر بالذنب تجاه كل كَدَرٍ يصيب علاقتهما. كان عالمها القاسي، لكنه كان عالمها وحدها حتى لو لم تشعر فيه لحظةً بالاستقرار.

قالت للشابين إنه غيَّر فيها كثيرًا، وأغدق عليها الهدايا فصارت أكثر نساء عائلتها أناقة.. كانت ظله، وملازمتها إياه كانت تُشبعها. لقب «حرم عادل دميري» يكفيها.

سَعَت إلى أن تحمل منه سريعًا، وهذا كان طلبه قبل كل شيء. ما إن حَملت حتى شعرت بجفاء بينهما، جفاء غير معلَن؛ فهو لم يهملها ولم يبعدها، وكأنما كان الحَمل تأكيدًا لرجولته أمام الناس لا أكثر.

لم تشهد بينه وبين عائلتها مشكلات مباشرة، لكنها كانت تلحظ حوائط شاهقة تظهر بينهما وبين أفراد عائلتها، لا تعرف متى شُيدت

وكيف. تأكد لديها أن أختيها تحسدانها، وأن أباها يغار عليها من زوجها، وأن أمها كانت تحلم بشاب مثل «عادل» بدلًا من زوجها. أفكار لم تخطر ببالها قط، لكنها فجأة صارت موجودة. صارت في جزيرة منعزلة لا تعرف كيف وصلت إليها.

بعد عودتهما من قضاء شهر العسل في لبنان، فاجأها بلوحة «ويجا»، وطلب منها أن يلعبا على سبيل التغيير والضحك.

لم تقدر على مناقشته؛ فهي ـ مهما حرصت ـ لا تعلم عواقب أي نقاش بينهما حتى لو كان نقاشًا حول حزمة مقدونس. لم يكن يثور أو يغضب، كان فقط يصمت. جفاء غريب مفاجئ كأنها غير موجودة، لتظل تأكل في أعصابها متسائلةً عن الخطأ الذي ارتكبته أيامًا.

وضعا اللوحة بينهما، أطفآ النور وأشعلا الشموع. وضع كل منهما إصبعًا على «البلانشيت» المتحرك، وبدأ «عادل» يسأل إن كانت هناك روح قد حضرت. لدقائق لم يحدث أي تغيير. أرادت «حنان» أن تنهي الجلسة وتضيء النور، لكنها خشيت أن يكون «عادل» قد خطط لقضاء الليلة بشكل معين فتفسد مخططه عليه.

ثم سمعا ثلاث طرقات على باب الحمام. انتفضت هي وكتمت صرختها، أمسك كفها وأبقاها فوق «البلانشيت». رأت شبح ابتسامة على شفتيه. سأل:

ـ من هنا؟

لم يتحرك «البلانشيت»، لكن باب الحمام فُتح تدريجيًا، ورأت «حنان» ظل رجل يفترش رقعة الضوء أمامه. أشارت إلى «عادل» نحو ما ترى وعيناها متسعتان، فابتسم كأنه يعلم ما يحدث، وأبقى يدها على «البلانشيت».

ـ «حنان».. هذا قريني.. لا تخافي، يمكنكِ أن تعتبريه أنا. حين أغيب عن المنزل، سيكون معك، يحميكِ..

ـ ماذا تعني؟ أنت.. مجـ...

ـ مجنون؟

ـ لا.. لم أقصد صدقني.

كانت تعرف أن الحوار سيؤول إلى جفاء، ما ستتفوّه به تحت وطأة هذا الفزع العظيم سيستغله ضدها، وستكره نفسها لمجرد أنها خافت.

ـ أنتِ ترينه، فربما كنتِ أنتِ المجنونة.

- ماذا سنفعل ؟

ـ لا شيء. فقط أحببتُ أن أعلمك أنه موجود في غيابي. ولا قيمة للوحة «الويجا» عمومًا، فقط كنت أريد أن أهيئ لكِ الأجواء كي تتقبلي هذه الحقيقة.

تراجع الشبح، وأشعل «عادل» النور، وطلبا عشاءً ثم ضاجعها، ونام، لكنها لم تنم لأسابيع بعدها، ولم تقدر على دخول الحمام إلا ونور الشقة كله مُضاء والباب مفتوح. كانت تقضي حاجتها وهي تغطي عورتها بالمنشفة، وتستحم خلف ستار الحمام المُغلق دون أن تقدر على غلق عينيها للحظة.

بعد يومين من رؤيتها قرينه أول مرة سافر للعمل. لم ترَ شيئًا غريبًا مرة أخرى، وتدريجيًا اختفت الأمسية المرعبة من ذاكرتها كأنما لم تكُن، خاصةً بعدما عرفت أنها حامل.

ثم بدأت أمور أغرب في الحدوث، أغلب الهدايا التي كان «عادل» يحضرها لها تختفي، وتجد بدلًا منها شيئًا آخر لا تذكر أنها رأته من قبل؛ فمثلًا كان قد اشترى لها حقيبة من ماركة «جوتشي»، خرجت بها يومًا واحدًا معه، ثم اختفت، لكنها وجدت وسط حاجياتها حقيبة مماثلة في الحجم من نوع عادي رخيص.

خطر لها أن تصوّر بكاميرتها الهدايا فور إعطائه إياها، كي تقارنها بما

تجده بعد ذلك من أغراضٍ غريبة عنها. كانت المفاجأة أن الخاتم الألماس الذي ارتدته ساعات ظهر في الصورة على حقيقته، خاتمًا ذهبيًا عاديًا. شكّت في صحة عقلها، ولم تجد مَن تحكي له تلك الحوادث المفزعة.. حتى جاء احتفال يوم مولد «بريجيت». كانت تصوِّر الطفلة عند السلم، وكان «عادل» شاردًا يدقق في ركن خلفها. فجأة سقطت اللوحة الزيتية دون أن يمسها أحد.

عرضت «حنان» الصور على «حسين» و«توماسينو»، في البداية كانت صورًا لفساتين وحقائب ومشغولات متواضعة المستوى، ثم جاءت صورة «بريجيت».

دقَّق «توماسينو» النظر في الصورة، ثم راح يسعل وقد ابتلع دخان سيجارته فزعًا.

فوق اللوحة المعلَّقة، كانت يدٌ بشرية بازغة من وسط الحاجز الخشبي، في طريقها للمس اللوحة.. يد بشرية ورأس «عادل».

لا تعرف «حنان» ماذا حدث بعد اليوم الذي تسلَّمت فيه صور عيد الميلاد، فلم يرَ «عادل» تلك الصورة قط، لكن من يومها وبدأت ترى قرين «عادل» هذا بوضوح. في البداية كان يعبر الصالة من أمامها ثم يختفي. يقطع الخط أحيانًا لو طال حديثها مع أختيها أو صديقاتها. كلما فعلت شيئًا تشعر أن «عادل» لن يكون راضيًا عنه، كان الشبح يتجسّد أمامها، لا تراه إلا بركن عينها، ولو نظرت إليه مباشرة اختفى.

كانت ليلة أمس تكلم والدها هاتفيًا، وقد كان يعاتبها لأنهم لا يرونها تقريبًا، ولم تعُد تحضر أي مناسبات عائلية، فراحت تحكي له كم هي مشغولة وسعيدة.. تذهب إلى عملها في المدرسة الابتدائية يوميًا في فرح.. تخرج مع «عادل» وترقص حتى تُنهك من فرط الانتشاء.

فجأة شعرت برغبة في البكاء، في الصراخ لأبيها بأنها وحيدة وتعسة ونادمة على كل يوم قضته في اختيار يدمرها.. فتحت فمها ولم تكُن بعدُ قد قررت ماذا ستقول لأبيها، فطار الهاتف وسقط أرضًا. قامت

مرتجفة وأمسكته، وحاولت أن تجد ألف تفسير منطقي لطيرانه من يدها بهذا الشكل، وراحت تسير وتجر سلك الهاتف الطويل خلفها وهي تتحدث في توتر، ثم سمعت صوت خطوات خلفها وشيء يمنع السلك من الحركة على امتداده. التفتت خلفها فرأت «عادل». أغلقت السماعة وجرت، وجرى خلفها بلا أي صوت إلا صوت خطواته.

ثم اختفى..

رن جرس الهاتف، فمدت يدها ترد، محاولة أن تتمالك نفسها.. غالبًا هو أبوها يطمئن.

سمعت ثلاث دقات عنيفات، ثم شعرت بمن يدفعها إلى الحائط. صرخت، جرّت جسدها على الأرض نحو باب الشقة، شعرت بكفين تُطبقان على كاحليها. لم تجرؤ على أن تنظر خلفها، رفست من -أو ما- قد يكون خلفها بقوة، وقامت تجري نازلة على الدرج حافية. وكان «حسين» بالأسفل. على الرغم من الهول الذي كانت تعانيه، لكن جزءًا منفصلًا في عقلها مخصصًا لـ«عادل» ظل يعمل، هل تحكي؟ هل سيغضب «عادل»؟ هل سيتخلى عنها؟

قررت أخيرًا أن تعود إلى شقتها. فكرت في أن تزيل قابس الهاتف كي لا يتصل أبوها، لكنها خشيت أن يتصل «عادل» فيقلق. اتصلت بأبيها وأخبرته أنّ هناك فأرًا دخل الشقة، وسوف تتصل به صباحًا بعد أن تتخلّص منه.

تكوّمت على الكرسي تبكي، وتخشى أن تغلق عينيها فتضطر لأن تفتحهما على وجه قرين «عادل» المحدق فيها.

نصف ساعة مرّ، ثم بدأ هول من نوع آخر.

كان كل شيء في المكان يتغيّر، تتقشّر الرسومات الملونة على الحوائط، يتحول الأثاث العصري الملون إلى آخر ريفي الطابع. بيت جدها في صفط اللبن، والداية قد جاءت لختانها هي وبنات عماتها.

لم تكُن تعرف يومها ما سيحدث، دخلت معها أمها تتصنّع الضحك والابتسام، وأخبرتها أن الحاجة «أم هياتم» سترسم لها وردة على فخذها كما كانت تريد.

وتركتها أمها مع المرأة الطويلة السمراء وحدهما، واكتشفت «حنان» أن «أم هياتم» لم تكُن هنا لرسم الأزهار، بل لقطفها.

لم تكُن المفاجأة والألم هما ما جعلا ذلك اليوم هو الأشد قسوة في حياتها، بل صدمة التخلي. لم تغفر لأمها أبدًا أنها تخلّت عنها وخدعتها.

ظل إحساس دفين بالخوف ينكزها كلما فرحت أو تفاءلت، «أم هياتم» ستعود في عز أملها لتقتله.

ولم تحكِ «حنان» هذه الذكرى لشخص سوى «عادل»، وكان يعلم مدى رعبها من مجرد استرجاع الحدث.

لكن الموقف المشؤوم يعود إلى الحياة من حولها، قبل أن تتأكد من أن باب الحمام الذي يُفتح لن يُسفر سوى عن «أم هياتم».

طرقات ثلاث على الفاصل الخشبي..

هربت «حنان»، ولم تجد ملجأ سوى «حسين».

عندما عاد «توماسينو» وسمع الحكاية، وتطوَّع بالصعود لجلب الصور، لم يجد شيئًا غريبًا في الشقة. وبعدما رأى الصور، قرر هو و«حسين» أن يحكيا لها ما رأياه في شقتهما، وما كان من أمر لعبة «بريجيت» وعلبة الشوكولاتة.

تساءل «توماسينو» بالإنجليزية:

- تقولين إن من يظهر لنا هو قرينه.. ما معنى «قرين»؟

ضمت «حنان» «بريجيت» أكثر إلى صدرها، حتى إن الطفلة تأوهت. قالت بالعربية وهي شاردة كأنما تستعيد أحداثًا ثِقالًا:

ـ جدتي كانت تجمعنا فوق سطح المنزل، وتبدأ في وضع كل فتاة على الأرض، وتطبق عليها بين فخذيها حتى لا تتملص، ثم تفك شعرها وتبدأ في إزالة الحشرات التي قد تكون فيه باستخدام الفلاية، وهي مشط ضيق الأسنان. كانت تحكي لنا أساطير الفلاحين، ومنها حكايات القرين.. القرين هو أخو الإنسان من الجن، يولد معه لكنه لا يموت بموته. يشبهه في كل شيء، لكنه كائن شرير شيطاني.

نقل «حسين» ما قالته «حنان» لصديقه، وقد فهم الأخير أغلب ما قالت، فسأل متربعًا على درجة من درجات السلم وسط الأصص:

ـ يمكنني الفهم يا «حسين».. سأسأل بالإنجليزية ويمكن لـ«حنان» الإجابة بالعربية كما تشاء، ماذا يفعل هذا القرين؟ ما دوره؟

ـ لا أعرف.. هي مجرد أسطورة. لكن يُقال إن الساحر يستطيع التواصل مع قرينه ويسخر قواه في صالحه.

سأل «حسين» ممسكًا رأسه من الصداع المزمن:

ـ هل تعنين أن «عادل» ساحر؟

ـ لا أعرف.. ممكن.. هذا يفسر وجود قرينه هذا، ويفسر خداعه أعيننا بهداياه المزيفة. في القرآن ذُكر أن سحرة فرعون كانوا يسحرون أعين الناس، أليس كذلك؟

قامت «بريجيت» متضايقة من أثر ضغط «حنان» على كتفيها، وجلست عند قدمَي «توماسينو» الذي قال مبتهجًا بلا سبب، وكأنه وجد فرصة للحديث عن أمر مثير:

ـ أتذكُر فيلم «روجر مور» يا «حسين»، الذي عُرض منذ ثلاثة أعوام تقريبًا؟ أظن كان اسمه «الرجل الذي صاد نفسه».

ـ لم أشاهده، كنت مشغولًا مع «بريجيت».. و... «بريجيت».

ـ أجل أجل.. يبدأ الفيلم بمشهد البطل يقود سيارته، ثم يتغيَّر فجأة

وتتغيَّر طريقة قيادته للسيارة، حتى يقع حادث مروع ويُنقل إلى المستشفى. هناك يجد الأطباء شيئًا مثيرًا بلا تفسير، أن للرجل نبضين لا نبضًا واحدًا! المهم أن البطل ينجو من موت محقق، وحين يعود إلى عمله يكتشف تدريجيًا أن الجميع يخبرونه أنه قد فعل وقال أشياء لا تبدر منه أبدًا. ويكتشف أن هناك شخصًا شبيهًا له تمامًا، يمكن القول إنه هو نفسه، يعيش حياة موازية لحياته وينجح في تدميرها تقريبًا. هذا الشخص هو البطل نفسه.. «دوبلجانجر».. أو «قرين» كما تسمينه.

شرد «حسين» في شيء قرأه في كتب الفلسفات الآسيوية، حاول تذكر ماذا قرأ أو أين قرأه لكنه لم يستطِع.. الصداع وقلة التركيز والأحداث التي تسقط عن عقله عشوائيًا تشتت تفكيره.

سألت «حنان»:

ـ وماذا فعل البطل؟

ـ قرر أن يقود سيارته في مواجهة مع ذلك الآخر، تقترب السيارتان وجهًا لوجه، ويسقط البطل بسيارته في النهر بينما يتوقف الآخر. ينظر إلى الماء ليتأكد من غرق البطل.. فجأة يُصاب بأزمة قلبية ونظنه سيموت هو الآخر.. لكن بعد دقائق تمر الأزمة، ويبتسم في انتصار!

شهقت «حنان» ثم ضحكت في خجل. أمر مروع جاء في خاطرها فجأة.. لو مات «عادل»، هل سيموت هذا الشيء معه؟ موت «عادل» كارثة لا تستطيع حتى التفكير فيها، لكن بقاء هذا الشيء بعد موته هو الأمر غير المحتمل على الإطلاق.

***

٦ سبتمبر ١٩٧٧م

الدقي ـ الجيزة

قارب النهار على الانتهاء، وما زالت «بريجيت» تركل الكرة متعمِّدة أن

تصدم «توماسينو»، الذي غرق في العرق، فخلع القميص وعلقه على دراجته البخارية أمام العمارة.

كانت «بريجيت» قد شاهدت مع «توماسينو» فيلم «أونكل زيزو حبيبي» في السينما، وأحبت جدًا فكرة لعبة كرة القدم، بل صارت كل تسليتها تقريبًا.

وكان «توماسينو» يأتي لزيارتهما كل أسبوع ليأخذ «بريجيت» للسينما أو الملاهي.

لم يستطِع الصقلي الحياة مع «حسين» لعدة أسباب، لم يكن من بينها ما فعله «عادل» للإيقاع بينه وبين صديقه، والانفراد به.

كانت أسبابه تتلخّص في حث «حسين» على الانتباه إلى تدهور صحته العقلية بسبب المخدّرات، وإلى ضرورة أن يتحمل مسؤولية تربية «بريجيت» وصنع ذكريات سعيدة بينهما هما فقط. كان يؤمن أن «بريجيت» هي الوحيدة القادرة على إنقاذ «حسين»، فهل سيغامر بها لو تركها؟

هنا جاء السبب الثاني، وهو أنه لم يتقبّل العيش مع أبيه في مارتساميمي، فما الذي يجعله يعيش مع «حسين»، بقوانينه ومشكلاته وتحكّماته النابعة من تحريك «عادل» له كدمية؟ «عادل» كان يختزن زلّات «حسين» وأخطاءه ليتلاعب به كدُمية في يده، يغذّي بها ميوله الملتوية للتحكّم في الآخرين والاستمتاع بإثارة رعبهم.

متى تكون له حياة خاصة حُرة؟ متى يتخلص من ارتكان «حسين» إليه مُكبّلًا، فلا يستطيع التنفس دون أن يهتز صديقه أو يهوي أرضًا؟

كان فطامًا صعبًا مريرًا، ترجاه «حسين» راكعًا على ركبتيه غارقًا في الدموع والمخاط أن يظل معه، مع «بريجيت»..

لم يُقِم «حسين» أعياد ميلاد لابنته منذ أربعة أعوام، لم يخرج من منزله إلا للسفر إلى الإسكندرية كي يبتزّ أمه، لم يقدم لابنته في

مدرسة، بل تولى «توماسينو» تلك المهمة واضطر إلى سحب «حسين» حرفيًا معه كي يكون ولي أمرها الرسمي.

فرّ «حسين» من أمه - أنثى الطاووس المغوية - وراح ينتقم منها بكل شكل ممكن، بينما وقع في فخ طاووس أخطر، أذكى.. عادل دميري.

اضطر «حسين» للاعتراف بأبوّة «بريجيت» للأخير بعد رحيل «توماسينو». ظل «عادل» يسأله عن صديقه، وظل «حسين» يراوغه. حتى اختفى «عادل» فجأة، وراح يتجاهل «حسين» ويتحاشى أي حديث معه، ويرفض حتى التواصل معه هاتفيًا.

شعر «حسين» بانسحاب روحه، ولم يكن مُدركًا أهمية «عادل» في حياته إلا بعد غيابه. كان يقضي ليله ونهاره في مراجعة كل كلمة قالها له، وكل هفوة أو زلة لسان. كان يستجوب «بريجيت» لعلها أغضبت أحد أبنائه.

في النهاية لم يجد إلا لوم نفسه، هو المختل الكريه الذي نبذته أمه وتركته حبيبته وتخلى عنه صديقه.

حتى جاء يوم رأى «حسين» فيه «عادل» في مدخل البناية، فذهب إليه مُطرقًا إلى الأرض، على استعداد للإقرار بذنوبه جميعًا. هذه هي آخر فرصة ليحتفظ بشخص في حياته. وأمامه ركعت روحه، وراح يعترف بكل ما أخفاه عنه.

أخيرًا قال «عادل» وهو يتحاشى النظر إلى عيني «حسين» المُنهكتين:

- «حسين»، أنا لم أرَ منك سوءًا طيلة الأعوام الماضية، وأثق بصدق بصيرتك، وأنك تعرف أن حياة رجل غريب معك ومع ابنتك أمرٌ غير محمود.

كنت أعرف أن «بريجيت» ابنتك. هذا أمر واضح، لكنني لم أشأ أن أجرح مشاعرك. أعرف أنك عاجز عن الرسم وأن مَن رسم لوحات شقتي

هو «توماسينو». تضايقت أنكِ لم تُصارحني ولم تعتبرني أخًا لك بعد ما فعلت من أجلك.

كانت تلك هي المرة المائة أو الألف التي يُلمح فيها «عادل» إلى مساعداته المادية والمعنوية لـ«حسين»، ولم يكُن «حسين» يتضايق من كل هذا؛ فهو على الرغم من كل شيء عالة عليه كما كان عالة على «توماسينو» وأهله. غفر له «عادل» كذبه فورًا، لكنه راح يبتزه بتلك الكذبة بكل الطرق الملتوية الممكنة، ولم يدخر جُهدًا كي يشعره بالخزي والعجز وأنه يحتاج إليه بعد تخلي مَن اعتبره صديقه عنه بهذا الشكل.

نقل «حسين» احتياجه إلى «توماسينو» لـ«عادل»، ولم يكُن «عادل» حائطًا يُرتكن إليه، كان أرجوحة مُعلقة فوق هاوية. نسي أمر شبح «عادل» تدريجيًا؛ فهو لم يعُد يراه، ولام نفسه على تصديق وجود شيء كهذا. هو واهم، هو ضعيف، هو مُختل.

* * *

بعد ضربتين أخريين من كرة «بريجيت»، حملها «توماسينو» وأجلسها على الدراجة البخارية ريثما يجفف عرقه ويرتدي قميصه.

نظرت «بريجيت» إلى العمارة، لترى «ناريمان» و«رامز»، ولدَي «عادل»، يقفان مختبئين خلف سور شرفتهم الحديدي. لم يظهر من «رامز» سوى أطراف شعره، بينما كانت عينا «ناريمان» البنيتان وشعرها الفاتح الأشعث يشيان بها.

أشارت «بريجيت» إليها:

- «ناريمان».. تعالي العبي، سو «توماسينو» تعِب.

لم تَرُد «ناريمان»، فقط سحبت أخاها ودخلا الغرفة. التفت «توماسينو» ليراها ما زالت واقفة خلف الستار تنظر.

عاد «توماسينو» و«بريجيت» إلى داخل الشقة، كان «حسين» قد

أحال الغرفة التي كان يقيم فيها «توماسينو» مرسمًا، وكان يمارس فيه نوعًا من فنون الكولاج، أو دمج العناصر المجسمة مع الألوان في تشكيل فني.

أطلق «توماسينو» الفتاة فراحت تركض نحو الحمَّام لتغتسل. كانت مُعتمدة على نفسها بالكامل، بل كانت قادرة أن تحضِّر طعامًا بسيطًا بلا مشكلات.

وقف «توماسينو» عند باب المرسم، وسعل سعلتين جرَّاء الدخان المتراكم. أخفض صوت الكاسيت قليلًا كي يسمعه «حسين».

- «حسين»، أنا راحل.. هل تريد شيئًا؟

- اجلس لنحتسي شايًا.

لم يكُن وزن «حسين» يتجاوز الخمسين كيلوجرامًا، وهو أقل من وزنه الطبيعي بعشرين كيلوجرامًا على الأقل. كان يذوي ويضعف. الأمفيتامينات.. الخمر.. السجائر.. الأوهام.. تأنيب الضمير.. «عادل».

أراد «توماسينو» أن يحمل جسده الواهن ويغسل عنه الضعف والمرض والخوف. منذ تعرَّفه في أروقة الأكاديمية وكان هو مجرد عامل نظافة، بينما كان «حسين» طالبًا، وشيء ما أمال نفسه إلى المصري.

لم يكُن «حسين» سعيدًا قط، كان يطوف مع «توماسينو» الأزقة والحواري، ويبيت معه تحت السماء مباشرة. كان جائعًا للحياة، وقد سمَّمته.

حضَّر «توماسينو» كوبي شاي وعاد ليجلس على الأرض وسط اللوحات التي يراها لأول مرة.

ثمَّة لوحة أمامه يضم تصميمها منديلًا قماشيًا مُطرزًا بحرفي الألف والذال. من حوله قصاصات ورق من عملة من فئة عشرين جنيهًا.

يغوص كل هذا في بحر من لون أصفر مُمرِض كأنّه القيح. في لوحة أخرى، أقراص أمفيتامين ملونة منحوتة عليها أزهار وطيور، وقطعة من لوحة زيتية يعرفها جيدًا تبزغ من ركن فيها. دار «توماسينو» بعينيه في مجموعة اللوحات خلف «حسين» ليجمع أجزاء بازل..
«حسين» مزق لوحة «بريجيت» وطعّم بيها لوحات عدة، كل لوحة من أطياف ألوان واحدة، تبعث مشاعرَ مختلفة ما بين النشوة والحيرة والعجز والكراهية.

دخلت «بريجيت» وأخذت رشفة من كوب «توماسينو» وهي تضحك مشاكسة. لاحظت أنه ينظر إلى اللوحات. نظرت إلى «حسين» فوجدته شاردًا عبر النافذة.

مالت على «توماسينو» وهمست:

- لقد قصقص صورة ماما وصنع بها لوحات كثيرة.

- يبدو أن ذلك بدا أجمل من وجهة نظره.

- كنت أحب الصورة الكبيرة أكثر، لكنها الآن مخيفة.

- لا يا «جيجي».. ليست مخيفة مطلقًا. لا يسفر عن الفن شيء مخيف. فكّري في أن لوحة ماما الجميلة قد تحوّلت إلى ست لوحات جميلة أو سبع.

ردّت في غير اقتناع:

- ممكن.

اقتربت «بريجيت» من أبيها ولطمته بخفة وهي تعطيه الشاي:

- بابًا.. بابًا.. اشرب..

كانت تنطق كلمة «بابا» بلكنة إيطالية لطيفة. نظر إليها «حسين» وكأنه يجاهد كي يراها. أخذ كوب الشاي وطلب منها أن تخرج لتشاهد

التلفاز.

بعد أن خرجت قام وأغلق الباب، ثم جلس مجددًا أمام صديقه قائلًا بصوت واهن متحشرج:

- «توماسينو».. أنا آسف لكل شخص آذيته، لكنني اليوم انتهيت.. اليوم أخرجت «بريجيت» من روحي ممزقة إلى أشلاء وحبستها وسط الألوان وبين أنسجة القماش.. الآن أنا حُر.

- جميل.. المهم لديّ أن تتعافى نفسيًا وجسديًا يا «حسين». لا أعرف إن كان ما فعلته سينجح في شفائك منها، لكنها خطوة غريبة لم أتوقعها أبدًا. عمومًا، أنت تعرف أني أرى «بريجيت» وأوهامها أقل خطرًا عليك من «عادل». متى صرتَ واهنًا إلى هذه الدرجة؟ متى استسلمت؟

- أنا استسلمت لأنني لا يمكنني أن أغير ما أنا عليه. سألتك من قبل يا «توما»: لِمَ لَمْ يحبني أحد؟ كانت الإجابة واضحة: أنا لا أستأهل الحب، أنا ضعيف، مؤذٍ.. لهذا ابتعدت أنت عني يا «توماسينو» ولا ألومك.. لا ألومُ أحدًا.

- مَن وضع هذا الكلام الفارغ في عقلك؟! في كل مرة أجلس معك أجد روحك تتآكل شيئًا فشيئًا.

مسح «حسين» وجهه بكفه، وهو يفكر كيف سيحكي لـ«عادل» جلسته هذه مع «توماسينو». هل سيكذب عليه ويقول له إنه طلب منه ألا يأتي مرة أخرى، وإن علاقته به وبـ«بريجيت» بلا معنى؟ لا يمكنه أن يكذب على «عادل» أبدًا أو يخفي عنه شيئًا..

«عادل» بئر أسراره..

«عادل» يحبه..

«عادل» يمنع عنه الاختلاط بـ«ناريمان» و«رامز» لمصلحته

ولمصلحتهما..

«عادل» أب عظيم، وهو أب بائس رعديد..

وجهة نظر «عادل» في مسألة علاقتهم الثلاثية صحيحة، «عادل» لا مصلحة له في التفريق بينهم. «عادل» يرى أن «توماسينو» ابتعد عن «حسين» وأبقى على «بريجيت» كمسمار جحا، يأتي ليراها من وقتٍ لآخر كي يرى كيف يعيش «حسين» دونه. «توماسينو» يتلذذ بعذاب «حسين»، وعليه أن يقطع العلاقة الضارة هذه من جذورها..

ظل «حسين» يُردد في عقله: «عادل» يريد مصلحتي، «عادل» يحبني على الرغم من كل عيوبي، «عادل» يبتعد عني كي أراجع نفسي ويعود إليّ حين أعتذر عن أخطائي.. «عادل» صديقي الصادق..

ثم تمزّق ترابُط أفكار «حسين»، وشعر بشيء سخيف في المنطق الذي يصدق به «عادل».. لو أن «توماسينو» شيطان، فـ«عادل» لا يختلف عنه في شيء. ثم تذكر شيئًا فجأة فقال سريعًا قبل أن ينساه:

- «توماسينو».. أتذكر فيلم «الرجل الذي صاد نفسه»؟ ذكّرني بشيء قرأته في أحد الكتب هناك.. على الرف.. في التبت يعتقدون أن المرء يستطيع تجسيد جزء من خياله ليصير واقعًا.. المصطلح نفسه تاه عن ذاكرتي تمامًا.. المهم.. ماذا كنت أريد أن أقول؟ آه.. إن كان بعض الأشخاص قادرين على تجسيد خيالهم في شكل أجسام ملموسة، فهل يمكن الخلاص من تلك التجسدات، أم أنها تقتل صاحبها ولا تموت؟

- وماذا يهمنا في إجابة سؤال كهذا؟

- ركّز معي.. ركّز.. أنا أرى «بريجيت» منذ رحلت يا «توماسينو».. أنت تعرف.. أم لا تعرف؟

- أعرف.

- حسنًا.. أراها وكنت أظنها روحًا تهيم حولنا وترعى ابنتنا. لكن ما

أدراني أن «بريجيت» ماتت؟

ـ غالبًا لم تمت، هي رحلت بإرادتها كما أخبرتك سلفًا، لكن عقلك أبى أن تكون قد قست عليك لهذه الدرجة ولم تأبه لمشاعرك، فقررتَ أن تقنع نفسك أن الموت هو ما فرقكما.

ـ بالضبط.. شبح «بريجيت» من خيالي.. واللوحة التي رسمتها لها كانت تحمل جزءًا من روحها وجزءًا من روحي.. بالضبط كـ«بريجيت» الصغيرة.. المهم.. المهم.. هل تعرف جِنّي المصباح، علاء الدين؟

ـ أعرفه يا «حسين»، ماذا بك؟ هل تريد أن تنام قليلًا؟ هل تحتاج إلى طبيب؟

انفتح باب الحجرة بمقدارٍ لا يُذكر، ومن خلفه لمح «توماسينو» ظل «بريجيت» تسمع..

ـ أنا بخير يا «توما»، لم أكن بخير أبدًا مثلما أنا اليوم.. لقد حبست شبح «بريجيت» في قمقم.. حبستها في لوحتها، ثم مزقتها حتى تضعف الشيطانة ولا تستطيع أن تعود مرة أخرى لتتلبسني!

ـ أنا لا أفهم شيئًا. هَلُمَّ معي لنخرج إلى الهواء النقي.

ـ لكنني يا «توماسينو» لن أستطيع الخلاص من تلك اللوحات، أو بيعها.. تخيل معي.. تخيل لو أن تلك اللوحة التي تحمل جزءًا من شعر «بريجيت» ذهبت إلى منزل أحدهم، ثم قام شعرها متجسدًا من اللوحة وأثار الذعر في الناس! متخيل؟!

مدَّ «توماسينو» كفه إلى جبين «حسين»، فوجده يشتعل بالحمى. انقلبت عيناه إلى أعلى ثم سقط أرضًا بلا حراك.

* * *

حمل «توماسينو» «حسين» حرفيًا ووضعه في سيارة «عادل»، وذهبا به إلى أقرب مستشفى، وهناك أدركا أن المخدّرات قد سحقته تمامًا،

ولا سبيل لعلاج إدمان الأمفيتامينات في مصر.

أمام المستشفى، كان «توماسينو» واقفًا يدخّن، ورأى «عادل» يخرج من البوابة، رآه فاقترب منه ببطء، ما زال يرتدي نظارته الشمسية ليلًا. قال بالإنجليزية:

- «توماسينو».. «حسين» كان يحتاج إلى صديق حقيقي، وأنا حاولت وما زلتُ أحاول أن أظل إلى جواره. سأنقله إلى مستشفى خاص، ولا تقلق بشأن المصاريف..

سحق «توماسينو» سيجارته تحت قدمه وقال في نفاد صبر بالعربية:

- اسمع يا كابتن «عادل»، «حسين» يحتاج إلى صديق حقيقي، أنا جواره وسأظل جواره إلى أن تنتهي حياتي.

- لا أظنك تفعل هذا.. الرجل صار وحيدًا بعد أن تخليت عن مساعدته في...

- على الرجل أن يصير مُستقلًا، لا وحيدًا. لم أبتعد عن «حسين» إلا كي يلتفت إلى مسؤولياته. «حسين» لا يحتاج إلى شخص يحمل عنه ما يبقيه على قيد الحياة. المسؤولية هي ما تُبقي المرء حيًا يا كابتن «عادل». أنت تلومه طيلة الوقت على كونه لا يتحمَّل مسؤولية ابنته، بينما ينخر فيه كلامُك كالسوس. أنا أساعده كي يلتفت إلى حياته الحقيقية، بينما أنت تدفن رأسه في الأوهام.

- وأنت؟ ساعدته على الالتفات إلى حياته حين كذبت وقلت إن «بريجيت» ابنتك؟ حين رسمت له لوحات شقتي؟ حين تركته فريسة للإدمان؟

- أنا...

كوَّر «توماسينو» قبضتيه واقترب حتى كاد يلتصق جبينه بجبين «عادل» وقال:

- لا تمارس ألاعيبك هذه معي.. لن تُشعرني بالذنب على شيء لم أقترفه. أنا بشر، أخطئ وأتعلم، وحين أدركت أن طريقة تعاملي مع «حسين» ستدمره، غيّرتها. لن أتركه لك.. ماذا تريد منه؟ ما خطتك؟!

- أنت مَن ترسم الخطط، وترى الجميع مثلك. أنت من وجدت عملًا في مصر على حساب «حسين»، أنت من تمتلك شقة ودراجة بخارية، بينما «حسين» يذوي. مَن مِنَّا المُستفيد؟

وقبل أن يرد «توماسينو»، توجَّه «عادل» إلى سيارته وركبها وابتعد. لوهلة ظلَّ «توماسينو» واقفًا يتابع الزحام أمام المستشفى. يستعيد كل لحظة عرف فيها «حسين»، ويحاسب نفسه حسابًا عسيرًا.

اطمأنَّ على «حسين» ثم عرج على السنترال وطلب رقم الأكاديمية في صقلية وسأل عن «جيادا».

كانت دقائق المُكالمة محدودة، والصوت يتذبذب ويبتعد، لكنه قال سريعًا بمجرد أن سمع صوت أخته:

- «جيادا».. هل ظلمتُ «حسين» بمجيئي معه إلى القاهرة؟ هل ظلمته بترك مساحة شخصية له كي يتخذ قراراته دون توجيه مني؟ «جيادا»، من أنا كي أقود حياة شخص وأتحكم في اختياراته أو أمنعه بالقوة من شيء، أو أفرض عليه حياة معينة؟

- «توما».. ماذا حدث؟ تشاجرتما؟

- كلا.. لكن بحق مريم العذراء، قولي لي ماذا أفعل.

بكى.. تحدث بكلام مُختلط، وفي النهاية قالت «جيادا»:

- تذكُر المثل الذي كان أبي يردده دومًا؟ حين يتغيَّر اتجاه الرياح وتقرر أن تُجاريها، فلا ضامن لك أن توصلك إلى حيث تشاء. الحياة قاسية يا أخي الصغير، ولا يمكن لأحد أن يلومك لو ضللت. سنظل معًا وسنصل.. لا تقلق..

كان «توماسينو» قد قرر مسبقًا أن علاج «حسين» لا بُدَّ من أن يكون شاملًا، عليه أن يتخلَّص من أي سموم على هيئة أقراص أو أشخاص.

لم يجد «توماسينو» بُدًّا من الاتصال بدكتور «رجب» في إيطاليا. كان يدعو الله أن يكون على قيد الحياة ولم يغيِّر محل إقامته. عاد إلى البيت وطمأن «بريجيت» التي تركها مع جارٍ لـ«حسين» في الطابق الثالث، ثم بحث عن رقم هاتف والدة «حسين» في دفتر هاتف صديقه.

لم تبدُ «آمال» مهتمة بمعرفة ما حدث مع ابنها، ولا لماذا يريد صديقه الإيطالي رقم هاتف الدكتور «رجب». انصبَّ اهتمامها على أن تنهي المكالمة سريعًا كي لا يعرف «عامر» عن حديثهما شيئًا.

أمضى «توماسينو» وقته مع «حسين» في المستشفى؛ حيث لم يجد مفرًّا من اصطحاب «بريجيت» معهما. جاء «عادل» مرتين، وفي كل مرة كان يرى «توماسينو» جالسًا يراقب صديقه كالصقر، فكان يفتعل مشكلة بخصوص أي تقصير من جهة المستشفى، ويعلن عن حله المشكلة بصلاته واتصالاته. يحاول أن يُحادث «بريجيت» وأن يأتي لها بالحلوى، لكن الطفلة كانت ترفض، لم تكُن ترفع عينيها عن وجه أبيها، ولم تكُن تبارح جوار «توماسينو».

يراقبه «توماسينو» ويضحك، ماذا يريد أن يُثبت؟ ولمَن؟

خلال أيام، استطاع الدكتور «رجب» نقل «حسين» إلى مصحة علاجية في إيطاليا. وكان على «توماسينو» أن يترك «بريجيت» عند عائلته مجددًا، وأن يضحِّي بعامها الدراسي الأول. مسؤولية مريعة صُبَّت على كتفيه كالحديد المصهور، وتجمدت، فجمَّدته وأثقلته ونحتت ملامح مختلفة عن وجهه. عليه أن يستغل أي تغير في اتجاه الريح في مصلحة صديقه، عليه أن يجد له مكانًا في أي ميناء قد ترسو عليه سفينة الحياة.

مرت الأسابيع الأولى على «حسين» في يأس وفقدان أمل. كان كالرضيع الذي يُفطَم، وصار عبء فطامه على صديقه، الذي ما انفكَّ

يُذكِّره بـ«بريجيت» الصغيرة التي لا أحد لها في العالم سواه. شعر «حسين» بالخزي والعجز عن مواجهة العالم، فكيف بمواجهة ابنته؟

وراحت كلمات «عادل» تأكل في عقله. «عادل» على حق..

وضحت في عينيه كل اللحظات التي خذلها فيها، كل يوم لم يقبِّلها فيه، كل مرة جاءت تريه إنجازًا صغير فأشاح بوجهه، كل حرق في كفها الصغيرة أصيبت به وهي تحاول أن تُحضِّر طعامهما بنفسها، كل دمعة سالت على خدِّها وأخفتها كي لا ينهرها ويسد أذنيه عن شكواها، كل لحظة تمزَّقت فيها بينه وبين «توماسينو»، وكل انفطار قلب إذ تدرك أنه لا يرى فيها سوى أمها.

أي خزي وأي عار..

واجه الدكتور «رجب» و«توماسينو» نوبات غضبه العارم تجاههما، كمشتاق للنوم يعكف الناس على إيقاظه كلما غفا. غضب يغطي به خوفه وحزنه وأساه.

لكن «حسين» اكتشف مع الوقت أن العالم لا يقسو عليه متعمدًا؛ فبعد بضع جلسات من العلاج الجماعي، وجد أن عالمه قاسٍ، لكنه لم يبلغ القاع بعد. بل إن قسوة الحياة هاوية بلا قاع. حقيقة صادمة، لكنها دعمت رؤيته لنفسه ولقدرته على الوصول إلى السطح، حيث يلتقط أنفاسه ويرى النور من جديد.

شهور مرت، لم يغادره فيها «توماسينو». كان يحضر له الأوراق والألوان ويرسم معه. يغني له بصوته الأجش ويرقص ويحكي النُّكات. كان يجاهد كي يسلخ عن صديقه الأسى والمرض.

وكانت «بريجيت» تحضر بعضًا من تلك الجلسات، ترسم وتسمع ما يجذبه «توماسينو» من ذكريات من عقل «حسين» عن «عادل» وأمه وكل مَن خذله. كان «حسين» يحكي، ويبكي، وينهار، ويثور، ويسكب كل هذا في خليط الألوان على اللوحات.

ظل «توماسينو» يمزق «عادل» من روح «حسين» ويستخرج أشلاءه، كان يعرف أنه لو غفل عن شظية من هذا الكائن السام في عقل صديقه، ستنمو مرة أخرى كورمٍ سرطاني.

يسترجع «حسين» تفاصيلَ حجبها عنه حُسنُ نيته وهشاشة تركيبه النفسي ويقول:

- كان يهجرني بالأسابيع ولا يخبرني بالسبب، يتركني أراجع كل كلمة قلتها، ألوم نفسي.. كان يُشعرني بالتقصير في حق «بريجيت»، بينما يمنعني لومه هذا إلا من رؤيته هو، ومحاولة إرضائه هو. كان يعطيني المال كي لا أضطر إلى طلبه من أمي، ثم يدخل المطبخ ليقلّب في المشتريات ويسألني عن سعر كل شيء، وعن سبب شرائي له. كان يسأل وأجيب، ولم يكُن يجيبني عن أي شيء يخصُّ حياته.. مَن هو «عادل» يا «توماسينو»؟! الآن فقط أسأل نفسي!

- «عادل» شبح، أمثاله يستمدون قوتهم من غموضهم.

- لا أفهم كيف حكيت له عن أدق أسراري. لا أعرف لِمَ كنت أشعر أنني أخونه حين أخفي عنه شيئًا، أو أكذب عليه بشأن حديثي معك وإبقائي على علاقتنا..

- لا يهم ما مضى يا «حسين».. لا يهم..

يهتف «حسين» وهو يرتجف انفعالًا:

- كيف خدعني؟ ولماذا؟ ماذا كان يريد مني؟! كيف سمحتُ له بسرقة حياتي؟

- لا أعرف.. لكنه يستمد قوته من عزل كل مَن يعرف، كلٌ في جزيرة خاصة، ثم يستغل ما بيننا من جدران بناها كي يكره بعضنا بعضًا. كان يمتصُّك كعنكبوت يتغذّى على فريسة. هل تسأل العنكبوت عن نياته؟

ثلاثة أشهر أتمها «حسين» في المصحة، ثم نقله الدكتور «رجب» إلى

شقة صغيرة بالقرب منها، يمارس فيها حياته الطبيعية تدريجيًا ويزور الناس ويزورونه، ويكون قريبًا من المستشفى لمتابعة جلسات العلاج النفسي. كان يعلم أنه بمجرد ترك «حسين» ليبحر في مُعترك الحياة، سيعود إلى الإدمان فورًا؛ فـ«حسين» عولج من الإدمان ولم تُعالَج جروحه النفسية الماضية وما زالت تنزف تحت جلده.

حكى «توماسينو» للدكتور «رجب» عن «عادل»، وكيف يستغل نقاط ضعف الآخرين لإحكام السيطرة عليهم والتلاعب بهم، وربطهم بمدارات هو شمسُها. وكان يخشى أن يعود «حسين» إلى مصر ليسقط كالذبابة في فخ العنكبوت.

لكن، ما البديل؟ السبيل الوحيد لاكتساب القوة هو المواجهة.

* * *

وجد «توماسينو» نفسه في العمل مع فريق علاج الإدمان بالمصحة.. العلاج بالفن والألوان، لطالما كان «توماسينو» نحّاتًا، يبرع في التغيير أكثر من براعته في الإخفاء تحت الألوان، وعلاقته بـ«حسين» عرّفته تلك الحقيقة التي خفيت عنه طيلة حياته.

وأخيرًا صرّح لـ«حسين» وهما يجلسان على البحر في مارتساميمي:

ـ «حسين».. صديقي.. الأوضاع في مصر لم تعُد كما كانت، ثمّةَ ما يتسلل في عقول الناس ويجعلهم يجفلون من الفنون عمومًا والرسم خاصةً. لا أريد القول إنني أستشعر موجة تطرف ديني قادمة، لكنني لم أعُد أشعر براحة هناك، ولم أعُد أجد رزقًا بسهولة.

أحكم «حسين» البالطو حوله، وغطّى أنفه بالكوفية وقال في وهن:

ـ أنت مُحق.. لم أجادلك في شيء كهذا.

ـ ثم إنني بدأت أفكر في جدوى ما أفعل.. مَن سيذكرني لو مِتُّ؟ وكيف سيذكرونني؟ أشعر برغبة عارمة يا «حسين» في نثر الذكريات

في عقول الآخرين.. أن يجلس أحدهم في نهاية عمره ويقول: لقد عرفت رجلًا صقليًا يومًا ولن أنساه. رأيت هذا يا «حسين» في عينيك يوم خرجت من المصحة.. نظرة لم أرَها قط على الرغم من يقيني بمحبتك لي. عرفت أنك لن تنساني.

- كيف ينسى المرء من وَلد مجددًا على يديه يا «توما»؟

ابتسم «توماسينو» وقال في حماس:

- أريد أن أعمل في المصحة يا «حسين».. سأساعد الناس بما أبرع فيه، سأساعدهم بالرسم. أدمنت تلك النظرة التي رمقتني بها، هذه هي غاية حياتي والمرسى الذي أبحر كي أصل إليه.

لمعت عَبرة في عين «حسين». قال مبتسمًا في مرارة:

- لن تعود إلى مصر إذًا!

- لن أعود إلا زائرًا.. أهلي هنا، وأبي.. أبي الذي ابتعدت عنه بحثًا عن ذاتي، فلِمَ لا أعود إليه حين أجدها؟

- هو ينتظرك يا «توما».. لا ينفك يأمل في عودتك..

- ستعود إلى مصر وستكون بخير يا «حسين». لن أتركك وأنت تعرف أني لن أفعل. ستربي ابنتك في بلدها، وقد وعدني الدكتور «رجب» أنه سيجد لك عملًا في مصر. ستكون بخير.

***

١٠ أغسطس ١٩٨٣م

الدقي - الجيزة

هكذا، عاد «حسين» إلى مصر في أواخر عام ١٩٧٨م ليعمل مدربًا خاصًا للغتين الفرنسية والإيطالية، وتعرَّف إلى عدد من الأجانب عن طريق الدكتور «رجب»؛ فتحت معرفتُه إياهم مجالًا للتدريب كذلك على

اللغة العربية لغير العرب العاملين في مصر.

كان أغلبهم مِمَّن يعملون في السفارات، وكان على الدكتور «رجب» تحمُّل أخطار أن يعمل مدمن سابق في عمل يدخل فيه بيوت الناس ويستأمنونه على ممتلكاتهم.

لكن «حسين» عاهد نفسه ألا يتسبب في أي أذى للشخصين اللذين لم يبخلا عليه بأي مساعدات، ووثقا به في الوقت الذي لم يستأهل فيه ثقة أحد: دكتور «رجب» و«توماسينو».

كلاهما لم يكُن معه في مصر، لكن خطاباتهم لم تنقطع، وكان يتصل بهما هاتفيًا أسبوعيًا، ويتصل كذلك بماما «جيوسيبينا» وسو «ماسيمو» في الأعياد والمناسبات، ويرسل لهم بطاقات معايدة تحمل رسومات «بريجيت» الصغيرة.

صارت له ولابنته عائلة يحبانها وتحبهما، وأرغم «حسين» كل أشباح ماضيه على الانزواء في ركن مظلم من روحه.

بعد عودته بأسابيع، زاره «عادل» ولم يصحب معه «حنان» والولدين، ولم يبذل جهدًا في إخفاء جفائه تجاه «حسين»؛ فقد صار موصومًا ولا يليق بأن يكون في دائرة معارفه المُقربة، لكنه كذلك لن يتركه ينفلت بعيدًا ويجمع شتات نفسه.

كان «حسين» بالنسبة لـ«عادل» كالمقتنيات القديمة، لا يريد تركها فيمتلك شخصٌ آخر ما كان يملكه هو، ولا يقدر على استخدامها وقد فقدت جاذبيتها بالنسبة له. يكتنز «عادل» الأشخاص اكتنازًا قهريًا، ويشعر بانعدام الأمان في عدم وجود بقايا الأرواح وشظايا الأنفس من حوله؛ لذا لم يجرؤ على إبعاد «حسين» ولا إبقائه قريبًا.

في اليوم الذي زاره فيه، أخبر «حسين» أنه سيسافر إلى دولة خليجية هو وأسرته، وسيعمل هناك في شركة سياحة، عملًا إداريًا، وقد سئم السفر والترحال، وسيصحب معه عائلته، حيث ستعمل «حنان»

في التدريس كذلك.

لم يكن «حسين» يريد التمادي في الحديث معه كذلك، فلم يستفسر أكثر. أغاظ هذا «عادل»؛ فلم يعُد «حسين» يريد الحديث أو الاستماع. صار جافًا كصخرة.

خلال الشهرين اللذين سبقا سفر «عادل»، لم يرَ «حسين» أيًّا من أصدقائه الأثرياء يزورونه كالمعتاد، بل لاحظ تجهُّمًا زائدًا على وجه «حنان»، وصار يسمع شجارات بينها وبين «عادل»، يعلو فيها صوته أمام بكائها وبكاء الصغيرين. لا بُدَّ من أن شيئًا قد جَدَّ ولم يخبره به «عادل»، واكتفى فقط بتقريعه هو على كل شيء تحت راية النُّصح.

تُرى لِمَ ترك «عادل» عمله طيّارًا ليغترب ويعمل في شركة سياحة؟ الظاهر أنه سئم الترحال، لكن الباطن يطفح على السطح ويشي بما هو أكثر.

***

في يوليو ١٩٨٣م، عاد «عادل» في أول إجازة له بعد غياب خمسة أعوام.

كانت «بريجيت» تقرأ جالسة على إفريز النافذة الكبيرة، ورأت تحت شمس الظهيرة سيارة أجرة تحمل أسرة «عادل» وحقائبهم.

كان «حسين» يشاهد التلفاز حين نادته «بريجيت»:

- بابًا.. سو «عادل» عاد! لقد كبرت «ناريمان» كذلك!

قام «حسين» وأحاط «بريجيت» بذراعه وهو يطفئ سيجارته في المطفأة خلفها. في البداية لم يتعرَّفهم؛ فقد كبر الطفلان، وارتدت «حنان» الحجاب، بينما أطال «عادل» لحيته الشقراء وظهرت «زبيبة صلاة» على جبينه.

- هل تعتقدين يا «جيجي» أنهم هم؟!

- ومن سواهم يا بابًا؟! سأخرج لأسلِّم عليهم.

- لنخرج معًا.

أمسكت «بريجيت» كفَّ «حسين» وقادته خارجة إلى مدخل العمارة. كان «عادل» يحمل الحقائب هو و«رامز» ويكوِّمها في المدخل، وعندما لمح «رامز» «بريجيت» ثبّت نظره عليها، فالتفت «عادل» ليراها مبتسمةً ترتدي بنطالًا قصيرًا وبلوزة بلا كُمّين وتلوِّح لهما.

- «عادل».. حمدًا لله على السلامة.

رد «عادل» وهو يدفع «رامز» ليأتي بباقي الأغراض:

- سلمك الله.. «رامز»، اذهب وأحضِر باقي الحقائب، ودع أمك وأختك بالخارج قليلًا.

سار «عادل» نحو «حسين» وابتسم فجأة واحتضنه وهو لا يُنزل عينيه عن «بريجيت» وهتف:

- «حسين».. أوحشتني.. ادخل، لا يصح أن تخرج ابنتك بهذا الزي إلى مدخل العمارة.

دفع «عادل» «حسين» وابنته فدخل الثلاثة إلى الشقة. قال «عادل» ضاحكًا:

- كبرتِ يا «بريجيت».. صارت نسخة عن أمها، أليس كذلك يا «حسين»؟!

رد «حسين» واثقًا:

- «جيجي» أجمل من أي شخص في العالم.

- لهذا علينا أن نخبئ هذا الجمال.

ضحك وهو يجول بعينيه في الشقة، كان «حسين» قد تخلّص من الخمور كي لا يفتح على نفسه بابًا لإدمان شيء آخر، وصارت الشقة

أبسط وأكثر حميمية.

فتح «عادل» خوان الخمر فوجده مليئًا بكتب «بريجيت» وأدوات الدراسة. ابتسم مُستحسنًا وهو يسير ببطء نحو التقويم المُعلّق على الحائط:

ـ أراك نبذت الخمر. خيرًا فعلت يا صاحبي. وأرى كذلك أنك لم تعُد بحاجة إلى تذكّر المناسبات الخاصة بـ... بأحبائك.

قال «حسين» في حرص:

ـ عندما عرفت أحبائي الحقيقيين، صرت أذكر كل المناسبات التي تخصهم دون جُهد. كنت مُحقًا يا «عادل»، فنحن نذكر الأهم في حياتنا، وكانت أولوياتي مُختلطة.

ـ لديك حق.. وأرى أن أولوياتك ما زالت مختلطة يا صديقي.. نتكلم لاحقًا. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رمق «عادل» «بريجيت» بنظرة لزجة قبل أن يخرج ويحكم غلق الباب خلفه. جرت «بريجيت» وراحت تنظر من العين السحرية وتتابع صعود الأسرة إلى شقتهم.

قال لها «حسين» باسمًا:

ـ ما زلتِ فضولية يا قطة..

ـ لقد تغيروا تمامًا.. انظر! اشتروا «كاسيت» جديدًا!

ـ هنيئًا لهم.. سنشتري لنا واحدًا عند زيارتنا لماما «جيوسيبينا» في الشتاء.

ـ لا داعي يا بابًا.. حقًا لا داعي.. الجو خانق، سأستحم ثم أحضر الغداء.

ـ سأحضره أنا، وليكُن عليك تحضير عشاء فاخر بعد الجريمة التي

سأرتكبها في حق غدائنا الآن.

ضحكت «بريجيت» ودخلت الحمام.. وتحت المياه الباردة، لمحت شخصًا يتحرَّك خلف الستار البلاستيكي الذي يحيط بحوض الاستحمام.

مسحت عينيها وحدَّقت أكثر:

- بابًا! هل تريد شيئًا؟

لم يُجِب، مدت «بريجيت» ذراعها خارج الستار بحثًا عن منشفة، فشعرت بالمنشفة توضع في كفها. لفتها سريعًا حول جسدها وخرجت من حوض الاستحمام، لتجد باب الحمام موصدًا بالرتاج كما هو ولا أحد معها.

خرجت «بريجيت» ترتجف وهي تنادي:

- بابًا.. بابًا.

سقط طبق الخضراوات من بين يدي «حسين»؛ فهو لم يعُد قادرًا على تحمل أي مفاجآت أو أصوات عالية.

- آسفة.. لكني.. رأيت شخصًا في الحمام معي على الرغم من أن الباب كان مُغلقًا!

هرع «حسين» إلى الحمام وراح يفحص كل شبر فيه ولم يجد أحدًا. «بريجيت» مُعتادة البقاء وحدها ولم تكُن تفزع حتى من الفئران، ولم تتخيل شيئًا قط منذ...

- بابًا.. مَن في الحمام كان طويلًا، ذا لحية.. رأيت ظله واضحًا من خلف الستار، لكنني ظننته أنت لوهلة على الرغم من أنك لا تدخل عليّ أبدًا دون استئذان.

قال «حسين» في شك:

- «عادل»؟

هزت «بريجيت» رأسها إيجابًا، فتناثر الماء من شعرها على وجهها. أمسك «حسين» كتفيها وأجلسها وجلس أمامها على كرسي السفرة وقال في جدية:

- «بريجيت».. نحن لم نتحدث عمّا حدث في أول أعوام انتقالنا إلى هنا قط، وقد اتفقنا أن كل ما حدث خلالها لم يحدث، وأننا نحيا معًا حياة جديدة، ووعدتك أنني سأشرح لك كل شيء عندما تكبرين؛ فهذا حقك.

- أجل.. وأنا بالفعل تناسيت كل ما أذكر عن تلك المُدَّة، لكن ذكرياتي لم تُمحَ يا بابًا.. ما زلت أذكر خوفي يوم عيد ميلادي الثالث، لا أذكر التفاصيل، لكني أذكر أنني رأيت اثنين من سو «عادل». وأذكر يوم أن جاءت «حنان» واحتضنتني وظلت ترتجف وتحكي لكما أشياء عن صور أحضرها سو «توماسينو» من شقتها. أعرف أن شيئًا مرعبًا حدث وأنني كنت خائفة دومًا، ولا أذكر التفاصيل.

- سأحكي لكِ.

حكى «حسين» كل شيء، لكنه لم يقترب من حكاية «بريجيت» الكُبرى. كل ما تعرفه «بريجيت» الصغيرة عن أمها هي أنها ماتت وهي ما زالت رضيعة، وأنها كانت تحبها حبًا جمًا. خلق خيال «حسين» عالمًا من التفاصيل الدافئة عنه وعن «بريجيت» وعن حبهما واشتياقهما لطفلة تُكلّل هذا العشق، على الرغم من يقينه بأن ما يحكيه كذب بيِّن، لكنها حكايات تُريحه هو شخصيًا.

سمعت «بريجيت» ذات الأعوام الثلاثة عشر كل شيء عن معرفة «حسين» بـ«عادل»، وعن الهدايا الغريبة وعمّا حكته «حنان» يوم أن لجأت إليه فَزِعة. الأمر أكبر من خيال مدمن..

- وماذا نفعل يا بابًا؟

- لا أعرف.. كنت قد توصلت إلى نظريةٍ ما عن شبح «عادل» هذا وأنا تحت تأثير المخدِّرات، لكنني نسيت كل شيء عنها، حتى إنني لا أذكر في أي كتابٍ قرأت ما ألهمني بها. ذاكرتي تخونني دومًا بسبب تلك المخدِّرات اللعين. سأبدأ في البحث مجددًا..

كانت «بريجيت» تخشى أن يعود أبوها للمخدِّرات لأي سبب، كانت تعامله وكأنه بلور مشروخ سيتهشَّم تحت أي ضغطة بسيطة، وفكرة معاودة البحث في كتبٍ لم يمسها منذ أعوام فكرة مخيفة بالنسبة لها. أن يدخل مرسمه القديم ويُخرج الكتب واللوحات المشوهة من صناديقها.. لن يتحمل.

- لا داعي للبحث، عمومًا «عادل» لن يمكث كثيرًا هنا وسيعود إلى عمله.

- وهل نأمن على أنفسنا وهو هنا؟ ما رأيك أن آخذ إجازة من عملي ونسافر إلى جمصة حتى يرحل؟

- ممتاز!

في الأيام التالية، بدأ العمال في التوافُد على شقة «عادل»، وبدا أنه يُعيد دهان الشقة، ومن الكاسيت الجديد يصدح صوت دروس دينية بأصوات حادة تُرهِّب ولا تُرغِّب.

يبدو أن العمل المطلوب في الشقة لم يكُن كثيرًا، فانتهى العمال مِمَّا يفعلونه خلال أربعة أيام، ثم نزل «عادل» في مساء اليوم الرابع يُجالس «حسين»، الذي طلب من «بريجيت» أن تمكث في غرفتها ولا تغادرها. شعر بغضب من قلة حيلته، لِمَ لا يقدر على طرده؟ لِمَ يخافه؟

دخل «عادل» كعادته متجولًا في الصالة قبل أن يجلس مادًّا ذراعيه على ظهر الأريكة، عاقدًا ساقيه. نظر إلى حقائب السفر المكوَّمة بجوار الباب وتساءل:

ـ مسافر؟

ـ أجل.

ـ إن شاء الله. قدَم المشيئة. إلى أين؟

ـ مصيف عائلي.. وأنت، متى تنتهي إجازتك؟

ـ بداية سبتمبر إن شاء الله.

ـ وما أخبار العمل في الخارج؟

ـ حمدًا لله على فضله، والأهم من العمل هو البيئة الصالحة والابتعاد عن أصدقاء السوء.

ـ وماذا تعمل هناك؟ أهو عمل مُرضٍ مقارنةً بعملك القديم طيارًا يجوب العالم؟

ـ أرضاني الله به، فما عدت أرى كيف ينتفع المرء من السفر لمشاهدة آثار الغابرين والمتاحف و... اللوحات..

ـ غريب هذا التغيير يا «عادل».. غريب وحاد ومفاجئ. أكاد لا أعرفك.

ـ الله يهدي من يشاء متى يشاء. كنتُ حبيسًا لا أرى العالم إلا من زاوية واحدة، مثلك.. والمرء يحتاج إلى أصدقاء صالحين كي يعينوه على رؤية الحق واتباعه.

ـ وفقك الله.

أراد «حسين» أن يُنهي تلك الجلسة دون أن يسمح لـ«عادل» بالخوض في حياته. راح قلبه يدق بعنف كأنه يجالس مسخًا يتربَص به ويطوف من حوله متشممًا إياه، باحثًا عن الموضع الأفضل لنهشه حيًا.

ـ تعرف يا «حسين»؟ عندنا ـ في الخارج ـ أشعر أنَّ زوجتي وابنتي في أمان، على خلاف الانحلال المتفشّي هنا.

- انحلال؟

- متى عدت من رحلة علاجك؟ عام سبعة وسبعين؟

- ثمانية وسبعين.

- إذًا كنت في مصر حين منع «السادات» الشيخ «كشك» مثلًا من إلقاء الدروس في المسجد! إنهم يحاربون دين الله يا «حسين». أخيرًا وجدنا ملجأنا من قسوة الحياة وهم يحاولون هدمه فوق رؤوسنا. أنا لم أرَ الأمر على ضوء الحق وقتها، لكنني رأيته.

- ما أعرفه أن الدين ملجأ مجازي لا يمكن لأحد هدمه.

- بالعكس.. لو كان ملجأ ماديًا لاستطعنا حمايته، لكنهم يُرهبون كل مَن يحاول التمسك بدينه ويتهمونه بالإرهاب. يؤلبون أفراد الأسرة الواحدة بعضهم على بعض. أنت مثلًا يا «حسين»، عانيت كثيرًا في حياتك ولو كنت وسطنا لأمكننا علاجك بمشيئة الله دون الحاجة إلى السفر أو ترك ابنتك لدى نصرانيين.

- «عادل»، هذا حديث غريب عليك أنت بالذات، متى رست تلك المبادئ في عقلك. أعتقد أن المرء يحتاج إلى أعوامٍ طويلة كي يتغيَّر تغييرًا صادقًا.

- هُدى الله غير أي تغيير دنيوي يا صديقي. أقول لك: سأسافر مع الإخوة إلى معسكر للاعتكاف والتدريب على الجَلَدِ والاحتمال. خُلوة لو جربتها يا «حسين» ستعرف كيف تغيرت ولماذا. لا تدع ما شوهته أمك من علاقتك بالله ننتصر عليك.

- كما تقول، فالله يهدي من يشاء. كل شيء بأوان يا «عادل».

- أفهم أنك لن تأتي معنا؟

- صعب حاليًا.

- الباب مفتوح يا صديقي، لكن حذارِ، فلا يعلم أحدٌ متى تقوم ساعته،

وأنت قد ابتعدت كثيرًا عن طريق الله.. حتى إن ابنتك الوحيدة...

ـ لا أحب دسّ سيرة «بريجيت» في حديثنا، أيًا ما كان الموضوع الذي نتحدث فيه.

جاء جفاء «حسين» عن خلفية من خوفه من الانتكاس. «عادل» شم كما كانت الأمفيتامينات سفًا. ولا يوجد تعافٍ كامل من الإدمان وسيظل عليه أن يبتعد عن كل ما يمكن أن يُعيده إلى دوّامته.

قال «عادل» مبتسمًا بطرف شفتيه:

ـ ستزعجك المواجهة بالخطايا ما دمت لم تندم عليها ندمًا كاملًا.. «بريجيت» ابنة سِفاح، ولو كان هذا الأمر لا يعنيك حقًا ما أخفيته عني وألصقت بنوّتها بصاحبك. ابنة زنا ليلة واحدة مع امرأة لم تعبأ حتى بأن تأخذ اللوحة التي رسمتها لها. أنت وثقت بي وحكيت لي وأنا غفرت لك، فثق بالله يا صديقي.

ـ «عادل».. أعتقد أننا سننام كي نسافر صباحًا.. تصبح على خير.

قام «حسين» متجهًا نحو الباب، فتبعه «عادل» متثاقلًا والبسمة اللزجة ما زالت على شفتيه:

ـ سنصلي الفجر معًا قبل أن تسافر.

ـ حسب الظروف.. تصبح على خير.

* * *

سافر «حسين» و«بريجيت» إلى رأس البر، وحين عادا، لم يكُن «عادل» قد عاد إلى عمله في الخليج بعدُ.

اضطرت «بريجيت» للَجوء إلى وجود أبيها المستمر معها كي لا يظهر لها شبح «عادل» هذا مجددًا، وصارت تستحم والحمام مفتوح و«حسين» جالس عند الباب موليًا ظهره للبانيو المُغطى بالستائر. كانا ينامان في ورديات، يسهر فيها «حسين» بجوارها حتى تستيقظ ثم

ينام هو. وحين كان يذهب إلى العمل، كانت تذهب معه.

لكن «عادل» ظل يحاصر «حسين»، ويلحّ عليه في الحديث. نزل إليه يومًا ومعه سجادتا صلاة ومصحف، ودون دعوة ولَج إلى الشقة وراح يتمشّى فيها حتى وصل إلى المرسم وقال:

- قلتُ أقيم معك الليل.. فيمَ تستغل تلك الحجرة؟

- لِمَ تسأل؟

أغلقت «بريجيت» على نفسها باب حجرتها بعد أن أشار «حسين» إليها. فتح «عادل» باب المرسم وخطا إلى داخله. اللوحات في موضعها منذ أعوام، والتراب يكسو كل شيء. توقف «عادل» بعد خطوتين وقال:

- أراك نبذت الرسم والكلام الفارغ. لم يعُد عليك إلا بالمرض ومعصية الله. لنصلّ هنا.

- «عادل».. أعتقد أن الوقت غير مناسب..

- غير مناسب للصلاة؟

- غير مناسب عمومًا لأي شيء؛ فنحن سنخرج.

وضع «عادل» كفه على كتف «حسين» وقال:

- أعرف المشكلة التي تسببتْ لك فيها والدتك بينك وبين الصلاة، لكن...

- رجاء يا «عادل».. سنتحدث لاحقًا.

على «حسين» أن يغلق أي باب قد تمر من خلاله سموم «عادل»، وكان يخشى كل يومٍ أن يضعُف، أو يلاحظ «عادل» تنصُّله منه فيهاجمه وهو أضعف من أن يحتمل.

أسبوع حتى يرحل «عادل»، وينفك الحصار والرعب اللذان

يعيشانهما. وعلى «حسين» أن يتدبّر أمر إجازات «عادل» المقبلة، وظل يدعو الله ألا يعود «عادل» إلا كل بضعة أعوام على الأقل.

لا يزال «عادل» يملك زمامه، ويعرف كيف يزرع الشك في أعماقه، كيف يدفعه إلى لوم نفسه وتحقيرها.

ظلّ يفكر في كل معصية فعلها، ويتساءل: تُرى أنسيت الله وأخرجته من حساباتي؟ أيكون الله فعلًا قد هدى «عادل» وجعله سببًا لهُداي وأنا نبذت عرضه؟

اطمأن «حسين» أن «بريجيت» مُستغرقة في القراءة وقام ليتوضأ لأول مرة منذ أعوام طِوال، بالضبط منذ عشرين عامًا. الذكرى التي حكاها لـ«عادل» في وقت صفاء في الماضي تعود.. كان في العاشرة، ورأى الناس يصلون التراويح في الشارع المجاور. رأى مَن يبكون خشوعًا ففزع.. لم يكُن الله بالنسبة لـ«حسين» سوى مصدر للعقاب المُطلق الغاشم الذي لا يُفرق بين النيات.

لم تكُن «آمال» تذكر الله أمامه إلا مقرونًا بالوعيد: نَم وإلا حرمك الله من النوم للأبد، كُل وإلا حرمك الله نعمة الطعام.. اسمع الكلام وإلا غضبت عليك وغضب الأم ساحقٌ ماحق لا يُرد حتى وإن سحبت الأم دعاءها.

ظنَّ «حسين» أن الناس يبكون في الصلوات خوفًا من بطش الله، وأن كل هؤلاء يعانون دعوات أمهاتهم ويبتهلون إلى الله أن يرفعها مثلًا.

لكن والدته أكدت أن غضب الأم لا يُرفع، فما جدوى الصلاة والدعاء؟

توضأ «حسين» يومها وصلى، لكنه لم يشعر برغبة في البُكاء، ورسا في عقله أن تلك علامة تعني أن الله لم يستجِب له.

مع الوقت، سمع «حسين» كثيرًا عن صفات اللهورحمته، لكن

ما رسخ في ذهنه يومها لم يتغيّر، لم يكُن الله في عينيه سوى صورة

غير محدودة القدرات لـ«آمال» لا أكثر.

أنهى وضوءه، والتفت ليخرج من الحمام حتى لمح وجهًا يُطل من خلف الزجاج المُصنفر للنافذة. وقف قلبه في حلقه للحظات، ثم أطال النظر فوجد الوجه لا يزال موجودًا. متى عاد «عادل» من خُلوته؟ ولِمَ يقف في المسقط يحدّق إلى داخل الحمام؟

لام «حسين» نفسه على محاولاته إيجاد تفسير منطقي لكل ما يخص «عادل». لا بُدَّ من أن هذا شبحه أو قرينه أو أيًا من كان.

فتح «حسين» النافذة مرتعدًا، موقنًا أنه لم يجد أحدًا خلفها، لكنه أطلق صرخة وتراجع حين أبصر «عادل» مُحدقًا فيه في ثبات. كاد ينزلق في بقعة الماء أسفل الحوض وهو يخرج مغلقًا الباب خلفه. رن جرس الباب، فاستيقظت «بريجيت» ونادت عليه وهي تقوم لتفتح. لدهشته رأى «ناريمان»، ابنة «عادل» الجميلة، تحدق في الأرض في خجل وتوتر.

على الرغم من ترددها فإنها دخلت خطوة واحدة وهي تنظر من خلف كتفها إلى سلم العمارة.

ابتسمت «بريجيت» هاتفة:

- «ناريمان»! كيف حالك؟ تعالي.

- شكرًا.

لا علاقة لرد «ناريمان» بما قالته «بريجيت»، لكنها دخلت وجلست على أقرب كرسي، وقبل أن تسترخي، قامت وأغلقت ستار النافذة الكبيرة في الصالة ثم عادت إلى مكانها.

خرج «حسين» إليها مُحكِمًا غلق باب الحمام، رحّب بها وجلس أمامها متعجبًا من الزيارة:

- ماما بخير يا «ناريمان»؟ و«رامز»؟ لم يرجع أبوكِ بعدُ من رحلته،

أليس كذلك؟

- لم يرجع بعدُ.

بحث «حسين» عن حديث يكسر به حاجز صمتها فلم يجد. قام ليحضر لها ما تشرب، فجلست «ناريمان» تنظر إليها في فضول ومرح، نظرة «توماسينو» ذاتها التي كان ينظر بها إلى أي شيء يثير فضوله.

- «ناريمان».. في أي عام دراسي أنت؟

- الرابع.

- وأنا في السادس.. كان من المفترض أن أكون في الصف الأول الإعدادي لكني سافرت عامًا ولم أذهب فيه إلى المدرسة.

- أين كنتِ؟

- صقلية، عند خالي «توماسينو».

- والدتك من أي بلد؟ وأين صقلية؟

- أمي فرنسية، لكن خالي صقلي، وصقلية في إيطاليا.. لكنه كذلك ليس خالي بالضبط..

ضحكت «بريجيت» بسبب غرابة توصيف عائلتها. قامت إلى الخوان الذي كان يحوي الخمر سابقًا، وأخرجت ألبومًا للصور.

جلست بجوار «ناريمان» تُريها عائلتها الإيطالية، ونسيت تمامًا غرابة زيارتها:

- هذه ماما «جيوسيبينا»، أمي التي أرضعتني، وهذه الخالة «جيادا»، وهذه «باولا» أختي بالرضاع، وهذا الطويل الوسيم هو «توماسينو».. خالي، أو عمي..

- لا أفهم بالضبط ماذا تعنين، لكنهم ظرفاء.. لا يبدو أحد منهم أجنبيًا.

- الصقليون يشبهون المصريين كثيرًا في كل شيء.

- والفرنسيون؟

- الفرنسيون مختلفون. كان لدينا لوحة لأمي لكنها... تمزقت. أنا أشبهها، وللأسف لا أشبه المصريين ولا الصقليين.

- لكنك جميلة جدًا.. لون شعرك مثل لون شعري. لا أعرف إن كان أبي فرنسيًا، فأنا أشبهه.

قبضت سيرة «عادل» قلب «بريجيت»، فزالت عنها البسمة وأغلقت ألبوم الصور.

- أتذكر يا «بريجيت» أنه كانت في شقتنا رسوم لصقلية هذه. هكذا أخبرتني أمي.

- أبي وخالي هما من رسما اللوحات في شقتكم. أحب شقتكم جدًا؛ فكلها ألوان وبهجة.

- كانت.

- كانت؟

- أجل.. أبي أزال كل شيء عندما عدنا.

عاد «حسين» ومعه ثلاثة أكواب من العصير. أعطى «ناريمان» كوبًا أخذته منه ووضعته على الطاولة. قالت وهي ترتجف:

- عمو «حسين».. أنا خائفة.

- مِمَّ يا صغيرتي؟!

- من... بابا.

نظرت «بريجيت» إلى أبيها في عجب، أحاطت كتفي «ناريمان» بذراعها النحيلة ولم تتكلم.

- لماذا تخافين منه؟

تلفتت «ناريمان» حولها وابتلعت ريقها، وقالت متسعة العينين:

- لا أخاف أبي نفسه.. أعني: أنا أخافه لأنه يخاصمني أحيانًا، لكن ليس هذا ما أتحدث عنه. عندنا شبح يا عمو «حسين» ولا أحد يراه سواي.

ابتلعت «بريجيت» بسمتها التي ذكّرت «حسين» ببسمة «توماسينو» التي كانت تبزغ في غير محلها دومًا.

- حبيبتي، ما شكل هذا الشبح؟

- يشبه أبي تمامًا.. هو موجود معنا أينما ذهبنا ولا يظهر إلا في غياب أبي.

- وماذا يفعل هذا الشبح؟

- يضرب أمي.. يجرها من شعرها على الأرض حين تخرج للشرفة بلا «طرحة». يحرق «رامز» بالسكين الساخنة عندما يسمع الأغاني أو يلعب الكوتشينة.

- وكيف إذًا لا يراه أحد سواكِ؟

- عندما أصرخ أو... أو أتكلم عنه، تقول لي أمي إنني أتخيَّل. أخبرها أنني أراها على الأرض تُجر، فتنهرني وتخاصمني.

سألت «بريجيت»:

- و«رامز»؟

- لا يتكلم أبدًا.. هو أصلًا قليل الكلام، وعندما أسأله عن الشبح يغضب مني. في مرة واحدة فقط قال لي إن الشبح يؤذيه بسببي.

تساءل «حسين»:

- كيف يؤذيه بسببك؟ وأنتِ، ألم تتعرضي لإيذائه؟

ـ لا أعرف ماذا يعني «رامز». الشبح لا يؤذيني لكنني أخاف أن يفعل بي ما يفعل بهما ولا أعرف كيف أجعله يبتعد عني.

بكت «ناريمان»، وانكمشت رافعةً ساقيها إلى صدرها وظلت تهرِف بكلام غير مفهوم. قام «حسين» فاحتضنها وقد أصابته حيرة بالغة، فماذا عساه أن يفعل؟ هو نفسه يعاني شبح «عادل».

هدأت «ناريمان» بعد لحظات، فناولتها «بريجيت» العصير. فجأة صدح صوت طرقات ثلاث من الحاجز الخشبي في السقف.

سقط العصير على ملابسها فلم تأبه، وتعلق نظرها بالحاجز وهي تهمس:

ـ أبي.

قال لها «حسين» وهو يرتجف بدوره، فما عاد يتحمل أي انفعال عصبي:

ـ «ناريمان».. اسمعي.. أ...

غاصت الكلمات في قاع عقله، وراح يتصبَّب عرقًا وترتجف كفّاه. قامت «بريجيت» وأجلسته ثم سألت «ناريمان»:

ـ هل والدتكِ وأخوكِ بالأعلى؟

هزت «ناريمان» رأسها إيجابًا وهي ما زالت لا ترفع عينيها عن السقف.

ـ هل يعلمان أنكِ هنا؟

مجددًا هزت الطفلة رأسها نفيًا.

ـ فيمَ تفكرين؟ انظري إليّ.. فيمَ تفكرين؟

حاولت «بريجيت» أن تستعيد كل ما كان يفعله «توماسينو» معها حين يضربها الخوف الطفولي غير المبرر.

- أفكر.. أفكر أنه عرف أنني هنا وسيعاقبني.

- سنظل معك ولن يستطيع أن يعاقبك.

- هل تصدقينني؟

حدّقت الفتاتان بعضهما في بعض، وقالت «بريجيت» في ثقة:

- أصدقك.

توالت دقات عنيفة على باب شقة «عادل»، فقام «حسين» متمالكًا نفسه وأمسك بكفي الطفلتين وجذبهما نحو الباب هاتفًا:

- لن نفترق، تعاليا معي.

ما إن تحركوا بضع خطوات حتى كادت قطعة الخشب التي تسد السقف تنهار من الطرقات المختلطة بصرخات أنثوية وبكاء طفل.

كان صوت «حنان» المكتوم يصيح:

- أستاذ «حسين».. أستاذ «حسين».. افتح.. أرجوك افتح.

هرع «حسين» إلى حجرة الرسم، وجلب مطرقة، ثم عاد وأزاح أصص النباتات عن درجات السلم وراح يحاول هدم الحاجز الخشبي. لا يعرف لمَ غابت عن مخيلته فكرة أن يصعد إليهما، كان مُرتعبًا مشوشًا.

صوت الطرقات، وصوت الخشب إذ يتهشم، وبكاء «ناريمان» ورجاؤها له بألا يسمح لهما بمعرفة أنها هنا، ألا يُدخلهما عنده..

أخيرًا، تداعى السد، وبزغت ذراعا «رامز». أحاط «حسين» بجسده الصغير لكن قوة عاتية جذبته منه.

صرخ «حسين»:

- «بريجيت»، اجذبي معي.

مدت «بريجيت» ذراعيها محاولة أن تمسك بجذع «رامز»، لكنها

صرخت، وحين سحبت ذراعها، رأت آثر طعنة سكين في كفها.

ترك «حسين» «رامز» وعدا نحو ابنته، باحثًا حوله عن أي شيء ينقذها، فلم يستوعب عقله المنهك بعدُ ما حدث لها.

نزلت «حنان» من السلم وسحبت «ناريمان» من ذراعها التي كادت تنخلع، ودون كلمة أخرى صعدت إلى شقتها ثم صاحت من أعلى:

- أغلِق تلك الفتحة بسرعة، ولا تتدخل في شؤوننا مطلقًا، أتفهم؟ مُطلقًا.

* * *

عاد «حسين» و«بريجيت» من المستشفى قُبيل الفجر، ليجدا الشقة مقلوبة رأسًا على عقب. سارا ببطء وراحا ينظران إلى فتحة السقف فوجداها مغلقة بما يشبه قاعدة أو ظهر خزانة قد جزَّتها جارتهما لتقطع أي صلة لها بهما.

في البداية، ظن «حسين» أنها قد نزلت في غيابه وتسببت في تلك الفوضى، لكنها لم تكُن فوضى مؤذية، كانت فوضى أقرب ما تكون إلى العودة بالزمن إلى الوراء، وكأنه عاد إلى بداية السبعينيات مجددًا.

الخوان مليء بزجاجات الخمر المنضدة مفعمة بكتُب الفلسفات الآسيوية وعلب أقراص الأمفيتامين. من البيك آب يتصاعد صوت أغنية مألوفة:

«جيل كامل يتحرك عبر العالم في موجة عارمة..

تحمل تفسيرات مختلفة..

إلى من سيأتون إلى سان فرانسيسكو..

تَوّجوا رؤوسكم بطوق الأزهار..

إن كنت ستأتي إلى سان فرانسيسكو..

فستجد في صيفها خبك».

تمسك «بريجيت» ذراع أبيها وتهمس وهي لا ترفع عينيها عن أقراص المخدّرات:

- بابًا.. لنرحل ولنبت في أي مكان، حتى لو في الشارع.

- لن نرحل.. هذا بيتنا.. تعالي ولا تبتعدي عني أبدًا، مفهوم؟

أبصر «حسين» حجرة الرسم الخاصة به مُضاءةً والباب مفتوحًا، اقترب منها وابنته خلفه، ترتجف أوصاله توترًا فيمتلئ بالحنق من ضعفه.

الحجرة مُتربة كما هي، وعلى الأرض آثار حذاء رجالي يسير حول الحجرة مرارًا ويدور في جنباتها. في منتصف المكان، عادت لوحة «بريجيت» كاملة، مُؤلفة من القصاصات التي نثرها «حسين» في لوحات كثيرة. «بريجيت» مشوهة، ممزقة الروح، ترمقه من العالم الآخر.

ظلت ابنته تجذبه كي يخرج من الحجرة لكنه لم يُبالِ.

على المنضدة الصغيرة، رأى منديلًا قماشيًا مُطرزًا بحرفي الألف والذال.. آمال ذو الفقار، وقد خُيِّط بعضه إلى بعض فعاد يهدِّد بما يحمله من ذكريات كيان «حسين» الهش المُضطرب.

ظل يهمهم:

- لقد مزقتكما.. لِمَ عُدتما؟ كيف عدتما؟!

جرّت «بريجيت» الصغيرة نحو لوحة أمها وضربتها في الحائط، ولأول مرة يراها «حسين» تصرخ، تثور:

- لن تعود إلى ما كنت عليه يا بابًا.. لن تعيدك لوحة إلى ما كنت عليه.. لن أترك شيئًا يأخذك مني.

انهارت «بريجيت» على رُكبتيها فوق أشلاء اللوحة تبكي أعوامًا تماسكت فيها وتظاهرت بأنها لا تفهم ولا تعي شيئًا. طوّقها «حسين» بذراعيه ودسّ وجهها في صدره النحيل:

- «جيجي».. هيا نرحل.. كلّمي... كلّمي «توماسيتو».. في الصباح.. في الصـ...

أمسكت «بريجيت» بوجه أبيها بين كفيها وحدقت في عينيه الزائغتين. سمعا من بعيد أصوات صلاة التراويح بدعائها وابتهالاتها بدلًا من تواشيح الفجر. صلاة يذكرها «حسين» جيدًا..

الإمام يبكي..

المصلون يبكون..

هو عاجز عن البكاء.. ملعون مُبعَدٌ عن رحمة الله للأبد.

- بابًا.. ما هذا الصوت؟ ومن أين يأتي؟ صلاة التراويح؟!

- «بريجيت».. لنرحل.. لنرحل.

استند «حسين» إلى كتف «بريجيت» مُحاذرًا أن يمس جرح كفها المُضمد. سارا نحو الباب بضع خطوات، حتى سد عليهما «عادل» الطريق.

مبتسمًا، فاردًا ذراعيه على جهتي الباب، عاقدًا ساقيه، باسمًا بركن شفتيه كعادته.

- «عادل»! متى غدت؟ وكيف دخلت؟

- لم أغد بعدُ، لكنني موجود دومًا في كل مكان.

سار بضع خطوات حتى كاد يلامس «حسين»، وضع إصبعه على رأس الأخير مُردفًا:

- حتى في أحلامك.. في ذكرياتك..

صاحت «بريجيت» وهي تحوّل انتباه أبيها إليها:

- بابًا.. هذا ليس «عادل»، هذا شبح.. تجاهله..

- تعرفين أنني لستُ شبحًا يا جميلتي.

كلاهما كان يعرف أن ما أمامه ليس بشبح، وكيف يكون شبحًا لو أن له ظلًا ويترك أثرًا على الأرض وفي النفس، كثعبان يسعى.

دفع «حسين» «عادل» وجذب «بريجيت» ليرحلا، لكن الأخير لم يتحرّك وإنما أفسح لهما الطريق كقط يتلاعب بفأر.

باب الشقة مُوصَد، وعلم «حسين» أنه لن يُفتَح. هرعت «بريجيت» تفتح النافذة الكبيرة التي تُطل على الشارع، والتفتت لتنادي أبيها لتراه واقفًا ذاهلًا يحدِّق في «بريجيت» الكبيرة الفاتنة، الملتفة بشال واسع النسيج، وتطوق رأسها بتاج من الأصداف. لأول مرة ترى «بريجيت» شبح أمها. لم تكُن في كمال شبح «عادل» الذي يشبه أصله تمامًا، كانت أقرب إلى لوحة زيتية مُجسمة لا تتناسب ظلالها مع إضاءة المكان.

- بابًا.. لا تنظر إليها.. تعالَ نحاول فتح النافذة.

اقترب منها «حسين» مُحدقًا هامسًا بالفرنسية:

- «بريجيت».. لِمَ تركتِني؟ لطالما انتظرت فرصة واحدة لأسألك فيها هذا السؤال: ماذا فعلت لأستحق هجرك؟ ماذا فعلت لينبذني الجميع؟

تجمدت «بريجيت» الصغيرة في مكانها وهي تسمع رد أمها. لم تكُن تعرف صوتها، لكنها كانت موقنة أن الصوت المنبعث منها ليس حقيقيًا كما كانت موقنة أن مظهرها لا يشبه سوى لوحة غير مُتقنة.

- «حسين».. ألا تعرف ماذا فعلت؟ ألم تسأل نفسك مُطلقًا لِمَ فضّلت الرحيل مع قافلة الهيبيز بعد قضاء ليلة واحدة معك؟ ألم تسأل نفسك لِمَ لَمْ آخذ اللوحة التي طلبتها منك؟ لِمَ تركت لك ابنتك؟ ببساطة لأنك

فاشل ولا أريد أي شيء يذكّرني بأنني هَويت حتى قبلت أن أسلّم لك جسدي.

نَفَر الشريان في جبهة «حسين»، وتمنّت ابنته لو يثور ويرد للوحة البائسة الصاع صاعين، لكنه ما زال هشًا، زال إدمانه ولم يزُل سببه. ود «حسين» لو يتوارى خلف الأمفيتامينات والخمور، لو يتقوقع في مرسمه للأبد، لو يفنى فلا يُبعث ليعذّب في آخرة أديان إبراهيمية أو عبثية تناسخ فلسفات آسيوية.

لكن «بريجيت» الكبيرة لم تكتفِ بما قالت، اقتربت منه وأكملت:

- والآن، هذه ابنتك، عاجز عن حمايتها، عاجز عن أن تكون قدوة، عاجز عن منافسة «توماسينو» في قلبها.. انظر.. انظر إلى وجهها يا «حسين»، هذا ليس وجهي فقط، كل تعبيراتها هي تعبيرات صديقك.. ردود أفعالها.. ضحكتها.. قوتها.. دخلت الحياة يا «حسين» وستخرج منها صفرًا على اليسار..

ألقت «بريجيت» بمصباح مكتب على شبح أمها، فأصابتها.. نظرت إليها وابتسمت في حنان مرعب مخيف. تقدمت منها والصغيرة ترتجف وهي تُجيل نظرها بين الشبح الماثل أمامها وأبيها الذي تجمّد كالتمثال. كان مُرتكنًا في يأس إلى الخوان، يرمق الخمر في شرود.

قالت «بريجيت» الكبيرة للصغيرة بالفرنسية:

- صغيرتي.. لحسن حظك أنك تشبهينني. انسي أباك هذا واعتمدي على نفسك. لن يلومك أحد لو كرهتِه أو تركتِه يتعفن وحده، فهو قد أهملك أعوامًا وألقى بك إلى أغراب يربونك ويتولون رعايتك. كذلك خذيها نصيحةً مني يا صغيرتي، لا تبحثي كذلك عن «توماسينو»؛ فلطالما كنتِ عبئًا عليه، وها قد تركك حين وجد وظيفة في بلده.

- كاذبة.. أنتِ ميتة ولا وجود لك.. أمي كانت تحبني وأبي يحبني و«توماسينو» يحبني.

ضحكت «بريجيت» ساخرةً وهي تمسد كف شبيهتها الصغيرة وقالت:

ـ ستكبرين وستعرفين أن الحب وهم. لن يحبك أحد ما لم تقدمي له شيئًا في المقابل. فكِّري فيها يا حلوتي.

انتبهت «بريجيت» الصغيرة إلى صوت تهشم زجاجة، ورأت أباها قد كسر زجاجة خمر بعد أن شرب ما بها وابتل قميصه بالسائل الشفاف.

صاحت «بريجيت»:

ـ بابًا..

ـ «جيجي».. لن أستطيع حمايتك. في الموت فرصة أخرى للحياة يا قطتي.

ـ بابًا.. لا!

عندما وصلت إليه كان قد طعن رقبته وسقط أرضًا. اختفت «بريجيت» وظل شبح «عادل» واقفًا يرمق نزع «حسين» الأخير.

ـ «حسين».. لو أنك ثُبت.. أنت ذاهب الآن إلى ربك الذي فررت منه، ستذهب إليه مخموزًا منتحرًا.. خسارة.

قفزت «بريجيت» إلى صدر «عادل» وظلت تلكمه في وحشية حتى تمزقت خياطة جرحها. أغرقت كفُّها وجهَه بالدماء الساخنة والغضب والحسرة. لم يبدُ أن «عادل» يشعر بشيء. ظل هادئًا حتى سقطت على الأرض. ظلت تبكي لساعات وهو ما زال واقفًا كالتمثال. وأخيرًا ركع جوارها وقال:

ـ يمكنني أن أكون أبًا أفضل منه يا «بريجيت». أستطيع حمايتك كما أحمي «ناريمان» و«رامز». لم أفعل ما فعلت اليوم سوى لحمايتهما منه ومن ضلاله. لن أعاقب «ناريمان»، فلا تخافي، أنا لا أضربها أبدًا لأنها ذكية وتعرف ما أريد دون أن أفصح عنه. أخطأت اليوم بلجوئها إليكما، لكنها ما زالت طفلة، وأنتِ طفلة كذلك وسأغفر للأطفال أخطاءهم.

أمسكت «بريجيت» زجاجة الخمر المكسورة وحاولت طعن «عادل» بها، لكنه لم يتأثر. فقط طقطق بلسانه مستنكرًا، ثم انقلب وجهه لتهديد جعل «بريجيت» تزحف أرضًا للخلف وتحتمي وراء الخوان.

هدر صوته:

ـ تأكدتِ أنني لست بشبح؟ سأعود يا «بريجيت» بعد أن أمنحك فرصة للتفكير؛ فأنا غفور لمن أشاء، وستدفعين ثمن رفضك مساعداتي غاليًا لو عُدت ووجدتك على عِنادك. سأعود.

* * *

في يوم ١٥ فبراير ٢٠٠١م، تُوفي عادل دميري في فراشه، ولم يسر في جنازته أحدٌ قط.

١٥ فبراير

الدقي ـ مصر ـ ٢٠١٨م

في مساء الخامس عشر من فبراير، تمنى «رامز» الموت.

وفي المساء نفسه، وبعد دقائق من أمنيته تلك، سمع ثلاث طرقات متتالية على باب الشقة، انتفض فزعًا، ثم مسح على وجهه ونهض متثاقلًا من على كرسيه خلف المكتب ليجد «أمنية»، ابنته ذات الأعوام العشرة، منكفئةً على وجهها وسط الصالة على السجادة المتربة.

لم تكُن فاقدة الوعي، بل كانت ممددة هناك مفتوحة العينين بلا نية لفعل شيء آخر. ركع جوارها وقلبها على ظهرها فانقلبت. نظرت إليه نظرتها الخاوية المعتادة.

ـ ماذا حدث؟ هل تعثرتِ؟

ـ كلا.

ظلت تحملق في السقف، فقاوم «رامز» ركلها وسار حتى باب الشقة

ليرى مَن كان يطرقه. لكن لم يكُن ثَمّة أحد.

تحاشى «رامز» في طريق عودته إلى غرفة المكتب أن ينظر تجاه «أمنية»؛ فقد عاهد نفسه على ألا يضربها مرة أخرى، فيكفيها تخلّي أمها عنها بعد أن علمت بما يتطلّبه سرطان دماغها من رعاية ومال. قالت:

- زوجي لن يتحمّل وجودها ولا انشغالي معها، ولم أستطِع أنا أن أراعي أخاها الصغير وأتابع جلسات العلاج. لتتحمل أنت قليلًا عبئها ريثما تتحسن.

علم «رامز»، في الثاني والعشرين من فبراير، أن ابنته غالبًا لن تتحسّن، ولن تُشفى. لم يُبدِ طبيبها أي محاولة لطمأنته أو بث الأمل فيه. لكن عليه أن يتوهّم أملًا وينفق عليها آخر مليم يملكه، وإلا فلن يتحمل الشعور القاتل بالذنب لو ماتت دون أن يموت هو قبلها حيًا.

لم يشعر «رامز» أن ما يحدث له حقيقي، ولم يشعر بثقل كل قرار يتخذه، لكنه كان يعلم أنه سيندم لاحقًا حين يدرك ما ألزم به نفسه خوفًا من ذاته وألاعيبها.

جمع نتائج الفحوص التي بعثرها في غضبه من فوق سطح المكتب المُترب، وأزعجه منظر التراب المبعثر غير المتجانس من آثار الأوراق وآثار أصابعه، فهرع إلى الحمام ليحضر منظف الأخشاب من وسط السلة العملاقة التي تحوي جميع أنواع المنظفات والمطهرات، والتي كانت أول ما حرص على نقله من شقته القديمة إلى بيت والديه الراحلين.

قبل أن يخرج من الحمام، تنامى إلى سمعه صوتُ جزّ آتٍ من مسقط العمارة الذي يطل عليه الحمام والمطبخ، فوقف فوق غطاء المرحاض ينظر من خلال النافذة المغطاة بطبقة من التراب ونسيج العناكب، ولم يتبيّن مصدر الصوت.

كانت الشقة لم تُمس منذ وفاة والدته. كل شيء كان كما تركته قبل وفاتها، حتى الأواني المتسخة في حوض المطبخ قد تعفّن ما فيها وصار ترابًا خلال السنوات الست الماضية. وعلى الرغم من التراب في كل مكان، حرص «رامز» على تعديل وضع الفوطة المصفرة على المشجب، وصَفّ خُفّي الحمام بمحاذاة الحائط قبل أن يشرع في تنظيف سطح المكتب وإعادة رصّ كل شيء عليه في صفوف متوازية مُرتّبة من الأصغر إلى الأكبر حجمًا.

في موعد النوم، دخلت «أمنية» المكتب وهي تمرِّر إصبعها على الحوائط، فينساب التراب على الأرض، ويُرسم خطٌّ ناصعٌ على الحائط يبيِّن لونه الأصلي الشاحب. لم يستطِع «رامز» أن ينقل عينيه عن الخط الذي أفسد تجانس التراب وهو يحاول أن يكبح غضبًا يصارع أبواب تعقّله.

- بابا، أنا جائعة.

هرع إلى الحائط وتفحّص ما يمكن فعله تجاه الخط النظيف، فلم يجد له حلًا إلا تنظيف كل ما حوله من السقف إلى الأرض ومن الحائط إلى الحائط المقابل على الأقل. كوّر قبضته كي لا يدفع ابنته في كتفها، وأخبرها أن هناك شطائر في الكيس على طاولة السفرة. أخفضت «أمنية» عينيها الكبيرتين إلى الأرض وعادت أدراجها، ثم انكفأت على البساط المُترب مجددًا.

* * *

على الرغم من انهماك «رامز» طيلة اليوم التالي في جمع حاجيات أمه وما تبقى من حاجيات أبيه في صناديق ورقية، فإن رائحة خانقة كانت تتزايد في الشقة ولم يفلح في أن يجد لها مصدرًا. راحت «أمنية» تتفحص محتويات الصناديق وتسأل عن ماهية كل شيء، وتستأذن أباها في أن تأخذ هذا الغرض أو ذاك، ولم يأذن لها قط ولم يُجب عن أيٍّ من تساؤلاتها.

دسّت «أمنية» نظارة جدها القديمة في جيب جلبابها الثقيل المنقوش برسومات لفواكه تضحك، وهرعت إلى حجرتها التي كانت حجرة عمتها.

لوهلة، تجمَّد «رامز» مكانه والشعور بالذنب يعتصره. تمنى لو أن في مقدوره ألّا يفعل ما يجلب عليه ذلك الشعور المُمِض، لو أنه يرفُق بالفتاة وبنفسه.

حين دخل على ابنته، كانت توليه ظهرها وتنظر من خلال النظارة الطبية وهي تضحك وتتلاعب بصوتها كي تمثّل دورَي الجد والحفيدة.

- أنا جدو يا «أمنية». أهلًا يا جدو، أوحشتني. أنت لا تعرفينني ولم تريني من قبلُ، فكيف أوحشتك؟ لقد رأيتُ صورتك يا جدو وحكت لي عمتي «نانا» كثيرًا عنك. ماذا حكت لكِ؟ حكت لي عن البطيخة البيضاء وعن...

ابتسم «رامز» رغمًا عنه وهو يسمع الحوار الطفولي، واستعاد فجأة جلسة «أمنية» مع «ناريمان» أخته في شرفة فيلتها الواسعة، وخيوط الشمس تنعكس على شعرهما المموَّج الأشقر. لم تكُف «ناريمان» لحظةً عن حكي مواقفها مع أبيهما، وكأنها تُعيد إحياءه في كل مرة تضحك فيها «أمنية» وتتخيله متجسدًا أمامها.

تتكلم «أمنية» متقمِّصةً الشخصيتين:

- حسنًا يا «أمنية»، أتعرفين أين أنا الآن؟ أنتَ؟ أنت عند ربنا، هكذا قالت لي عمتي «نانا». كلا يا صغيرتي، أنا تحت الأرض، هل زُرتِ مقبرة من قبل؟ لا.

- «أمنية».. تعالي لأريكِ شيئًا.

حاول «رامز» أن يقاطع لعب «أمنية» الذي اتخذ منحًى خطرًا، لكنها لم تسمعه، وأكملت لعبها وحديث جدها.

- المقبرة مظلمة، عفنة الرائحة، يمكنك أن تري الأكفان المهترئة في...

جذب «رامز» ذراع «أمنية» لتلتفت إليه فسقطت منها النظارة. اتسعت عيناها ذعرًا وهي تحدق في وجهه وترفع ذراعيها كي تحمي وجهها من ضربة متوقعة.

- ماذا تفعلين؟ من أين لك بمعرفة هذه الأمور؟

- أي أمور؟ أنا لا أريد النظارة، كنت فقط... كنت... أنا...

كان خوفها يثير غضبه أكثر من أي شيء. كان يعلم أنه سيطاردها في أنحاء الشقة حتى يحاصرها في ركن. سيلكمها وظهرها إلى الحائط، ستبكي بلا صوت، ستفر من تحت ساقيه لتختبئ في مكان آخر، سيسحبها من ملابسها ويحتضنها، سيغضب أكثر من رعشة الهلع التي ستنتابها، سيعتصرها بين ذراعيه حتى تصرخ، وسيعجبه صراخها ويؤلمه ويعذبه. كان يعرف أن هذا ما سيحدث وأن عليه أن يمنعه من الحدوث بأي ثمن.

خرج من الحجرة، ودلف إلى حجرة أبويه، ثم خرج حاملًا صندوقين ورقيين ضخمين يحملهما من أغراض وذكريات. توجه إلى باب الشقة فسمع طرقات ثلاثًا. نادى «أمنية» أن تفتح الباب فلم ترد.

ألقى بحمله أرضًا فانقطع قاع الصندوق وتدحرجت محتوياته. لكم الحائط مرتين قبل أن يدخل على ابنته ليجد أنها قد غاصت في النوم متكورة فوق الملاءة المُتربة.

حين فتح باب الشقة لم يجد أحدًا، لكنه سمع أصوات جرٍّ مجددًا تأتي من الطابق الأرضي.

نزل بضع سلالم ليرى امرأة لم يقدر على تحديد عمرها، لكنها كانت فاتنة، خشنة، على خديها ما يشبه شكل فراشة مُمتدة حول أنفها، وكانت ترتدي أسمالًا.

كانت تجر جوالًا بلاستيكيًا كبيرًا وتدخل به إلى الشقة الوحيدة في الطابق السفلي وتغلق الباب.

لم يذكر أنه كان هناك سكان في شقة الطابق الأرضي قبل وفاة والدته، فلعلّها ساكنة جديدة. لكن مظهرها لا يوحي بأنها تستطيع دفع ثمن شقة في الدقي أو حتى دفع إيجارها. هل تسللت إلى تلك الشقة الخالية ووضعت يدها عليها غصبًا؟

عاد «رامز» إلى شقته وهو يستعيد منظر كفيها المتسختين، والفراشة الحمراء التي تفترش أنفها ووجنتيها. وحمة؟ يجوز.

أخرج باقي الصناديق ووضعها خارج شقته، وراح يفكر فيمن عساه أن يتصل به كي يأخذ تلك الأغراض. لم يجد في نفسه مقدرةً على فرزها وبيع ما يصلح لبيعه؛ فكل غرض منها كان مسكونًا بألف شبح وألف ذكرى.

الساعة الرابعة عصرًا، وعليه أن يغتسل ويُعِد «أمنية» لجلسة العلاج الكيماوي الأولى. على الرغم من عدم تفاؤل الأطباء فإن عليهم فعل شيء ما تجاه طفلة تُحتضر. كان رأيه الذي لم يبُح به هو أن يتركها تحيا في سلام ما تبقّى لها من عمر، فلا جدوى من تعذيبها بعلاجٍ لن ينفع، لكن «ناريمان» صرَّحت بأن عليهم أن يحاربوا إلى آخر نفس، وإن كان الموتُ مكتوبًا عليها، فلتمت شاهرةً سيفها.

أما «لمياء»، أم «أمنية» وطليقته، فلم يكُن لها رأي معين؛ فقد تململ زوجها من مرض الطفلة، وكان عليها أن تُعلي مصلحة الحي على مصلحة الميت. ألقت ابنتهما في حِجره لتصير مشكلته وحده، ودست هي رأسها كالنعامة في حفرة بيتها وزوجها وابنها الرضيع.

الحقُّ أن «رامز» كان وحيدًا؛ فحتى «ناريمان» وجودها لا يتعدَّى الاتصال عدة مرات عبر «ماسنجر»؛ فهجرتها مؤخرًا إلى أستراليا كانت القشة التي قصمت ظهره، ليس لسبب سوى أن وجودها كان يمنح تخبُّطَه مُبررًا. كل فشل كان بسبب نجاحها، كل إحباط كان بسبب

تفاؤلها. الآن صارت أفعاله لا مبرر لها سوى اختياراته وحده.

لو مات لانتهى كل شيء، كل الغضب، كل المسؤوليات، كل الإحساس المقيت بالذنب.

تمنى «رامز» الموت ولم يكن الموت أبدًا بالتمني.

* * *

مساء أول يوم لهما في بيت الجد القديم، سارت «أمنية» على أطراف أصابعها متلصصة على أبيها في حجرة مكتب جدها.

كانت نتائج فحوصاتها تفترش المكتب أمامه، وكان يحدق فيها بعينين حمراوين. لعدة مرات امتدت يده نحو سكين فتح الخطابات في جرابها الجلدي الأسود، ولعدة مرات أخرجها من غمدها وأطال النظر إليها، ثم أخيرًا طوّح بها في ركن الغرفة. غمغم شيئًا لم تتبينه لكنها شعرت بقشعريرة شديدة على أثره.

عادت إلى الصالة في خفّة وتمددت على البساط المترب، ونظرت إلى الثُريّا ذات الكريستالات المُعتِمة الضخمة لثوانٍ قبل أن تنقلب على بطنها، وتدُس وجهها في صوف السجادة الخشن.

فتحت عينًا وأغلقت الأخرى، وتخيلت أنها نملة تسير بين أحراش الصوف، تتفادى حبّات الرمال المتناثرة العملاقة وتدور من حولها.

قال الطبيب إنها مريضة، وإن كل ما تسبب لها من مشكلات مع زوج أمها كان بسبب ورمٍ في المخ.

لم تكُن تكره أمها ولم تكُن تحبها كذلك؛ فهي تعلم أنها هي وأخيها قد أتيا إلى الدنيا رغمًا عن إرادة أمهما. كانت تحبهما لكنها كذلك كانت تحب نفسها أكثر.

ولم يكُن «عمر»، زوج أمها، يحبها أو يكرهها كذلك؛ فقد كانت هي ضريبة اضطر إلى دفعها كي ينال أمها لا أكثر. وحين بدأت في الاعتلال

صرّح الرجل بأن الضريبة قد دُفعت ولن يدفع المزيد.

في الصباح الثاني لهما في منزل الجد، كان أبوها قد بدأ في التنظيف والترتيب، وكانت هي تحاول أن تتناسى حقيقة أن جلستها العلاجية الأولى ستبدأ خلال ساعات.

حاولت أن تحادث أباها لعل نجواهما تخفّف عنها قلقها، لكنه كان شاردًا، يفعل الشيء ثم يعيد فعله مرارًا وتكرارًا كآلة معطوبة.

عادت «آمنية» إلى حجرتها.. نظّارة الجد التي خبّأتها هي كنزها الرابع لهذا اليوم؛ فمن قبلها خبّأت صورة قديمة لخاتم ذهبي، وقدحًا مُزخرفة برسوم روميو وجولييت، وحقيبة يد صغيرة مزدانة بنقوش الأيتامين، وفي داخلها وجدت عدة أوراق نقدية من فئة الجنيهات العشرة.

لو أن «رامز» وجد كنزها لضربها وأفرغ توتره فيها، لكن رغبتها في الاحتماء بممتلكات خاصة بها لن ينزعها منها أحدٌ كانت أقوى من خوفها.

تساءلت عن مصير كل الألعاب التي تركتها في منزل أمها، التي لم يجد والدها فائدة لها سوى نثرها على الأرضيات والتعثُّر فيها جيئةً وذهابًا.

تقولُ «ماريا»، صديقتها من المدرسة: إن الأطباء يفتحون أجساد الناس وينزعون عنهم سرطاناتهم بسكين. وتقول عمتها «ناريمان»: إن العلاج الكيميائي يجعل السرطان يتقلّص حتى يصبح في حجم حبة الأرز ثم يختفي كما يختفي غزل البنات في فمها بعد لحظات.

كلا الادعاءين غامض مخيف بالنسبة لها، وكان الأكثر رعبًا بالنسبة لها هو وجود كيان دخيل في مخها. تتخيّله فأرًا أبيض صغيرًا يتلوّى هناك ويسبب لها الألم والقيء وكل تلك الأشياء التي تراها ولا يراها أحدٌ سواها.

حكت لأبيها مرة عن الفأر الأبيض، فقال لها إنه مجرد هلاوس..

هلاوس..

طلب منها «رامز» أن تستحم قبل أن يستعدا للذهاب إلى المستشفى. كان حائرًا يمسك حقيبة صغيرة ولا يعرف ما قد يحتاج إليه ليضعه فيها. يملؤها بالطعام ثم لا يجد مكانًا لطاقم ملابس إضافي، فيفرغها ويضع الملابس ويحشر بجوارها علبتي عصير فلا ينغلق السحَّاب.

شعرت «أمنية» بشفقة تِجاهه، وأغلقت خلفها باب الحمام. سمعت أصواتَ جرْ من المسقط، تبعتها رائحة شيء يحترق. كانت قد اعتادت الروائح الغريبة التي لا يشمها سواها، لكن اليوم شمَّ أبوها الرائحة العَفِنة المنتشرة في غرفة النوم. لو كانت رائحة الحريق حقيقية سيشمها أبوها ويتحرَّى الأمر. لا داعي لأن تُعرِّض نفسها لتلك النظرة المشفقة التي يرمقها بها كل مَن يسمعها تدَّعي سماع شيء ما غير موجود أو رؤيته.

بعد أن انتهت من حمامها، لم تجد ملابسها التي كان أبوها قد علَّقها خلف الباب. بحثت في كل مكان ولم تجدها. تدثرت في المنشفة وخرجت منتوية أن ترتدي ملابس أخرى من خزانتها ولا تخبر أباها فيضربها.

رآها «رامز» فانتزع ابتسامة من مجموعة التعبيرات سابقة التجهيز في عقله، وألصقها على وجهه وسألها:

- لِمَ لَمْ ترتدي ملابسك؟

- لم... أجدها.

- كيف وقد علقتُها بنفسي خلف الباب؟

دخل «رامز» الحمام وبحث في كل ركن ولم يجدها. تشمَّم الهواء لحظة قبل أن يتساءل عن مصدر رائحة الاحتراق، ثم نظر إلى ساعته

وصاح:

ـ ارتدي أي شيء آخر، سنتأخر.

كانت «أمنية» معتادة ارتداء ملابسها وتصفيف شعرها الذهبي المموّج بنفسها، معتادة حل مشكلاتها وتهدئة نفسها وتخيُّل كون ملون يحتضنها ويهدهدها، ولم تكُن تعيسة لهذا السبب؛ فقد كان ما يأكل روحها الآن هو خوفها من أن يلتهم الفأر مخها فتفقد الرفيق الذي لم يتخلَّ عنها قط.. خيالها.

انحنت لتخرج حذاءها من تحت الفراش لترى نظارة الجد فوق ملابسها التي كان أبوها قد علقها لها في الحمام. مدت يدها وسحبت الحذاء سريعًا، ثم أحكمت غلق باب حجرتها خلفها.

* * *

شعرت «أمنية» بالنعاس وهي تجيل نظرها حولها، لترى عددًا آخر من الأطفال يعلقون أكياس العلاج الكيميائي تُفرغ محتواها في أجسادهم.

منهم من كان نائمًا، أو يتشاغل بمشاهدة ما يُعرض على التلفاز. أما «رامز» فكان يوليها ظهره ناظرًا عبر النافذة الكبيرة. من حين لآخر كان يلتفت إليها مبتسمًا ويربت على كفها، ثم يعود إلى شروده. رنَّ هاتفه المحمول فسمعته «أمنية» يتحدث إلى أمها. انعقدت معدتها وتمنّت ألّا تطلب أن تُحادثها، لكنها وجدت الهاتف في كفها و«رامز» يهمس:

ـ ماما تريد الحديث معك.

ـ ماما.. أنا بخير.. لا.. نعم.. لا.. حسنًا.. بابا معكِ.

كان صوتُ «لمياء» متوترًا، ولم تقدِّم مكالمتها أي عون لـ«أمنية»، بل زادت من شعورها بكونها عبئًا، يُحادثها الناس ويعتنون بها كي لا يلومهم أحد.

على الكرسي المقابل لها، رأت مراهقًا، تحيط أمُّه كتفيه بذراعها وتقرأ

له من رواية سميكة وهو مغمض العينين، مُتحرِّز من غطاء رأسه الصوفي.

ضيَّقت «أمنية» عينيها كي تستطيع تبين اسم الرواية ذات الغلاف اللامع، فرفعت الأم عينيها عن الصفحات ونظرت لها باسمة وقالت:

ـ حبيبتي، هل أقرأ لكِ؟

هزت «أمنية» رأسها نافية قبل أن يلتفت «رامز» وينظر إلى السيدة وابنها مستنكرًا.

ـ أنا «فاطمة»، هذا ابني «إسلام».. ما اسم الصغيرة؟

ـ أهلًا بكما.

تحاشى «رامز» أن يعرِّفهما بنفسه أو بابنته وتشاغل بفتح علبة الزبادي والبحث عن الملعقة الصغيرة في الحقيبة. أخرج «إسلام» ملعقة بلاستيكية جديدة من حقيبته ومد بها يده نحوهما وقال:

ـ عمي، هاك ملعقة جديدة، لا تقلق. عمومًا استخدام ملاعق بلاستيكية أفضل؛ فالمعدنية ستزيد من الطعم المُر الذي ربما تشعر به لاحقًا بعد الجلسة.

مدَّ «رامز» يده وأخذ الملعقة شاكرًا. ابتسم «إسلام» لـ«أمنية» فابتسمت وبدأت في تناول الزبادي شاردةً حتى غلبها النوم دقائق، ووجدت بعد استيقاظها أن «إسلام» و«فاطمة» قد رحلا، وتركا لها الرواية.

كان «رامز» لا يزال مُحدقًا في سماء الليل خارج النافذة حين رأت «أمنية» أن ظلَّه على الحائط مُجسم، وكأنما نسخة منه من الفحم تقف جوراه، مُتكسِّرة على زوايا الجدار.

أغلقت «أمنية» عينيها وغاصت في نوم أعمق مِمَّا توقعت.

***

لم ينَم «رامز»، وظلّ يحدّق في السقف؛ حيث لا يرى ما ترك أبوه وأمه في كل ركن حوله، حتى بعد تخلصه من أغلب حاجياتهما.

فكر أنه ما زال عليه أن يرتّب الشقة، ويتخلّص من باقي الذكريات في الأدراج وعلى المشاجب وأعلى الخزانات. قام إلى الحمام وقبل أن يغلق بابه خلفه، شم رائحة احتراق بدت له وكأنّ منبعها المسقط.

خطا فوق المرحاض وفتح النافذة فتساقطت قشور من الطلاء وبراز الفئران. كان الدور الأرضي من المسقط مسقوفًا بشبكةٍ من السلك القوي، ترقد عليه أكوام من القمامة التي لا يعرف كيف ألقاها سكان منطقةٍ راقيةٍ كهذه في مسقط عمارتهم. من بين الأكياس والأوراق رأى «رامز» ضوءًا كهربيًا وسمع صوت أغنية لـ«داليدا» بصوت منخفض. تأكد «رامز» من أن رائحة الاحتراق قادمة من الأسفل، لكن ما أثار غضبه هو القمامة المكوّمة على بُعدِ أقل من مترٍ ونصف المتر أسفل نافذته.

خرج «رامز» من الحمام دون أن يقضي حاجته، وارتدى بنطالًا وشترة، عازمًا على الشجار مع ساكنة الطابق الأرضي غريبة الأطوار.

بمجرد أن خطا خارجًا من الشقة، وجد أن الصناديق التي كانت تحوي حاجيات والديه قد اختفت. ربما جاء جامع القمامة وأخذها، زاد هذا الاستنتاج من غضبه، فمتى جاء؟ وكيف أخذ الصناديق دون استئذان؟

نزل الدَّرَج والدم يتدفق إلى أذنيه، وشرايين عُنقه تنبض. وقف أمام باب ساكنة الطابق الأرضي وقبل أن يدق بابها، سمع صوت بُكاء ضعيف على خلفية من صوت «أسمهان». تحوّل غضبه إلى خوف وهو يسمع صوت خطوات تقترب من الباب. صعد الدرجات سريعًا متعمدًا ألا يُصدر خُفّاه أي صوت. سمع صوت الباب بالأسفل يُفتح لثوانٍ، ثم أغلق. زفر واقفًا في الظلام، مُهتز الكفين، يحاول أن يدس المفتاح في الكالون، ثم سمع صوت سُعال من خلفه مباشرةً فأسقط المفتاح وشهق

حتى كاد يصرخ موقظًا البناية.

كانت جارته تقف خلفه تمامًا، تتدثر بشالٍ من الصوف، وتتوسط ملامحها الفراشة الحمراء التي أدرك «رامز» أنها ليست فراشة، وإنما نوعٌ من الطفح الجلدي. كانت عيناها محمرتين كأنما كانت تبكي وتفوح من ملابسها رائحة الاحتراق وروائح كيميائية لم يميزها. سألته السيدة بصوت رصين:

- هل كنت تريد شيئًا؟

- لا.. لا أريد شيئًا.

- كنت عند بابي منذ دقيقة. سمعت خطواتك.

- الحقيقة.. أنا «رامز»، ساكن جديد. أعني أن والديّ كانا يسكُنان هنا، وأنا...

- لا عليك، أعرف كل هذا.. تشرفنا.

قالت كلمتها الأخيرة بفرنسية سليمة وهي تحدّق في وجهه وتتفرّس في ملامحه، ثم استدارت باسمةً تنزل الدرجات ببطء وبلا صوت. تلاشى الغضب في نفس «رامز» وشعر بسخفه، كيف يلوم المرأة على قمامة قد ألقاها سكان البناية فوق سقفها؟ ماذا دهاه؟

تحسّس الأرض بحثًا عن المفتاح حين سمع صوت طرقاتٍ ثلاثٍ من داخل الشقة على الباب. ثلاث طرقات حاسمة سريعة واثقة أرسلت تيارًا كهربيًا في أعصابه فارتجف. فتح الباب وهو ينادي على ابنته لكنها لم تُجِب. كانت الشقة مظلمة تمامًا، فضغط أزرار الكهرباء جميعًا دون فائدة.

سار متعثرًا حتى وصل إلى حجرة «آمنية»، وتحسس الفراش حتى شعر بجسدها البارد المُمَدّد. قرب وجهه من وجهها ليشعر بأنفاسها، وكانت حية.

تنهَّد «رامز» وجلس أرضًا بجوار الفراش لدقائق، يضغط أعلى أنفه بإصبعين، ثم استلقى بجوار ابنته شاعرًا بالبرد والخوف والضعف.

* * *

على الرغم من اختلاف التوقيتات، فإن «أمنية» قد أمضت ليلتها مع عمتها «ناريمان» في حديثٍ عبر «واتساب». لم تُرد «أمنية» أن تتحدث، وفضّلت على ذلك الكتابة التي تستطيع أن تستر خلفها خوفها وخجلها.

بين الرسالة والأخرى، كانت ترفع «أمنية» عينيها إلى الحائط، فترى بُقعًا مُضيئة خلّفتها إضاءة شاشة المحمول على شبكيتها. وحين تعيد عينيها إلى الشاشة تجد رسالة جديدة من عمتها، فيفلت قلبها دقتين فرحًا وفضولًا.

سمعت خطوات أبيها في الصالة قَبيل الفجر، ثم رأت ضوء الحمام يتسلل إليها من تحت باب حجرتها المغلق. علمت أن أباها قد نزل من الشقة. رفعت عينيها عن المحمول لترى الحائط وملصقًا لصورة الكعبة حال لونه، وجوار الملصق رأت ظلًا أسودَ مُجسمًا يقترب منها ببطء. أغلقت عينيها وفركتهما بأصابعها، وحين أعادت فتحهما كان رأسه مُلاصقًا لوجهها، وانقطع التيار الكهربي وأظلمت الحجرة.

تحسّست مكان هاتفها المحمول فلم تجده. ظلت تنقل يديها في جنون في أرجاء الفراش حتى وجدته. ضغطت على زر إنارة الشاشة، لكنها كانت معتمة تمامًا، ولم تفلح محاولتها لإعادة تشغيله.

نادت على أبيها عدة مرات بصوتٍ مرتجِف مبحوحٍ باكٍ. تذكرت أول مرة رأت فيها وجه دميتها يتغيّر ونادت على أمها. كانت مشغولة في شيء لم تعُد تذكره، لكنها تذكر جيدًا أنها كانت حانقة لمقاطعتها ما كانت تفعل. لم تصدق أمها أنها رأت ما رأته فعلًا، وقنَعت «أمنية» بأنها ترى كل هذا رغبةً منها في لفت النظر كما سمعت صديقة لأُمها تقول.

سمعت ورأت وشمت مئات الأشياء بعدها، وفي كل مرة كانت تُلام لغيرتها من أخيها الصغير. حتى شُخِّصت حالتها بورم في المخ.

مدت يديها الصغيرتين أمامها تتحسس طريقها، فاصطدمت كفاها بجسم صلب حار وشعرت بأناملها تتعفر بمادة كالتراب وفاحت رائحة تَحلُّلٍ لا تُطاق. صرخت ودحرجت جسدها على الفراش كي تنزل من الجهة الأخرى، بعيدًا عن الشيء ذي الرائحة العفنة. سارت وهي تنهنه تجاه باب الشقة، وقبل أن تصل إليه سمعت ثلاث طرقات كادت تصيبها بالصمم، ولم يكُن مصدرها من خارج الشقة.

ثم سمعت أباها يُنادي، فصرخت، ولم يبدُ أنه قد سمعها.

فتح باب الشقة بمفتاحه فهرعت تجاهه تناديه، لم يرَها ولم يشعر بها وكأنها في عالم آخر.

تبعته حتى وصل إلى حجرتها، ولم يكُن الكيان الأسود هناك. فقط رأت نفسها ممددة على الفراش والفأر الأبيض ينهش شعرها ويبعثره على الوسادة. صرخت تُنبِه أباها لكنه لم يسمعها. ظلت في ركنها تصرخ حتى انهارت جالسة وهي ترى أباها يحتضن «أمنية» الأخرى وينام دامع العينين.

***

جاء الحاج «منصور»، جد «أمنية» لأمها، لزيارتها في الصباح، ولم يكلف أبوها نفسه عبء استقباله كما ينبغي. ظل يكوم محتويات «النيش» في صناديق كرتونية شارد الذهن، بينما جلس الرجل المُسن ممسكًا بدمية قماشية وردية الشعر، ينظر إلى الأرض في حرج، في انتظار أن يجد موضوعًا لبدء الحديث دون الدخول في علاقة «رامز» و«لمياء»، أو ذِكر مرض «أمنية»، أو مناقشة الحالة المادية والنفسية المُتردية لـ«رامز».

راقبت «أمنية» جلسة الرجل من خلف باب حجرتها. كانت أحداث

الليلة الماضية المُرهبة ما زالت تتكرر في عقلها كأغنية تأبى مغادرة اللاوعي على الرغم من سخافتها. لقد عاصرت «أمنية» هلاوس أشد رعبًا، لكن سرعان ما كان يتبخر مذاقها المُر وتبقى منها أحداث بعيدة مُسالمة تجترها «أمنية» أحيانًا لتشعر بقوة انتصارها على الأوهام.

تنحنح الجد وهمس:

- وكيف حالك يا «رامز»؟

- كما ترى.

- الحمد لله على كل شيء. كنتُ أقترح أن أصطحب أنا «أمنية» لجلستها المقبلة.

- صعب. أفضّل أن أصحبها أنا، أليس هذا ما تريدونه؟ أن أتحمل كل شيء؟

صمت الرجل وهو يجيل عينين خجلتين في المكان المُترب، ثم أضاف:

- أين «أمنية»؟

- في حُجرتها.

خرجت «أمنية» وهي تشير بكفها إلى جدها، في محاولةٍ منها لوأد تصاعد الحوار بينه وبين أبيها، كانت تعلم أن الجد حليم ولن تسرَّ أحدًا غضبته من بعد حِلم.

احتضنها العجوز وأعطاها الدمية باسمًا. جلست على فخذه وهي تفكر فيما يجب عليها أن تقوله بعد شكره.

- لننزل لشراء الحلوى، ما رأيك يا «أمنية»؟

أغلق «رامز» ضلفة النيش في عصبية ونظر إليه في برود قائلًا:

- الحلوى ممنوعة يا حاج.

- لكن الخروج مع جدها مسموح بكل تأكيد يا «رامز».

قبض الجد على كف «أمنية» وقادها نحو الباب وهو ما زال يحدّق في وجه «رامز». تقدم الأخير سريعًا ليمسك الكف الأخرى لابنته وهو يقول بتؤدة:

- ليس قبل أن تتناول إفطارها وتبدّل ملابسها.

- سأحضر لها إفطارًا يناسب حالتها، وملابسها مُلائمة يا «رامز». نصيحة، جِد من ينظّف لك شقتك؛ فالغبار أخطر عليها من قطعة حلوى يشتريها لها جدها.

جذب الحاج «منصور» «أمنية» في رفق، فأفلتها «رامز» ولمحته يركل الجدار خلفه. نزلت الدرجات ودميتها لا تزال في يدها. توقفت لحظاتٍ عند الباب المغلق في الدور الأرضي، وشمت رائحة الاحتراق مصحوبة بصوت أغنية أجنبية قديمة.

شردت «أمنية» فيما عساه أن يكون مصدر الرائحة، لكن قطع خاطرها رؤية سلة مهملات جوار الباب وقد فاضت بمحتوياتها التي كان أغلبها أوراقًا وبقايا أخشاب وأوراق نباتات جافة. وسط كل ذلك رأت أوراقًا قديمة كانت تعرف أن أباها قد تخلّص منها، لكنها الآن في سلة مهملات ساكنة الطابق السفلي.

ناداها جدها، فهرولت تتبعه، لكنها لم تكف عن التفكير فيما رأته.

* * *

نصف ساعة، يحاول أن يجد فيه «رامز» ما يلائم مزاجه من موسيقى. يسمع ثواني من كل أغنية ثم يُسارع إلى التي تليها، فالتي تليها. أغلق مُشغّل الأغاني على هاتفه المحمول وحاول أن يركّز طاقته في تفريغ «النيش» من محتوياته قبل أن تعود «أمنية» وجدها.

امتلأت الصناديق الورقية بالمحتويات المترَبة، وصارت غير قابلة

للنقل إلا جزًا وإلا ستنقطع قيعانها.

دون سبب حقيقي، رفع «رامز» صندوقًا بكل قوته فانهار القاع وتكسّرت الأطباق والأكواب على الأرض. راح يركلها ويفتتها حتى سوّاها بتراب الأرضية. غضبه لا يفرَغ مهما فعل، ولن يفرغ إلا إذا رأى الذعر على وجه كائن أضعف.. «أمنية»؟ لا.. مستحيل.. لن يفعلها مجددًا.

صوت تنبيه «واتساب» يغرس الأسلاك الكهربية في عقله مباشرة. لا يطيق الأصوات المفاجئة ولا يستطيع الخلاص منها إلا إذا أصيب بالصمم أو عاش وحيدًا في غياهب كهف أعلى قمة جبل.

صورة «ناريمان» مع كلبها على خلفية جبلية ما، وجنتاها محمرتان، وقد دست أمواج شعرها الفاتح في طوق شعر بلاستيكي، وخلفها صديقاتها بملابس البحر بألوان ملابس بابا نويل. كان احتفالا برأس السنة صيفًا في أستراليا، وهو تقليد لم يبتلعه أبدًا، لكنها ابتلعته حتى الثمالة.

فكر في ألا يرد، لكنه كان يتحاشى مكالمتها منذ أسابيع، وعليه أن ينتهي من إلحاحها في أقرب وقت.

جلس على صندوقٍ مغلق واستقبل المكالمة الصوتية. كان يعرف أنها تتحاشى أن تسأل أكثر من اللازم، ويتحاشى هو الحديث المُرسَل الذي يسحبه - غير مستعدٍّ - إلى عرض بحرٍ موحش.

تسأله عن «أمنية»، وتخبره أنها كانت تحدثها أمس حين انتهى شحن هاتف «أمنية» المحمول على الأغلب. يطمئنها أنها بخير وقد خرجت مع جدها.

تسأله:

- أنت وحدك؟

ـ أجل.

ـ في الشقة.. وحدك؟

ـ أجل.

ـ لأول مرة، هه؟

ـ أجل.

ـ وكيف... الأحوال؟ هل أنت بخير؟

ـ أجل.

ـ «رامز».. هل أنت بخير حقًّا؟ هل تخلصت من الـ... الأشياء.. كلها؟ لا أظنك ستتحمل تلك التفاصيل..

ـ أحاول.. تلك أشياء لن تنتهي، وعندما أتنفس الصعداء أخيرًا سأجد ورقة هنا أو ملعقة هناك نسيتها.. أعرف أن الخلاص من كل شيء حرفيًا مستحيل.

ـ وجدت مشتريًا لشقتك؟

ـ والسيارة.. معي ما يكفي لعلاج «أمنية»، فلا تعرضي عليّ مالًا. شكرًا.

ـ أفكر في أن أعود، ولو مؤقتًا، لأكون معكما.

ـ ألستِ خائفة؟

ـ صرت أكثر شجاعة.

ـ الشجاعة لا تقي من الخوف.

ـ عندك حق. لكنني لم أغد خائفة.. أعني: أشعر بالألم أكثر مِمَّا أشعر بالخوف.

ـ احترسي لنفسك وصحتك.

معلنًا انتهاء الحديث الشائك، أنهى «رامز» مكالمته وأحضر الجاروف والمكنسة كي يخفي جريرة غضبه.

* * *

سيدني ـ أستراليا

٢٠١٨م

تكوَّرت «ناريمان» على الكرسي الجلدي المريح في منزل دكتور «ويلارد»، وأمسكت بكفيها شايها الساخن وراحت تسمع حكاياته التي لا تنتهي.

قال «ويلارد» وهو يقلِّب السكر في فنجانه:

ـ ذكرتُ لكِ سابقًا أننا في الماضي كنا نعتنق معتقدات بدائية، مثلنا مثل باقي البشر في العالم. دعيني أحكِ لك قصة النار الأولى. يقولون في أغاني الأحلام عندنا: إن سكان السماء كانوا يُشعلون النيران من النجوم القريبة، وكان أن نزل اثنان منهم إلى الأرض في رحلة صيد حاملين معهما نيران النجوم، لكن النيران السماوية نشبت في أكوام الحطب وأشعلتها، وعرف البشر النار من يومها.

قابلت «ناريمان» دكتور ويلارد بيلمونت في المستشفى الذي تعمل به ممرضة منذ هجرتها إلى أستراليا. وكان دكتور «ويلارد» ـ طبيب الأطفال ـ الستيني ينحدر من السكان الأصليين لأستراليا، وظنته «ناريمان» أفريقيًا في لقائهما الأول. بالمصادفة اكتشفت كونهما جارين في المنطقة نفسها، ونمت بينها وبينه هو وزوجته اللطيفة «ليزا» علاقة طيبة دافئة تُذكِّرها دومًا أن البشر من أصل واحد، وأن أعتى الفروق تذوب أمام صوت التكييف وبرودته وأكواب الشاي والحكايات، خاصة ما يُسمى بأغاني الأحلام.

أكمل «ويلارد» حديثه قائلًا:

- أحكي لك تلك القصة وأريدك أن تتذكَّريها دومًا، من قبلنا نقلوا لنا نيرانًا، بها نحرق أنفسنا أو نعيد تشكيلها. لا يستطيع أحدٌ الهربَ من نيران متوارثة كاللعنة.

- حديثك يبث التفاؤل في نفسي.

ضحك «ويلارد» وجاءت «ليزا» حاملة صحفة عليها أطباق من الكعك تشاركهما الضحك، لكن «ويلارد» تبادل معها نظرة مع إشارة من يده فهمت منها أن جلسة اليوم خاصة بين طبيب ومريضته، ومرضاه من كل سن ولون، تائهين يتلقفهم بابا «ويلارد» في أمان صوته الرخيم وحكاياته الحانية. خرجت «ليزا» وأغلقت باب الحجرة خلفها وسأل «ويلارد»:

- اليوم عاد أخوك إلى شقة والديكما بعد.. خمسة أعوام؟

- ستة.. ستة أعوام..

- لماذا تشعرين بالخوف؟ ما الذي يمكن أن يحدث له هناك ويخيفك؟

- لست قلقة بشأنه، أنا قلقة بسبب... تعرف؟ كأنه قد فتح صندوق باندورا وأنا هنا أنتظر نصيبي من لعنتي.

- وما نصيبك من تلك اللعنة؟

- مجرد ذكريات يا «ويلارد».. ذكريات ظننتني تجاوزتها.

- إرث النار، هه؟

- نعم. إرث النار.

- أنتِ مسلمة، ما فكرتك عن الله؟ كيف ترينه؟

- شديد العقاب.. هذا أول ما جاء في عقلي.

ـ أبوك وأمك هما إلهاك الأولان، ومنهما تستقي رؤيتك لإلهك الحقيقي. ربما تكتشفين من خبراتك أن الله يختلف كثيرًا عنهما، لكنهما سيظلان بالنسبة لك ساكنَي السماء اللذين جاءا بالنار وتركاها وغادرا. هل تستطيعين أن تقفي في وجه النار مع «رامز»؟

ـ لا أظنني أريد «رامز» معي، لقد تخليت عنه، أو تخلى هو عني، لا أعرف ولا أذكر كيف بدأت الحواجز بيننا.. لكنني مستعدة لمواجهة النار. أفكر في العودة إلى مصر.

ـ ما خطتك؟

ـ لا شيء.. أريد أن يحدث لي ما سوف يحدث في أقرب وقت، لو أن اللعنة تحررت فلتصبني الآن، لن أتحمل الانتظار.

ـ ولِمَ تظنين أن هناك لعنة تحررت من الأساس؟

ـ ربما لأنني أمضيت عمري أنتظر العقاب على جُرم لا أعرف عنه شيئًا! ربما لأن موت أمي حرر شيئًا ما ظل حبيسًا حتى عاد «رامز» وفتح الشقة! كلام بلا معنى، أليس كذلك؟

لم تكُن تلك جلسة علاج بالطبع؛ فلم تعُد «ناريمان» طفلة، لكن «ويلارد» يشع بالأبوة الخالصة وظلت أعوامًا تقاوم السقوط في براثن تلك المشاعر، ألّا تنخدع في «أب» مجددًا، لكن «رامز» عاد إلى الشقة، «رامز» فتح الصندوق، وعليها أن تجد من تركن إليه.

ـ «ويلارد».. أتؤمن بالأشباح؟

ـ كلا، لكني أومن أن بعض الموتى لا يرحلون.

ـ والدي لم يرحل.

ـ أعرف.

طرقت «ليزا» على باب الحجرة ثلاث طرقات قبل أن تفتح الباب، فانتفض جسد «ناريمان» فزعًا وانسكب الشاي على مسند الكرسي. لم

تستطِع أبدًا فهم السبب من تمسُّك الناس بالطرق ثلاثًا على الأبواب. ألا تكفي طرقة أو اثنتان.. أو أربع؟!

لاحظ «ويلارد» اضطراب «ناريمان»، لكنه لم يجد الوقت مناسبًا لحديثٍ أطول، خاصة أن «ليزا» أخبرته أن هناك من يطلبه من المستشفى على هاتفه المحمول الذي تركه خارج الحجرة.

كوَّمت «ناريمان» المناديل الورقية على مسند المقعد وهي تعتذر بشكل مبالغ فيه حتى انتهى بها الأمر إلى البكاء بين ذراعي «ليزا» السمينتين. كانت خائفة ولن تجد من يفهم خوفها إلا «رامز». لكن خوفها سيخيفه. يكفيه ما فوق كتفيه الآن.

***

شقة صغيرة بألوان صريحة وأثاث عملي قليل. هذا كل ما تملكه «ناريمان» في أستراليا، وكل ما استطاعت توفيره من مالِ مؤخَّر طلاقها بعد مصاريف الهجرة. كانت في آخر العالم، تحيا حياة جديدة تمامًا بلا ماضٍ، حياة هادئة تستطيع التنبُّؤ بأحداثها لمدة عشرة أعوام قادمة دون أخطاء تُذكر. مجرد تكرار للأعوام السبعة الماضية دون زيادة أو نقصان.

لكن «رامز» عاد إلى الشقة..

أستراليا، أبعد نقطة عن مصر استطاعت أن تصل إليها، وتمنَّت لو أن السفر إلى خارج المجرة ممكن، لهاجرت إلى أطراف الكون دون تفكير. لم يعُد هناك شيء يُذكِّرها بـ«ناريمان» مصر، طفلة أبيها المدللة أحيانًا، والمطحونة دومًا.

في أستراليا، يأتي يناير في الصيف، ويدور الماء في البالوعة بشكل معاكس لما يفعله في مصر، تترك نفسها على طبيعتها وتحيا كما يحيون في عالم المرآة المعكوس هذا.

لكن «أمنية» ترى جدها..

تعرف أن الأطفال الوحيدين أو المضطربين يخلقون صديقًا خياليًا، و«أمنية» ـ على الرغم من سنها التي تجاوزت الثانية عشرة ـ طفلة.. ووحيدة.. ومضطربة.. ومريضة.

ربما أثارت فيها الحياة في شقة الجد خيالات عنه مبنية على ما حكته «ناريمان» نفسها لـ«أمنية» وهي طفلة. تعلم أن «أمنية» تعاني هلاوس بصرية وسمعية مؤخرًا. تعلم أن هناك تفسيرات منطقية وعلمية لكن عقلها يأبى إلا أن يعدو مذعورًا فارًا من الشقة وساكنيها وما حدث فيها.

من أيام، لاحظ «ويلارد» أنها شاردة وعصبية، وكان رفيقها في رحلة هروبها منذ أعوام، وكانت تظن أنها انتصرت وسامحت ونسيت.. لكنها كانت مخطئة.

قال لها يومها:

ـ لنتناول العشاء معًا في منزلي.

ـ لا أريد إزعاجك.

ـ أريد الحديث معكِ.. أعرف ما مررت به حسب حكايتك، وأعلم أنك، للأسف بدأتِ علاجك الذاتي بالقرص الأخير. كنت تظنين أنك سامحتِ ونسيتِ، وما حدث هو أنكِ نجحتِ في بناء جدار سميك يخفي عنك الماضي لا أكثر. عليك أن تبدئي من البداية، بقرص الدواء الأول.. وقتها سيكون بينك وبين الماضي نافذة زجاجية.. ترينه ولا تتأثرين به، بل وتُخرجين له لسانك انتصارًا عالمةً بأنه يراك ولا يملك نحوك أذى.

«رامز» عاد إلى الشقة و«أمنية» ترى جدها، هل هناك وقت للعلاج؟ هل لديها متسع للعودة خطوات للخلف والخوض في خفر الدم والصديد، أم أن الفرار للأمام هو الحل بغض النظر عن النتائج؟

لن تتصل بـ«رامز» مجددًا؛ فمرة كل بضعة أيام تكفي. تعرف أنه لم يسامحها ولم يغفر لها، لكنه يتعايش. دائمًا ما يقدر «رامز» على التعايش والتلون ويتقن فنون دفن الرأس في الرمال والانبطاح حتى تمر العاصفة.. وكل ذلك مؤلم.. مؤلم لكليهما.

جلست في المطبخ كعادتها تنهي بعض الأعمال الورقية حين سمعت ثلاث طرقات على باب شقتها. راح قلبها يدق بعنف وهي تسير حافيةً إلى الباب، لِمَ لا يستخدم الطارقُ الجرس؟ فتحت الباب في عصبية ولم يكُن خلفه أحد.

أغلقت الباب وعادت إلى طاولتها، لتجد أثر خُفين صغيرين مبتلين على الأرض تحت الكرسي، كأن هناك من يجلس مكانها. ركلت الكرسي فتحرك جانبًا بصوت عالٍ. لم يتحرك الأثر، لكنه راح يخفت بتَبَخُّر الماء تدريجيًا حتى اختفى.

* * *

لم يكُن «منصور» قادرًا على الصعود مرة أخرى ومواجهة «رامز» مجددًا، يكفيه الاستقبال المُهين. الجمعة المقبل سيجد طريقةً أخرى لرؤية حفيدته، أو حجة لعدم رؤيتها.

وقف «منصور» أمام البناية وقبّل «أمنية» قائلًا:

- هيا اصعدي..

- سأفعل، اذهب أنت يا جدو لا تقلق.. سلام.

أمام عينيه، اختفت «أمنية» في المدخل وسمع صوت خطواتها تصعد السلم جريًا. تنهد وركب سيارته مبتعدًا.

وقفت «أمنية» عند باب الشقة، وألصقت أذنها بالباب. لم يكُن هناك أي صوت يدل على أن أباها بالقرب من الباب أو أنه سمع صوت خطواتها.

نزلت الدرجات ببطء وحذر حتى وصلت عند باب الشقة الوحيدة في الطابق الأرضي. مدت يدها وفتحت كيس القمامة الأسود عند العتبة وأنارت كشاف هاتفها المحمول وراحت تحدّق في المحتويات. كل شيء تخلّص منه أبوها كان داخل ذلك الكيس، وكل شيء كان مقصوصًا أو مكسورًا أو ينقصه بعض الأجزاء. أزرار سترة جدها البيضاء غير موجودة، تماثيل صغيرة مقطوعة الرؤوس، ساعات يد تنقصها العقارب الدقيقة والواجهة الزجاجية.. كل شيء كان مبتورًا أو مذبوحًا بشكل أو بآخر.

انقطع الضوء القادم من المدخل فنظرت «أمنية» أمامها لتجد سيدة أكبر من أبيها ببضعة أعوام، أنفها ووجنتاها حمراء، وكانت جميلة كجنيات القصص المصورة.

- أتريدين حلوى؟

كانت السيدة تبتسم.. في عفوية وبراءة تبتسم وكأنها لم تتعجب ممَّا تفعله «أمنية» ولا يعنيها في شيء.

- لا شكرًا.. آسفة.. أعتقد أنني رأيت بعض تماثيل جدتي في الكيس، تماثيل تشبهها طبعًا، لِمَ قد تكون تماثيل جدتي في كيس قمامتك؟

- هي تماثيل جدتك يا قطتي، وقد وجدت أن أباك قد تخلص منها في القمامة.. أبوك هو، أليس كذلك؟

- نعم.. أبي.

- وجدت أنه لا يريدها فأخذت منها أجزاء أحتاج إليها. ها، هل تريدين حلوى؟

- شكرًا.. لا بد أن أصعد.

- يمكنك أن تزوريني أي وقت.

ابتسمت «أمنية» ابتسامة مرتجفة، وصعدت الدرجات ببطء وهي

تراقب من خلف كتفها السيدة ذات الفراشة وهي تجر أصص نباتات جافة وتُدخِلها إلى شقتها التي تفوح برائحة الاحتراق والفانيليا والبرتقال. رائحة داعبت روح «أمنية» فابتسمت رغمًا عنها، وأكملت صعود الدرجات سريعًا كي لا تسقط في أحضان رائحة الدفء تلك.

***

خرج «رامز» من الحمام وهو يعيد تجفيف شعره بالفوطة؛ فهو يكره انزلاق قطرات الماء على ظهره بعد أن يظن أنه قد جف تمامًا. شيء أبيض صغير يجري خارج حجرة «أمنية». ثوانٍ أمضاها ثابتًا كتمثالٍ حتى أدرك أن ما رآه هو فأر أبيض كفأر المعامل!

ألقى بالفوطة على الغسالة، خطا خطوتين نحو المِمسحة، ثم عاد وعلَّق الفوطة مفرودة متساوية الطرفين. أخذ الممسحة وراح ينظر حوله ويضرب بها تحت المقاعد والخزائن. لم يكُن ثَمَّةَ صوت يدل على وجود فأر، لكن قد يكون هذا دليلًا أيضًا على وجوده وكُمُونِه في ركنٍ ما. لكنْ ما الذي فتح باب حجرة «أمنية» من الأساس؟ لعلها عادت؟ كيف دخلت؟

خطا إلى داخل الغرفة المظلمة، «أمنية» جالسة تحت النافذة مباشرةً، والضوء يعبر من فوقها. كانت تحتضن ركبتيها وتبكي.

- «أمنية»، لا تخافي.. مجرد فأر. كيف دخلتِ؟ هل كان باب الشقة مفتوحًا؟

لم ترد «أمنية» وظلت تخفي وجهها وتبكي. لم يعرف «رامز» سرَّ قلقه من الفتاة التي ترتدي ملابس ابنته وتبدو مثلها. اقترب خطوتين ثم سمع طرقات على باب الشقة.

وجد «أمنية» خلف الباب تضم ساقيها وتتقافز أمامه:

- بابا، أفسح لي، أريد الحمام.

دخلت «أمنية» عذوًا وأغلقت باب الحمام خلفها. نظر «رامز» داخل حجرتها ولم تكن هناك «أمنية» أخرى تحت النافذة.

* * *

قبل أن تضغط «أمنية» زر الطرد في الحمام، وقفت بحرص على المرحاض المغلق وأطلت برأسها من النافذة الصغيرة محاذرةً أن تمس براز الفئران الملتصق على إفريزها. كانت ترى أكياس القمامة فوق حديد التسليح المكشوف، ومن بين الفُرجات رأت النباتات الجافة وقد اقتلِعت من أصصها ورُصت جنبًا إلى جنب على الأرض. رائحة كيكة البرتقال تزكم أنفها، لكنها كانت تريد أن ترى المرأة مرة أخرى، أن تتفحصها دون أن تُحرجها أو تُضايقها.

صوت أغنية قديمة لا تعرفها تصدح، كل الأشياء القديمة جميلة، وقد فقدت قدرتها للأبد على الإيذاء.

ضغطت زر الطرد، وغسلت يديها وجففتهما، وقبل أن تخرج أعادت النظر إلى المنشفة كي تتأكد أنها لم تحركها من الموضع والوضعية اللذين اختارهما أبوها لها.

رأت أباها يدقق النظر تحت الأرائك حين لمحها. وكان يريد أن ينتهي هذا الفصل المُحيّر من اليوم في أسرع وقت. قام لتحضير الغداء بينما دخلت «أمنية» حجرتها لتغيّر ملابسها فوجدت الرواية التي تركها لها زميل المرض على السرير وفوقها نظارة جدها. لم تكُن قد قرأت منها شيئًا، فمدت يدها مترددةً إليها، فتحتها وارتدت نظارة الجد وبدأت في القراءة بصوته الأجش.. وعلى الرغم من تعجبها، فإن صوتًا آخر يؤنس وحدتها كان كل ما تبغي.

* * *

من خلال عمل «ناريمان» في التمريض، علِمت أن بعض الأطفال يأتون إلى المستشفى بعلّتين، ويرحلون بعلّة واحدة. بعض الأمراض لا

ثشفى، فلا يجرؤ طفل على الشكوى من أبويه؛ فهما مبعث النَّار، مصدر الدفء أو الاحتراق.

لكنها في مرة واحدة جرؤت وطلبت المُساعدة، وتلك المرة لم تُسفر إلا عن كارثة عاناها أخوها حتى الآن، لكن في الوقت نفسه، تلك المرة هي ما شكّلت الإصرار والعزم اللذين يقفان خلف قرارات «ناريمان» الثورية.

لم يكُن أحد يدخل بيتهم أبدًا، لا أصدقاء، لا أقارب، لا أحد.. خالاتها وجدّاها لأمها لم يكونوا سوى صور في ألبومٍ مخفي تحت الملابس، لم تشاهد محتواه إلا خِلسة.

كل شيء اعتادت أن تفعله خِلسة، وإلا فلن تفعل شيئًا مُطلقًا.

اعتادت أن تراقب جيرانهم وهي لا تفهم بعدُ سرّ أن يكون لجارتهم الشقراء الصغيرة أيوان، ولم يكُن أبوها يجيبها عن سؤال: أيهما أبو «بريجيت»؟ فقط يقارن بين نفسه وأسرته، وبين «حسين» الذي أساء اختيار الزوجة وتربية الابنة. عندما كان يتحدث أبوها عن مدى سوء الآخرين وعن مدى براعة اختياراته وإدارة حياته، كانت أمها تشعر بالفرح وكأنه يمتدحها، وكذا كانت تشعر «ناريمان». أبي راضٍ عني، إذًا فأنا إنسان مقبول محبوب.

ثم ترى «بريجيت» وتتساءل، لماذا يحبها أبوها وذلك الأجنبي الذي يزورهما؟ هل «بريجيت» مُطيعة؟ هل يُحبانها فعلًا على الرغم من كونها مزعجة صاخبة ترن ضحكاتها عبر مسقط العمارة لتثير ضيق أبيها؟

تضحك «بريجيت» بصوت عالٍ، تُخفض «ناريمان» صوت ضحكها وهي تراقب علامات الاستحسان على وجه أبيها.

تحسب نقطة لنفسها فتشعر بأمان يدوم شهورًا، أو دقائق.

وكذا كانت تفعل أمها، تمضي جل يومها مُحدقة في قسماته، تنتظر

في توجس بدايات ثوراته غير المبررة، وتبدأ في تدليله والإغداق عليه بكل ما تملك حتى يهدأ ويعفو عنهم يومًا آخر.

أحيانًا ما كانت تفلح حيلة أمها، وغالبًا ما كانت تفشل، فتلوم الأخيرة نفسها لأيام على غبائها وسوء تصرفها.

أما «رامز»، فبدأت مشكلاته مع أبيه في أثناء فترة سفرهم للخليج.

طُرِد أبوها من عمله بسبب قضية تورُّطه في تهريب عُملة، لم يخبرهم أبوهما بذلك أبدًا، لكنها علمت بعد وفاته بأعوام. وعندما حُرم من الطيران للأبد، أوجد له معارفه فرصة عمل في شركة سياحية في الخارج، وهنا بدأ أبوها في التغيُّر، ورأت «ناريمان» لأول مرة قرين أبيها.

تذكر هذا اليوم جيدًا..

كانوا يعيشون في شقة واسعة مُكيفة في منطقة صحراوية قاحلة، تتناثر فيها المباني الحديثة المُتجهمة المصفرة، فلا شيء يمكن رؤيته من خلال النوافذ، ولا مكان للذهاب إليه.

عادت من المدرسة هي و«رامز» مع والدتهما، وكانت في الصف الأول الابتدائي و«رامز» في الحضانة. لم يكُن أبوهما قد عاد، وانشغلت الأم في الطبخ بعد أن أنامت «رامز» كي لا يزعجها.

الجو خانق على الرغم من التكييف، الملل يقتلها، عبء الغد والذهاب إلى مدرسة لا تعرف فيها أحدًا ولا تفقه لكنة مُدرسيها ولا طُلابها يثقل روحها الصغيرة الشغوف.

وهنا بزغ أمل تسلية وإرواء للفضول؛ فقد كان باب حجرة مكتب أبيها مُواربًا، ويبدو أنه قد نسي إحكام إغلاقه. تصرُّف غير مألوف منه أبدًا، لكنها لم تفكر في شيء سوى الفرصة السانحة أمامها لتفقُّد كل الغوامض الممنوعة عنها.

تسللت وأغلقت خلفها الباب، وراحت تنظر حولها في دهشة وانبهار؛ فكل شيء في عالم الكبار بالنسبة لها عملاق بزاق طازج.

الحجرة واسعة، يتسلل من خلف ستائرها ضوء الظهيرة. سجادة صلاة مطوية على مسند الأريكة.. مشجب مُعلق فوقه سترة بيضاء أنيقة.. تماثيل صغيرة لنساء عاريات أدهشتها تفاصيلها.. ملصقات ملونة عليها صور مناطق سياحية مُبهرة تحمل اسم الشركة التي يعمل فيها.

طافت «ناريمان» حول أرجاء الحجرة كأنما تطوف بمتحف.

ثم أظلمت الحجرة وانقطع النور الداخل عبر الستائر. نظرت جانبًا فرأت أباها، سقطت الملصقات من بين يديها وتسرَّب البول على فخذيها.

لم يضربها أبوها قط، ولم تره يضرب أمها أو أخاها من قبل، لكن ما يفعله معهم كان أكثر قسوة من أي عقاب بدني. أن تنام وهو راضٍ وتستيقظ على لوم وحرمان من أبسط ما يحتاج إليه المرء: أن يفهم ماذا فعل ويستأهل عليه العقاب.

ستة أعوام ونصف العام ناورته فيها بمهارة فطرية، وكانت بالنسبة له الابنة الذهبية التي يشرفه اصطحابها معه في كل مكان. ذكية، جميلة، لبقة، مؤدبة.. دمية مصنوعة حسب الطلب. لكن الآن كل شيء تداعى على رأسها.. الآن، «ناريمان» مُتلصصة وتستأهل عقابًا يتناسب مع كل ما اقترفته من أفعال من وراء ظهر أبيها وأفلتت بها.

الضوء القادم من خلفه لم يمكنها من رؤية ملامحه كاملة، لكن وزنه كان أقل، أكثر وسامة، وقد اختفى البطن الصغير الذي ظهر لديه بعد تركه عمله السابق.

انحنى وجمع الملصقات ووضعها فوق خزانة عالية، ثم قال بصوت لا إحساس فيه:

- خيَّبتِ أملي.

انتظرت أن يقول شيئًا آخر، لكنه لم يفعل. خرجت من الحجرة ولم تفكر مرتين قبل أن تذهب إلى الحمام وتنظف نفسها دون أن تُخبر أحدًا، ثم أخذت ملابسها المُتسخة وتخلصت منها من النافذة. حلقة أخرى من سلسلة الكذبات الصغيرة التي لن تنتهي، فلا يستمع أحدٌ لمبرراتها أبدًا ولا تجد سوى العقاب إن قالت الحقيقة.

خرجت وتأكدت أن أمها ما زالت في المطبخ، توجّهت نحو حجرة أبيها مجددًا لتتقصى مدى سوء رد فعله، لكنه لم يكن هناك. لم يكُن سوى «رامز» الذي استيقظ فوجد الباب مفتوحًا وقرر الاستكشاف قليلًا.

في تؤدة، ذهبت إلى أمها وسألتها:

- أين أبي؟

- في العمل، ما زال أمامه ساعتان حتى يعود. لِمَ تسألين؟ جائعة؟

- كلا.. فقط أسأل.

ثم سمعتا صوت شيء ثقيل يُهشم وبُكاء «رامز». هرولت أمها نحو مصدر الصوت لتجد الصغير جالسًا على الأرض وقد جذب مفرش المنضدة فسقط بحمله فوقه. وعلى بعد نصف متر منه، تبقع البساط بالبول.

تراجعت «ناريمان» إلى ركن خارج الحجرة، وقررت أن تصمت في أثناء لوم أمها «رامز». كانت تلومه وهي على شفا الانهيار، فما حدث سيعود عقابه عليها مُضاعفًا.

ظلت تبكي وهي تنظف البساط وتُعيد كل شيء مكانه، حتى احترق الطعام. لطمت خديها ثم فرغت من كل طاقتها، وجلست إلى المنضدة واضعةً أمامها زجاجة الصمغ وبقايا تمثالٍ مهشم.

في تمام الثالثة والنصف، عاد «عادل»، وعرف ما حدث. احتضن زوجته وأخبرها ألّا شيء يستأهل الغضب، وعاتبها على صراخها في «رامز».

جلس الجميع أمام فيلم فيديو يضحكون، لكن «ناريمان» استأذنت لتنام، أغلقت حجرتها هي و«رامز» على نفسها وظلت تفكر فيما رأته. كانت خائفة ورسا في نفسها أنها رأت شبحًا، أو تخيلت ما حدث. كان الاحتمال الأول مُخيفًا، ولم تقتنع بالثاني.

بعد ساعة، تسلّق «رامز» سُلم فراشه الذي يعلو فراشها. بعد دقائق دخل أبوهما. جلس على طرف الفراش في الظلام، وتبيّنت «ناريمان» أنه هو أبوها، وليس الآخر الذي لاقته صباحًا.

قال «عادل» في رفق:

- مَن تسلل إلى حجرتي؟

صمت الطفلان، وراح قلب «ناريمان» يدق بعنف حتى كادت تفقد الوعي. أمها لم تجد مصدرًا لبقعة البول، فـ«رامز» لم يكُن مُبللًا، معنى هذا أن «ناريمان» قد تسللت للحجرة قبله وتركت الباب مفتوحًا، لكنها لا تجرؤ على تعنيف «ناريمان»؛ فلو عرف «عادل» لقاطعها ونبذها.

سمعت «ناريمان» الحكاية كاملةً على لسان أمها تحكيها لأبيها، «رامز» تسلل إلى الحجرة وأسقط المقتنيات الثمينة وبلّل البساط، وكذا سمع «رامز»، لكن أخته لم تُدرك أنه سيذكر هذا الموقف على الرغم من أعوامه الأربعة وقتها.

أعاد «عادل» سؤاله، فلم ترد «ناريمان»، وأجهش «رامز» بالبُكاء خوفًا.

- «رامز»، لِمَ تبكي الآن؟ عمومًا، لقد أخبرتني العصفورة بكل شيء. تُصبحان على خير.

كما أخبر «ويلارد» «ناريمان»؛ فالأب والأم هما إلها الأطفال الأولان، وكان إلههما متطلبًا وثنيًا يطلب الأضحيات البشرية، وكان «رامز» هو الأضحية التي اختارتها «ناريمان» وأمها دون اتفاق مسبق.

من يومها، وصارت الفجوة بينها وبين أخيها تتسع، كانا محبوسين في القفص ذاته، ويُطعَم واحدٌ منهما بينما يُترك الآخر ليتضوَّر جوعًا. لا يمكن لوم «رامز» على أي ضغينة يحملها ضدها، بل إنها هي نفسها لم تعُد قادرة على مواجهة نفسها بما فعلت طيلة حياتها للنجاة من أبيها على حساب أخيها.

* * *

لساعاتٍ، ظلّ «رامز» ينظّف حوائط المكتب من التراب، حتى يختفي ما أفسدته لمسة «أمنية» من تجانس الغبار فوقها. عندما انتهى من آخر حائط، لاحظ جزءًا مقشرًا من الطلاء عند حائط الصالة القريب. دقق النظر فيه، فوجد ألوانًا صارخة متبدِّية من تحت الطلاء الرمادي.

لسببٍ لم يتبينه، ذكَّره ما رآه بطفولته؛ فلم يعلم بأي شيء ذكَّرته

الألوان. فجوات كبيرة قد تآكلت من ذاكرته، ولم يثق قط بروايات الآخرين عمَّا حدث خلالها.

هو لا يذكر سنوات عُمره قبل سفرهم للخارج، لا يذكر فترات وجودهم في مصر في الإجازات. لا يذكر سببًا للكدمات وآثار الأصابع التي كان يجدها على عنقه في طفولته. لا يذكر أسباب مرض أمه المستمر، خاصةً في أثناء غياب أبيه. ولا يذكر لِمَ لا يحب «ناريمان»، ولا ما الذي استأصل حب أخته من روحه، بل وأزال معه حبه لأي شخص آخر.

لكنه يذكر جيدًا كل تفاصيل يوم وفاة أبيه، وقد تظاهر بنسيان ما حدث، وصدَّقته «ناريمان». لكنه أبدًا لم ينسَ.

أثار التقشيرُ في الطلاء غضبَه؛ فلم يعد يرى سواه، وراح يفكر في

حلين لا ثالث لهما: إما تقشير باقي الحائط، وإما طلاء الجزء المقشر.

لا يملك فائضًا ماليًا لإعادة الطلاء الكامل؛ فرقعة الطلاء ستضايقه أكثر مِمَّا تضايقه الآن تلك البقعة الزاهية. أما التجاهل فهو حل غير وارد.

جلس «رامز» على كرسي السفرة أمام البقعة الملونة وظل يحدِّق فيها، حتى سمع جرس الباب. حمد الله على أن القادم لم يطرُق، ثم لعن القادم نفسه على قدومه.

على الباب، كانت الجارة الغريبة، تحمل بين يديها ما يشبه لوحة فنية مُريبة، تتألف من أجزاء من تماثيل يعرفها جيدًا، وثلاثة أزرار من سترة من طراز قديم، وعدستي نظارة شمسية مميزة لطالما أثارت رعبه.

قالت جارته باسمةً:

- هدية صغيرة.

- أنتِ مَن أخذتِ الأغراض من الصناديق التي أخرجتها أمام باب الشقة؟

- أجل.. يمكنك أن تلومني أو تغضب مني كما تشاء. لكن ما فعلت كان ضروريًا يا... أستاذ «رامز».

حك «رامز» شعره وهو يحدد إن كان سيختار الغضب مِمَّا فعلته ويطردها، أم يسألها عن الطريقة التي عرفت بها اسمه، فيفتح بابًا لا يرجوه للحوار.

- شكرًا يا مدام...؟

- «بريجيت».. بريجيت حسين الرافعي. أما زلت لا تذكرني؟

- وهل عليَّ أن أذكرك؟!

لم يقرع الاسم أي أجراس في ذاكرة «رامز»، لكن عدستي النظارة

الشمسية المثبتتين على اللوحة قرعتا كل الأجراس في آنٍ واحد، وشعر بدوار مفاجئ تراجع على أثره خطوات للخلف.

دخلت «بريجيت» ووضعت اللوحة على المنضدة، ثم أسندت «رامز» وأجلسته على كرسي. سألته في قلق:

- أنت وحدك؟

- ابنتي معي، لكنها نائمة..

النظارة الشمسية، وعينا أبيه من خلفهما لا يدري إن كانتا مُبتسمتين أم حانقتين. رائحة عطره، نتيجة الثانوية العامة.. الصفعة التي دفعته ليتراجع خلفًا حتى ارتمى على الكرسي ذاته الذي يجلس عليه.

ثم المُعايرة بكل مليم أنفقه عليه، بكل نَفَس تنفسه «رامز» منذ وُلِد ولم يدفع ثمنه، بكل حق لأمه لم تُطالبه به لكن أباه كتبه في فاتورة حياته وقرر مداينته به الآن.

إحساس بالدونية والذنب لا يُحتمل.

لم يدرِ بمرور الوقت إلا عندما شعر بكوب ماء بارد في يده، و«بريجيت» على ركبتيها أمامه تمسّد ذراعه:

- اشرب.. هل تعاني أي أمراض: سكري، ضغط؟

هزّ رأسه نافيًا، وجرع الماء بيد مُرتجفة. شكرها، فوضعت الكوب جانبًا وراحت تجوب بعينيها في أرجاء الشقة دون أن تُحرّك رأسها، وكأنما تخجل من تصرفها هذا.

قالت مازحة:

- لم أكُن أعرف أن لوحتي سيئة إلى هذا الحد.

- أبدًا.. اللوحة غريبة، لكن.. جميلة.. شكرًا.

- ورثت حب الرسم عن أبي، لكنني تعرضت لـ... حادث، وصارت يدي

اليمنى عاجزة عن التحكم في القلم أو الفرشاة. كان أبي رسامًا، لكن لظروف خاصة، كان يصمم لوحات كهذه بدلًا من الرسم.

توقفت عينا «بريجيت» عند الطلاء المُقشَّر، فقامت تتفحصه، بدا الغمُّ على ملامحها وهي تتأمَّل ما بدا من ألوان.

دوت صوت ثلاث طرقات من مكانٍ ما داخل الشقة، طرقات قوية مُدوية على خشب أجوف. انتفض «رامز»، وكذا فعلت «بريجيت»، نظر كلٌ منهما إلى الآخر، ثم ثبَّتت «بريجيت» نظرها عند رُكن مُعين من الصالة، وأحكمت لفَّ الشال حول كتفيها وتراجعت نحو باب الشقة مُنتزعة ابتسامة واهنة:

- اسمح لي أن أطمئن عليك في وقت لاحق.. سلام.

لم تنتظر ردًا، اختفت في ظلام السلم، ثم بعد ثوانٍ، سمع «رامز» باب شقتها يُغلق.

قام مُترنحًا ليُغلق بابه، ثم تذكر لوحتها، فوضعها في كيس بلاستيكي أسود ودسها في دلو القمامة عند باب شقته.

لا تنقصه لوحة تحمل بين طياتها شؤمًا.

***

تكوَّمت «بريجيت» على الأريكة واحتضنت ركبتيها، وحدقت في فتحة السقف المسدودة بقاعدة خزانة ثقيلة وراحت تهمس لنفسها:

- لقد عاد.. عاد «عادل» كما وعدني..

عشرة أعوام قضتها «بريجيت» وحيدة في شقة أبيها، تنتظر عودة «عادل»، حتى بعدما علمت بموته. ثمَّة أشخاص لا يغيبهم الموت، وكان «عادل» منهم.

خمسة وثلاثون عامًا، منذ وجدها أحد الجيران جالسةً في بركة من دماء أبيها، عاجزة عن الحركة أو الحديث. بالنسبة للجميع، انتحار

«حسين» كان متوقعًا على الرغم من كل ما بدا عليه من تماسك بعد عودته من رحلة علاجه. أخذها جار لها في الطابق الثالث، حملها وزوجته حملًا وهي تصرخ وتدق على باب شقة «عادل» في جنون وتصرخ بكلام بلا معنى. في دفتر هاتف «حسين»، وجدوا أرقام دكتور «رجب» في إيطاليا، وتواصلوا معه. خلال أربعة أيام كان الرجل في مصر، واصطحب «بريجيت» إلى جدتها في الإسكندرية.

لدهشتها، قابلتها «آمال» في مقهى، وتعمّدت ألا تُطيل الحديث معها وتحاشت أن تتلاقى أعينهما. لم تبدُ حزينة كما توقّعت «بريجيت». انفردت «آمال» بالدكتور «رجب» جانبًا لدقائق، ثم غادرت المقهى وهي ترمق «بريجيت» بنظرة أخيرة مُرتابة. عاد «رجب» مُحمر الأذنين إلى الطاولة حيث تجلس «بريجيت»، طلب لها مزيدًا من الحلوى وتركها دقائق ريثما يُجري بعض المكالمات الهاتفية من السنترال.

ظلت تنقل نظرها بين الطعام والبحر، وفكرت في أن تهرب. لا تعرف إلى أين تذهب، لكنها ستهرب ولن تصير عبئًا على الدكتور «رجب». ثم خشيت أن يكون الرجل قد رحل هو الآخر وتركها وحدها. تسترجع وجه أبيها وصوته واعتذاره عن عدم قدرته على حمايتها.

لكن «رجب» عاد، وأمسك بكفيها وقال:

- سأخبركِ بشيء سيُبهجك.. ألا تُريدين العودة معي إلى إيطاليا؟ لديّ منزل رائع يطل على البحر، ولديّ أحفاد في مثل عمرك. ستعيشين معنا، ما رأيك؟

صمتت «بريجيت»، لم تكُن حزينة لرفض جدتها لها، لكنها حزنت لتأكُّدها من القسوة التي عاناها أبوها طيلة حياته. أهكذا كانت أمه؟

أحقًا لم تُحبه ولم يعنِ لها شيئًا؟

بكت «بريجيت»، ولم تتوقّف عن البكاء في أثناء فترة إقامتها مع أقارب الدكتور «رجب» في الإسكندرية حتى انتهاء إجراءات سفرها.

كان أبوها وحيدًا، ورحل وحيدًا في جنازة لم يتعدَّ حاضروها عدد أصابع اليد الواحدة. السبب هو «عادل» و«آمال» وكل من خذل الرجل الهش الطيب.

في إيطاليا، وجدت «توماسينو» و«جيادا» في انتظارها في المطار. عانقاها حتى كادت تتهشم أوصالها. جلس ثلاثتهم على الأرض يجهشون بالبكاء.

رفض «توماسينو» أن تعيش «بريجيت» مع الدكتور «رجب»، وأقسم أبوه إنها إن تربت الفتاة عند غريب لقاطع «توماسينو» نفسه، وأقسم كذلك على إقامة جنازة كاملة للفقيد، فلا يليق ألا تتلقى ابنته العزاء كما يجب.

عكف «توماسينو» على رسم لوحة لـ«حسين»، وأجلس «بريجيت» جواره، لتشارك في أي شيء تستطيع المشاركة به في اللوحة؛ نظرًا لعجز يدها اليمنى عن الحركة بشكل طبيعي. في ساعات قليلة، أنهى «توماسينو» لوحة «حسين» وعلقها عند مدخل المنزل، وأشاع «ماتيو» خبر الوفاة، فبدأ الجيران في التوافد حاملين الطعام والأزهار، مُعزين «توماسينو» وأباه وعمه والدكتور «رجب».

جلست النسوة حول «بريجيت» يواسينها ويطعمنها، ويغمرنها بالورد. وفي الصباح، وضع «توماسينو» بعض أغراض «حسين» التي بقيت معه منذ سنوات في الكرفان في تابوت رمزي، ودفنوه في الحديقة. علمت «بريجيت» - حسب معتقدات الصقليين - أن دفن بعض أغراض المتوفَّى معه تساعد روحه على الرحيل وعدم العودة كشبح، لكنها تمنت لو يعود على أي هيئة كانت.

وتذكرت «بريجيت» شبح أمها، وشبح «عادل» الذي لم يكن قد مات من الأساس. عقلها يضج بالخواطر المتشابكة، تخبر نفسها أنها ستفكر في كل هذا لاحقًا، حين تصحو من هذا الكابوس. لكن «بريجيت» لم تستيقظ قط، خمسة وثلاثون عامًا تحيا في دائرة من الحزن والغضب.

الشمسية المثبتتين على اللوحة قرعتا كل الأجراس في آنٍ واحد، وشعر بدوار مفاجئ تراجع على أثره خطوات للخلف.

دخلت «بريجيت» ووضعت اللوحة على المنضدة، ثم أسندت «رامز» وأجلسته على كرسي. سألته في قلق:

- أنت وحدك؟

- ابنتي معي، لكنها نائمة..

النظارة الشمسية، وعينا أبيه من خلفهما لا يدري إن كانتا مُيتسمتين أم حانقتين. رائحة عطره، نتيجة الثانوية العامة.. الصفعة التي دفعته ليتراجع خلفًا حتى ارتمى على الكرسي ذاته الذي يجلس عليه.

ثم المُعايرة بكل مليم أنفقه عليه، بكل نَفَسٍ تنفسه «رامز» منذ وُلِد ولم يدفع ثمنه، بكل حق لأمه لم تُطالبه به لكن أباه كتبه في فاتورة حياته وقرر مداينته به الآن.

إحساس بالدونية والذنب لا يُحتمل.

لم يدرِ بمرور الوقت إلا عندما شعر بكوب ماء بارد في يده، و«بريجيت» على ركبتيها أمامه تمسّد ذراعه:

- اشرب.. هل تعاني أي أمراض: سكري، ضغط؟

هزّ رأسه نافيًا، وجرع الماء بيد مُرتجفة. شكرها، فوضعت الكوب جانبًا وراحت تجوب بعينيها في أرجاء الشقة دون أن تُحرّك رأسها، وكأنما تخجل من تصرفها هذا.

قالت مازحة:

- لم أكُن أعرف أن لوحتي سيئة إلى هذا الحد.

- أبدًا.. اللوحة غريبة، لكن.. جميلة.. شكرًا.

- ورثتُ حب الرسم عن أبي، لكنني تعرضت لـ... حادث، وصارت يدي

أراه مجددًا.. آهٍ يا «ويلارد»، لكم تعذبت بهذا الشعور. لكم أحرقني وسيحرقني الإحساس بالذنب حتى أموت..

اختنقت الكلمات على لسان «ناريمان». سيول من مشاعر متضاربة تتصارع كي تخرج، وكأنها آخر مرة تتكلم فيها. هي نفسها كانت تشك لو سمح لها عقلها بالحديث عن هذا الأمر بالذات مرة أخرى، عليها أن تُخرج كل الصديد الآن، وإلا فلن تُشفى. لكن الضغط مؤلم، والشفاء مؤلم، والكتمان مؤلم.

- «ناريمان».. لا يوجد ما يخيف، ولا يمكن أن يؤذيكِ شيء الآن. لقد رحل والدك، والموتى لا يعودون. كل ما بقي منه مجرد ذكريات. أحيانًا تؤلم الذكريات، لكنها في النهاية أشباح، علينا طردها مِنكِ. اتفقنا؟ هاتفتُ الدكتورة «مُهرة» اليوم وسوف تُلحقك بمجموعة علاجية. وأنا بجوارك، وسنعتبرك أنا وزوجتي طفلتنا، لكننا لن نتطفَّل على حياتك. بيتنا مفتوح وهواتفنا متاحة طيلة الوقت. احكي لي أو لـ«ليزا»، نحن نحبك. تذكري هذا.

- وأنا أحبكما.. لا أستحق كل ما تفعلانه لأجلي يا «ويلارد».

- وما الذي يجبرنا أن نفعل شيئًا لشخص لا يستحق؟ كُفي عن الحكم على نفسك بالاستحقاق أو عدمه، ودعي تلك المُهمة للآخرين.. للعقلاء منهم تحديدًا.

ضحك «ويلارد»، ولم تضحك. قالت في ارتباك:

- «ويلارد».. لِمَ أشعر أنني خَرِبة.. معطلة.. أشعر كأن تروس روحي عالقة.. ثَمَّةَ شيئًا في غير محله داخلي؟ هل تفهمني؟

- شعور طبيعي يا «ناريمان».. هل تشربين شيئًا؟

توقفت السيارة عند مقهى، ونزل «ويلارد» وغاب قليلًا بالداخل وعاد حاملًا كوبين من الشاي وعبوة من البسكوت بالشوكولاتة أعطاه

«حسين» كان متوقعًا على الرغم من كل ما بدا عليه من تماسك بعد عودته من رحلة علاجه. أخذها جار لها في الطابق الثالث، حملها وزوجته حملًا وهي تصرخ وتدق على باب شقة «عادل» في جنون وتصرخ بكلام بلا معنى. في دفتر هاتف «حسين»، وجدوا أرقام دكتور «رجب» في إيطاليا، وتواصلوا معه. خلال أربعة أيام كان الرجل في مصر، واصطحب «بريجيت» إلى جدتها في الإسكندرية.

لدهشتها، قابلتها «آمال» في مقهى، وتعمَّدت ألا تُطيل الحديث معها وتحاشت أن تتلاقى أعينهما. لم تبدُ حزينة كما توقَّعت «بريجيت». انفردت «آمال» بالدكتور «رجب» جانبًا لدقائق، ثم غادرت المقهى وهي ترمق «بريجيت» بنظرة أخيرة مُرتابة. عاد «رجب» مُحمر الأذنين إلى الطاولة حيث تجلس «بريجيت»، طلب لها مزيدًا من الحلوى وتركها دقائق ريثما يُجري بعض المكالمات الهاتفية من السنترال.

ظلت تنقل نظرها بين الطعام والبحر، وفكرت في أن تهرب. لا تعرف إلى أين تذهب، لكنها ستهرب ولن تصير عبئًا على الدكتور «رجب». ثم خشيت أن يكون الرجل قد رحل هو الآخر وتركها وحدها. تسترجع وجه أبيها وصوته واعتذاره عن عدم قدرته على حمايتها.

لكن «رجب» عاد، وأمسك بكفيها وقال:

- سأخبركِ بشيء سيُبهجك.. ألا تُريدين العودة معي إلى إيطاليا؟ لديَّ منزل رائع يطل على البحر، ولديَّ أحفاد في مثل عمرك. ستعيشين معنا، ما رأيك؟

صمتت «بريجيت»، لم تكُن حزينة لرفض جدتها لها، لكنها حزنت لتأكُّدها من القسوة التي عاناها أبوها طيلة حياته. أهكذا كانت أمه؟

أحقًا لم تُحبه ولم يعنِ لها شيئًا؟

بكت «بريجيت»، ولم تتوقَّف عن البكاء في أثناء فترة إقامتها مع أقارب الدكتور «رجب» في الإسكندرية حتى انتهاء إجراءات سفرها.

ـ بالطبع لا.

ـ هذا ما أريد قوله.. كلنا ضحايا وكلنا مرضى نفسيون، لكن في أيدينا الاختيار. كان عليه مقاومة ألمه والاستشفاء بكم وبمحبتكم. الطُغاة مرضى نفسيون.. القتلة والمغتصبون مرضى نفسيون.. هل تسامحينهم؟

صمتت «ناريمان» وهي لا تعرف بعدَ إلامَ يرمي «ويلارد». ظل صامتًا دقائق حتى ينهي كوبه، وراحت هي تأكل البسكوت في شرود، وتذكر ما كان يأتي به أبوها من حلوى لها ولـ«رامز». عندما كان يضحك، يشع العالم بالرضا والمحبة وتتمنّى «ناريمان» لو يتوقّف الزمن، ولا ترى سوى ابتسامته والأمان على وجه آمها و«رامز». وحين كان يعتل مِزاجه، يعصُف العالم بهم، كأنهم حُفاة عراة وسط عاصفة رملية شعواء، تنحت الرمال جلودهم وتدميها، بينما يقف هو خلف الباب يسمع استجداءهم كي يُدخلهم، ولا يبالي.

بدأ «ويلارد» في القيادة وهو يتحدث قائلًا:

ـ أبوكِ كان مُصابًا باضطراب الشخصية النرجسية.

ـ لكنه لم يكُن أنانيًا قط يا «ويلارد»!

ـ ومَن قال إن النرجسية تبدو كما يخطر معناها على بالنا لأول وهلة؟ أحب أن أطلق على هؤلاء اسم الطواويس.. الطاووس يمنح لأن المنح يعزِّز نرجسيته.. الطاووس يساعد ويدعم لأنه يُحب أن يُحاط باللامعين فقط. الطاووس يبطش بطشًا لا يشعر به أو يراه سوى الضحايا. أراهن أن صديقاتك كُنّ يرين أنكِ تعيشين حياة مثالية.

ـ لا أملك صديقات نوعًا ما.. لكن زميلات دراستي بالفعل كُنَّ يرين حياتي مثالية، خاصة أبي.

ـ ذكرتِ نقطة مهمة.. لو أن حياتك كانت مثالية بالفعل، ما كان أبوك أبعد عنكم الأقارب والأصدقاء كما حكيتِ لي. الطاووس لا يسمح لأحد

بأن يقترب من عرينه أو ممتلكاته، فكل شيء في حياته يبدو ولا يكون.

- بمعنى؟

- عائلتك تبدو من بعيد مثالية، وأبوك لم يكُن يسمح لأحد بالاقتراب حتى يكشف عن حقيقتها. عليه أن يُبقي ضحاياه في معزِل عن الآخرين حتى لا يجدوا مفرًا منه إلا إليه.

فكَّرت «ناريمان» في تعبيره «يبدو ولا يكون». لا تعرف ما علاقة هذا التعبير بموقف قديم كانت تشكو فيه أمها، مُحدِّثة نفسها كعادتها، عن سر الملابس الفاخرة التي يشتريها أبوها لهم ثم تذوب بعد غسلة واحدة.. الملابس تبدو فاخرة، لكنها ليست كذلك.. ما العلاقة؟ ولمَ تذكرت هذا الموقف بالذات؟

- لذا يا «ناريمان»، ضحايا الطاووس لا يدركون أنهم ضحايا أبدًا إلا متأخرًا. وقتها تسأل الضحية نفسها سؤالك: ما خطبي؟ وما مشكلتي؟ لماذا أشعر أنني مُعطلة؟

كاد قلب «ناريمان» يتوقَّف؛ فهذا آخِر تفسير قد يخطر ببالها، أن يكون من دمَّر حياتها هو أباها، أن يكون قد تعمَّد ذلك لإرضاء ذاته.. أبوها دمَّر حياتها وحياة «رامز» وحياة أمها ودمر علاقتهم بعضهم ببعض وبكل بشري آخر حاول الاقتراب منهم.

أشارت «ناريمان» إلى «ويلارد» أن يُوقف السيارة وهي تضع كفها على فمها، وقبل أن يتوقف ترجلت وانحنت تقيء على جانب الطريق. نزل الطبيب وهرع نحوها يربت على ظهرها. حين رفعت وجهها كانت لا تزال مصدومةً، تبحث في قاموس المشاعر عن شعور يناسب ما سمعت، فلا تجد.

سألته:

- بماذا أشعر يا «ويلارد»؟ ماذا عليَّ أن أشعر؟ حياتي كانت خدعة؟ هل تقول لي إن كل مشاعري كانت مُوجهة في اتجاهات خاطئة؟

تريدني أن أتعامل مع أربعين عامًا من الإحساس المُطلق بالذنب كأنها لم تكُن؟

ـ آسف يا «ناريمان»، لكن نصف العلاج هو التشخيص. حكيت لدكتورة «مهرة» كل ما حكيته لي وقد أكدت شكوكي. الآن أنتِ حُرة لتشعري بأي شيء دون شعور بالذنب. أنتِ لم تُذنبي.. لم تؤذيه.. لم تسمحي لنفسك بأن تؤذي غيرك...

قاطعته باكيةً:

ـ أنا آذيت «رامز» كي أرضيه! أنا أول من قدمه كأضحية!

ـ حسنًا.. لقد فعلتِ ذلك وعلينا أن نُصلحه. كل شيء قابل للإصلاح يا «ناريمان».

ضحكت «ناريمان» ساخرةً وسط دموعها وهتفت:

ـ أربعون عامًا من عمري رحلت ولن تعود.. وأخطاؤها ستبقى للأبد. أريد أن أكون وحدي قليلًا.

تركته «ناريمان» وسارت نحو أقرب محطة حافلات. بين دقة قلب وأخرى تنفلت أربعون دقة، فتكاد تهوي أرضًا.

جلست على مقعد انتظار الحافلة وأخرجت هاتفها المحمول. حدقت فيه ربع ساعة وهي لا تعرف ما عليها أن تفعل، وبمن تتصل، وهل عليها الاتصال بأحد من الأساس!

رقم لم تقربه منذ أعوام، علاء الدين الجمَّال، طليقها. ارتعشت إصبعها وهي تحرِّكها لأعلى وأسفل على شاشة الهاتف مُفكرةً في رجل آخر ظلمته وقتلت آخر فرصة لها في حياة طبيعية وحب حقيقي.

لا تعرف كيف ضغطت أناملها على الشاشة دون وعي منها واتصلت بالرقم. لم تعِ ما حدث إلا عندما صدح صوت «علاء» عبر السماعة متسائلًا عن المُتصل.

قامت «ناريمان» وسارت بمحاذاة الطريق، ووضعت الهاتف على أذنها تسمع صوتًا لم تسمعه منذ سنوات.

كانت تود لو تحكي له اكتشافها الصغير المريع..

«علاء»، اكتشفتُ لِمَ تركتك، ولِمَ حرمتك من فرصة مساعدتي. كنت أظنني لا أستحقك، كنت مُتعبة لا أقدر على رد جميل كل من يمد لي يد المحبة، ولم أكُن أتحمَّل أن أسمع بجحودي للجميل مرة أخرى يا «علاء».. لم أرِد أن أسمعها منك أنت بالذات. في كل يوم كنت تُحبني فيه كنت أكره نفسي؛ فأنا لم أستطِع أن أحب أبي كما أوهمني أنه يحبني، فكيف أحبك؟ أنا مُعطَّلة يا «علاء» وقلبي فاسد، ينشع السم من مسامي فلا تقربني، ولا يقربني أحد..

أتعرف؟ كنت أكذب عليك في كل مرة أحاول أن أصلح بينك وبين أبي، كنت أكذب وأقول إنه يحبك، وأكذب وأقول إنه يحبني.. الحقيقة أنه لم يتحمل أن أحب غيره، أن يبعدني أحدٌ عن فخه. كنت أكذب ولم أكُن أعرف بكذبي يا «علاء».. كنت أصدقه حين يتعمَّد مرافقتك والتباهي بك، كنت أصدقه حين يفسر تصرفاتك بشكلٍ ملتوٍ ويقنعني أنه يختار لي الأصلح، وأنك لا تصلح.. أوهمني أنني حُرة وكنتُ مقيدة به في حياته، وتحررت منك أنت بعد مماته.. أتفهمني يا «علاء»؟ أتذكُر أم نسيت؟

أنا رد فعل لفعلٍ خبيث زال وتحلَّل.. رد فعل لا يعرف أحد من أين جاء ويعتبرونه جنونًا وحوارًا مُختلا مع صدى صوت..

أغلقت «ناريمان» الخط، وقد قالت كل ما أرادت قوله في عقلها كعادتها التي تمقتها. تتحدَّث وتبرر وتبكي وتضحك ولا يعي أحدٌ بما يعتمل في داخلها. بالنسبة للجميع كانت مجرد كائن مُختل لا يُبرر تصرفاته الغريبة أيُّ شيء. ولكم برَّرت ولم يخرج تبريرها عن أسوار عقلها.

لفت ذراعيها حول جسدها وراحت تبكي، تنكمش أكثر داخل ملابسها

وهي غير قادرة على الاستنجاد بأحد، غير قادرة على الزج بأحد في حياتها الشائهة.

تذكر استغاثتها بجيرانهم، تذكر كيف كادت ابنة الجيران، التي تشبهها كثيرًا، تفقد كفها. لم تزها من يومها ولا تجرؤ على التفكير فيها من الأساس. لوهلة شعرت أن أحدًا يتبعها. توقفت واستدارت تتفحّص الظلال خلف أعمدة الإنارة ووراء الأشجار. كانت تخاف الظلال؛ لذا فقد أخلت شقتها من أي أثاث غير ضروري، ودهنتها بالأبيض الناصع وغمرتها بالضوء. الظلال خبيثة، الظلال مُتلاعبة.

الظلال تتبعها!

توقفت مرة أخرى ونظرت نحو كابينة هاتف عمومي. مرّت الحافلة فأضاءت ظُلمة الطريق وأعمت عينيها للحظات. ثم عاد الظلام من جديد وتيقّنت «ناريمان» أن ثمّة ظلًا يقف داخل كابينة الهاتف ولم يتأثر باختلاف الضوء.

ظلت تعدو وتنظر خلفها كل بضع ثوانٍ حتى وجدت سيارة أجرة فأشارت إليها وركبتها سريعًا. يعود إليها شعور الذعر مرة أخرى كما هاجمها ليلة أن استعانت بجيرانها.

انطمست أحداث ذلك اليوم فلا تذكر منه إلا جرح يد جارتها الصغيرة، وذراعي أمها تجذبانها إلى أعلى. إلى أين؟ لا تذكر أغلب التفاصيل، لكنها تذكر جيدًا أن ثَمّ شبحًا يشبه أباها يسكن عائلتها، ويتبعهم أينما ارتحلوا.

لم يقدر تحليل «ويلارد» على إجابة كل التساؤلات، وما زالت قطع من البازل مفقودة. إن كان أبوها مريضًا نفسيًا، فمن الشبح؟ وما علاقته به؟ وما خطب الأشياء التي يشتريها أبوها وتتغير مع الوقت؟

إن كان شبح أبيها من وحي خيالها، فكيف يتأثر به أخوها وأمها على الرغم من إنكارهما وجوده؟

رفعت عينيها عن نافذة السيارة الأجرة، وفتحت حقيبة يدها تبحث عن منديل ورقي، حين لمحت في مرآة السائق من يجلس جوارها، وكان أباها.

صرخت فنظر إليها السائق متسائلًا، وأوقف السيارة. لم يكُن أحدٌ

بجوارها، فاعتذرت وتغاضت كما اعتادت طيلة عمرها. إلا أن السائق بدا مُتشككًا طيلة الطريق، كأنه رأى هو الآخر ما رأت.

* * *

لم تتصل «ناريمان» بـ«أمنية» منذ عدة أيام، ولم ترد على رسائلها.

فتحت الطفلة «فيسبوك» وهي تنظر خارج حجرتها كي تتأكَّد من أن أباها بعيد. لم يمنعها من استخدام الإنترنت، لكنها كانت تخشى أن يرفض أو يعترض. تخشى أن تفعل شيئًا يثير غضبه.

كان جالسًا يرمق شيئًا ما على الحائط، وقد أيقظها صوت دقات عالية منذ دقائق لكنها لم تُغادر فراشها.

راحت «أمنية» تشاهد مقاطع فيديو ساخرة وتضحك في سرها، ثم انغلق الهاتف، وتعجبت «أمنية» كونه كان مشحونًا منذ دقائق. ساد الظلام الكثيف الحجرة، ورأت نظارة جدها تلتمع وسط حلكة المكان، وسمعت صوت جدها للمرة الأولى. كان يقول لها:

- أيام وتأتي إليّ يا «أمنية».. ألا تريدين أن تذهبي إلى جدو؟

صرخت «أمنية»، وحاولت أن تقوم من مكانها فلم تستطِع، وكأنَّ هناك من يقيِّدها. سمعت طرقات على باب حجرتها وصراخ أبيها:

- «أمنية»، ما لكِ؟ افتحي!

- افتح لي، لا أستطيع الحركة!

ضحك الجد، وهمس في أذنها:

ـ لن يفتح لكِ، هو لا يراكِ من الأساس. أي أب يكون وهو يتمنى أن تختفي من على وجه الأرض، وتزول مسؤوليتك من فوق كتفيه؟! أي أب وهو يتمنى ابنة سليمة الجسد تُفرح قلبه؟

سمعت «أمنية» أباها يتحدث مع شخص آخر بالخارج، ثم يبتعد عن الباب. يُكمل الجد حديثه الخافت كفحيح الأفاعي:

ـ أرأيتِ؟ ها؟ أتأتين معي؟

وشعرت «أمنية» بسكين توضع في يدها.

* * *

كان «رامز» يطرق باب «أمنية»، عاجزًا عن فتحه، حين وجدها تضع كفها على ظهره. التفت فزعًا، فرآها باسمةً تنظر إليه في براءة.

ـ «أمنية»؟! كيف؟!

ـ كنتُ في المطبخ حين رأيت الفأر إياه، فصرخت.. لكنه قفز من النافذة، لا تقلق.

نظر «رامز» إلى الباب المغلق، ثم إلى ابنته. مدَّ يده يحاول فتح الباب، لكن «أمنية» أمسكت بكفه الأخرى وجذبته نحو المطبخ وهي تهتف ضاحكة:

ـ كنت أحضّر لك عشاءً يا بابا، تعالَ نأكل معًا؛ فأنا جائعة.

لأول مرة منذ بدأ العلاج تبدو «أمنية» بهذا الإشراق والبهجة، بل وتخبره أنها جائعة. تبعها إلى المطبخ وحضّرا بعض الشطائر معًا. كانت تمزح، وهي عادةٌ لا تعرف لها «أمنية» طريقًا. تعجّب من تصرفها هذا وأحبه. خرج إلى الصالة ممسكًا بطبق الشطائر وقرر أن يحاول تشغيل التلفاز بدلًا من تلك الكآبة المخيمة على الشقة. نادى «أمنية» كي تساعده في دفع الخزانة الصغيرة الموضوع فوقها التلفاز؛ كي يتمكّن من الوصول إلى القابس.

- «أمنية».. أسندي التلفاز كي لا يسقط.. «أمنية»!

لم ترد «أمنية»، وسمع ثلاث طرقات من تحت الخزانة، ثم انفجر صراخ ابنته من خلف باب حجرتها.

ترك ما يفعل وهرول نحو الباب، دفعه فانفتح بسهولة. أضاء النور فوجد «أمنية» على سريرها تمسك بسكين فاكهة وترتجف.

* * *

سألت «ناريمان» طبيبتها النفسية:

- وهل يمكن علاج النرجسي؟

أجابت دكتورة «مُهرة» باسمة:

- وهل يريد النرجسي العلاج من الأساس؟ النرجسي شخص يستمتع بالمزايا التي يحصل عليها بالتلاعب بالآخرين.. الاهتمام، الخضوع.. لِمَ قد يريد فقد كل تلك المزايا؟

- هل... هل شعر أبي من قبل أنه ظلمنا؟ هل تعاطف ولو للحظة مع ذعرنا؟ هل... هل ندم حين رأى ثمار ما جنته يداه فينا وفي أمي؟

- كلا.. لا يملك النرجسي القدرة على التعاطف.

ابتلعت «ناريمان» ريقها ولفّت ذراعيها حول جسدها، شاعرةً ببرودة لم تشعر بها من قبل، وكأنها جحيم من ثلوج ستعذّب فيه للأبد..

- سؤال أخير يا دكتورة.. هل كان أبي يكرهنا؟

- هو فقط لم يشعر تجاهكم بأي شيء. سيدة «ناريمان»، كل هذا قد انتهى، وليس من المطلوب أن تضغطي على نفسك كي تغفري له إن لم يكُن هذا في مقدورك. ترشيح دكتور «ويلارد» لي جاء من تشابه خلفياتنا الدينية، وكما حكيتِ، فأبوك كان يستغل التخويف بالدين وبعقاب الله في الآخرة كي تخضعوا له. خلق الله من أزواجنا وأبنائنا

وآبائنا سكنًا وعدوًا. وعند الله تجتمع الخصوم، فلا تشعري بأن الله سيعاقبك على مشاعر سلبية تجاه والدك تولّدت نتيجة الإيذاء والتلاعب المستمر. لتركز الآن عليكِ، وعلى حياتك الجديدة.

حين عادت «ناريمان» إلى منزلها بعد الجلسة، راحت تشاهد تسجيلات على «يوتيوب» لضحايا النرجسيين. كانت تتوق إلى معرفة كل شيء، وكعادتها، شعرت بحرج من سؤال الطبيبة، فلطالما ترسّخ بداخلها شعور بأنها عبء، وإن كانت عبئًا على والدها كما بث فيها طيلة حياته، فلِمَ لا تكون عبئًا على الغرباء؟

شردت «ناريمان» في شاشة الـ«لابتوب»، موقع أمريكي مُخصّص لتبادل الخبرات بين ضحايا النرجسيين. فتحت فيديو لرجل ستيني يبدو عليه التوتّر، يُبرم منديلًا بين أصابعه ويفتته فيتكوّم الفتات بين قدميه في تل صغير. كان جالسًا أمام كاميرا المحمول في منزله، يتحدث ويرتشف من كأس بجواره.

عرّف نفسه باسم «آندرسون»، مدرس متقاعد. بعد توتر دام لحظات، انفكّت عُقدة لسانه وقال:

- تعرّفتُ إلى زوجتي حين كنت في الثالثة والعشرين. مع أول أيام تعارفنا تعلقت بي، وضخت في عروقي زهوًا وثقةً بالنفس لم أشعر بهما قط. كأنما كانت ملاكًا أنزل عليّ السكينة، وفتح لي باب حياة جديدة لا مكان فيه للألم أو للوحدة. كانت تخبرني بأنها لم ترَ مثلي قط، وأنني أفهمها كما لم يفعل أحد من قبل. تظل تلح عليّ كي تتأكّد من أنها صديقتي وحبيبتي الوحيدة كما أنا صديقها وحبيبها الوحيد. كانت كذلك.. صدقًا، كانت الأولى في حياتي.. والأخيرة للأسف، فقد تركتني حطامًا. هل استمرت هي في حبها واهتمامها؟

بالطبع لا. بعد أن سقطتُ في براثنها، بدأت في انتقادي في البداية بحجة تحسين تصرفاتي وتقويمي. قبل أن أقابلها كنت أعيد التأكّد من كل تفصيلة في مظهري؛ فهي تريدني مثاليًا وعليّ أن أكون على قدر

توقعاتها، لكنني كنت أغفل بعض التفاصيل أو أنساها، ولم تتغاضَ هي عنها، وبدأت تُشعرني بالتقصير المستمر في مظهري وفي حقها عليّ. حينها كنت أشعر أن كل مجهودي ضاع سدًى، وأني مهما فعلت فلن أصل إلى مرحلة أستحقها فيها. فكرتُ في الابتعاد حفظًا لكرامتي، لكنها كانت تعود وتجذبني إليها، تنتقد حساسيتي الزائدة، وتؤكد أن أصدقائي هم سبب تشتتي وفقداني الثقة بنفسي.

كنت أغضب وأتهمها بالتلاعب بي، فتبكي، وتخبرني كم أن أبويها كانا قاسيين معها، وكيف خانها حبيبها السابق، وترجوني ألَا أتخلَى عنها كما تخلَى عنها الجميع من قبلَ. تُدمي كلماتُها قلبي.. فأعود.. وتعود لتلاعبها.. تقرأ «ناريمان» تعليقات الآخرين على الفيديو، فتُصاب بدوار، وتمسك بكفيها مسندي كُرسيها حتى لا تسقط. كل ما يَذكُر قد رأته على أبيها بلا أي مبالغة. كيف كانت عمياء عن تلك التفاصيل؟ في فيديو آخر، لاختصاصية نفسية تدعم زائري الموقع، تقول:

- النرجسي لا يخشى أن يُصرِّح بنرجسيته، ولا يرى أنها عيبٌ على الإطلاق. المشكلة الكبرى تكمن في أننا الآن، وقد وعينا ما نُعانيه، صرنا نستطيع تمييزهم جيدًا، وبدأنا نفزع أكثر من ذي قبل. مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، نظرة واحدة على أي منشور، وسنرى جميع صنوف النرجسيين: مَن يحاول فرض رأيه، مَن يُسفِّه مِن إنجازات الآخرين، مَن يلجأ إلى هدم مَن حوله حتى يعلو ويظهر وسطهم، من يستخدم الترهيب بالدين.. كل هذا لن يُخيفنا؛ فنحن الآن أقوى بوعينا وبمعرفتنا بسُبُل الخداع.

الخداع.. تعرف «ناريمان» كل شيء عن الخداع، عن التأرجُح بين دور البطولة ودور الضحية ودور المُتلاعِب المؤذِي.

تَذكُر آخر أعوام في عمر أبيها، حين أقعده المرض، وكاد يفقد بصره كليةً بسبب المياه الزرقاء ومُضاعفات السكري. كان قد ترك عمله في الخارج وعادوا جميعًا إلى القاهرة.

ظل يتصل وقتها بأقاربه ويشكو لهم ما فعلته به الحياة، وهي شكوى متصلة لا تنقطع ليلًا أو نهارًا، وويل لمن يتغافل عنها أو ينشغل عن الاستماع.

حين يأتي مَن يزورهم، كان يسكب شكواه سكبًا أمامه، ثم حين يرحل يسبه وينتقد كل ما فعل أو ما جاء به كهدية، ثم بلا سبب يُبعد من اقترب، ويبغض من أعلن حبه.

ازداد ارتيابه فيمن حوله، فكان يظن بهم الظنون، ويشتمها هي وأمها ويتهمهما بعلاقات فاحشة مع الجيران أو مع خطيبها «علاء». ثم يبكي وينتحب حين يُدرك أن تصرفاته قد أبعدت ابنته وزوجته، ويبرر ما فعل بشعوره بالوحدة والمرض، وإهمالهما إياه. يقترب منهم أيامًا ويضحك في وجوههم، يطلب من «ناريمان» أن تجلس بجواره وتقرأ له الجريدة، يسألها عن رأيها فتصمت خوفًا من أن تقول ما يعكر مِزاجه، فيغضب لصمتها ولكونها لا تعبأ برعايته والحديث إليه.

قرأت «ناريمان» في شهادة على الموقع:

«الأب النرجسي يترك خلفه طفلًا يتمنَّى اليُتم على ألّا يحيا مجددًا تحت سيطرة أب مثله».

وعلى الرغم من ذلك، كانت واقعة تمامًا في براثنه، تكرهه وتعلم أنها لن تستطيع الحياة دونه. كلما نفرت منه تذكرت كلمات المحبة التي كان يغدقها عليها أحيانًا. والآن قد عرفت أن محبته كانت مجرد خُدعة كي تبادله محبته بوقودٍ للنرجسية.

في فيديو آخر، شاهدت «ناريمان» ما قالته نانسي سميث عن أمها النرجسية:

ـ كانت تمارس أمي معي حيلة الاحتراق، كانت تخبرني ألّا أحد يجرؤ على اغتصابي لأني قبيحة عفنة الرائحة. جربت الانتحار، وفشلت. غَضِبَت لفعلتي لا لسبب إلا لكوني غير مسموح لي بالموت قبل أن أرد

لها جميل تربيتها لي.

تمسح «ناريمان» دموعها المنهمرة كالشلال، وهي تشاهد مزيدًا من الشهادات المُسجلة، كأنما تُقنع نفسها أن تكف عن الشعور بالذنب تجاه كرهها لأبيها.

تقول شانون توماس، المعالجة النفسية الخاصة بمتابعة الموقع:

ـ النرجسي يخنق أبناءه وذويه، يتلاعب بهم، ينسج الحكايات الكاذبة ويحكي أنصاف الحقائق، ويؤلب الأخ على إخوته. يلعب بمنطق «فرِّق تسُد».

و«رامز».. «رامز» الذي لا تستطيع «ناريمان» أن تغفر لنفسها ما فعلته به، ولا أن تغفر لأبيها فعله تجاهه. فعلى الرغم من كل ما آذاه بها، فلا يمكن أن تُقارِن ما مرت به بما مرَّ به «رامز» أبدًا. فبينما كانت تحصل على الإطراء المُمنهج والمحبة المحسوبة، كان «رامز» يتلقى كل إهانة ممكنة في السر والعلن. والسبب؟ «رامز» كان نُسخة من أبيها، بكل فشله ومخاوفه وهشاشته؛ فالشعور بالعار هو ما يخلق النرجسي، ويكره النرجسي كل ما يذكِّره بعاره؛ لذا كره أبوها صورته الحقيقية وانشغل بخلق سراب حوله بما يليق باله، لا بإنسان.

تقول «أوتيس» في شهادتها عن أم نرجسية وأب غير مبال:

ـ ما بين الاحتراق النفسي والتلاعب والمحبة الزائفة، فقدتُ علاقتي بكل مَن حولنا؛ فأمي كانت تتكلم بالسوء عن كل الناس من خلفهم، وتنسج الحكايات المقنعة عن خطرهم علينا. حتى وصل الأمر إلى التفريق بيني وبين أختي، حين كانت تبث في عقلي وأنا طفلة أنني أجمل منها بكثير، وأنها ستحقد عليَّ حين تدرك الفرق بيننا. كان عليَّ أن أصغي إلى سمومها، وحتى الآن أشعر بالأوساخ التي لصقت بروحي جرَّاء مزاعم كهذه.. لم يكُن بيدي حيلة ولم أستطِع مواجهة غضبها لو رفضتُ الإنصات إليها. أما أبي، فكانت مشاعره ومشاعر أمي متشابكة، لا يدري أين تنتهي مشاعره وتبدأ مشاعرها. كان يعطف علينا ويسمع

شكوانا، ثم يذهب ليحكي لها كل ما قلنا. لا أتخيَّل أن يخوننا أبونا، لكنه فعل. أشعر دومًا أن أمي أنجبتني لأن الأولاد هم مِداد النرجسي الذي لا ينفد، الذي تربطهم به صلة لا يمكن الفكاك منها.

وتذكرت «ناريمان» أخاها «رامز».. لم يحترق أحد منهم مثلما احترق هو، ولم يصرخ، ولم يشكُ. وهل تشكو أضحيات الآلهة؟

***

لم تغيِّر «بريجيت» الأغنية التي تسمعها منذ أعوام.. أغنية واحدة يكررها برنامج التشغيل كلما انتهت:

«لم أعُد أحلم.. لم أعُد أدخِّن..

لم يعُد لي ماضٍ..

أنا دنسة دونك، أنا قبيحة دونك..

أنا يتيمة في ملجأ».

شرعت تقصُّ أغصان النباتات الجافة وتطليها بمادة حافظة وهي تسترجع ما حدث؛ فهي لا تملك سوى حياة قصيرة، تُعاد في ذهنها كلما وصلت إلى نهايتها.

عاشت «بريجيت» مع عائلة «توماسينو» في الحجرة المُنفصلة فوق سطح بيتهم، وكان الدكتور «رجب» يأتي لزيارتها أسبوعيًا مُحملًا بكل ما تحتاج إليه، بعد أن رفض «ماسيمو» قبول المال الذي ترسله إليها جدتها للإنفاق عليها.

كان «توماسينو» يصحبها معه إلى المصحة النفسية التي يعمل بها في إجازة الشتاء والكريسماس، لتحتفل مع المرضى بالموسم البهيج، وتشاركهم الرسم والتلوين والغناء. مع عجز كفها اليمنى بوضوح، كانت تُقلِّد نوعية الأعمال الفنية التي كان أبوها يصنعها. كانت تمزج عناصر من الطبيعة مع الألوان، وكان المرضى يحبون تلك التقنية لسهولتها

وتنوع وتفرد ما ينتج عنها.

مع إنهاء «بريجيت» دراستها الثانوية، تمنَّت لو تدرس التمريض أو الرسم، لكن عجز كفها منعها من كلا الأمرين. لم تغضب، لكنها كذلك لم تنسَ أن «عادل» هو مَن تسبب لها في كل هذا. لولاه لكان أبوها حيًا، ولدرست ما تشاء.

«أنا مريضة.. معتلة تمامًا..

بالضبط كما هجرتني أمي في مساء يوم، وتركتني وحيدة..

أنا مُتعبة..

أنت تأتي بلا موعد.. وتغادر إلى اللامكان..

وقريبًا سيمر على فراقنا عامان، وأنت لا تأبه».

لذا، عملت «بريجيت» مع الدكتور «رجب» في تنسيق مواعيده، على الرغم من كونه لا يحتاج إلى سكرتيرة أخرى، لكنه شعر بواجب نحوها، فأين ستعمل بعجزها هذا؟

أعوام مرت، وأصيبت «بريجيت» بالذئبة الحمراء في عمر الثامنة والعشرين، صارت أوهن وأكثر عرضة للعدوى والإصابات المُقعِدة. شعرت أنها ستكون ثقيلة على مَن حولها، فلم ترضَ بالعودة إلى منزل «ماسيمو»، فاقترح عليها «توماسينو» اقتراحًا يريح الجميع.

قابلها بالقرب من منزل والده في مارتساميمي، واصطحبها خلفه على دراجته البُخارية حتى وصلا إلى باحة قرب البحر، يسكنها بعض الصيادين في أكواخ صغيرة مُبهجة، وهنا رأت للمرة الأولى الكرفان الذي كان يحكي لها عنه والدها. كرفان أبناء الزهور.

ضحكت «بريجيت» وجرت نحو السيارة الملونة، التي أصابها الصدأ في بعض المواضع. قال لها «توماسينو»:

- لا أظننا سننتظر حتى أموت كي ترثيني.. هو ميراث صدئ بعض

الشيء، لكنه كذلك قابل لحمل بعض من روحك على جدرانه. وأظن أننا كذلك سنعيد مجد الستينيات في أواخر التسعينيات.

- هذا أجمل مِمَّا تخيلت يا سو «توماسينو».. أحبك!

- وأنا أحبك يا ابنتي الصغيرة.. أنتِ هنا وسط أسر الصيادين، وفي الوقت نفسه لديك خصوصيتك. يوجد هاتف عند البقال بالقرب منك. هاتفيني في المصحة أو في شقتي في أي وقت. سأرسل لك «كارلا» من وقتٍ لآخر لو أحببتِ كي تساعدك.

راحت «بريجيت» تدور حول الكرفان، وتتلمس رسومات «توماسينو» القديمة، ثم صعدت إلى داخل حصنها الجديد. يبدو أنه قد نُظِّف بعناية، فلا أثر للزمن أو الغبار فيه. أمسكت ببرطمان زجاجي فارغ يحوي بعض العملات القديمة وهزته بين كفيها. في أحد الأدراج وجدت لعبة قديمة لا يذكرها عقلها، لكن روحها تذكر كل شيء. هنا كانت تنام، وهناك كانت تلعب تحت أقدام «توماسينو» وأبيها. نظرت إلى الأخير من خلال النافذة، ورأت ابتسامته الواسعة في وجهه البرونزي. لو أخذ العالم منها كل شيء، فسيظل ما منحه لها «توماسينو» باقيًا ما بقيت على قيد الحياة. منحها «توماسينو» الذكريات.

* * *

بعد أن أنهت جلسة علاجها، حمل «رامز» «أمنية» النائمة، ودخل بها مدخل البناية. قبل أن يبدأ في صعود الدرجات، انفتح باب شقة الدور الأرضي، وخرجت «بريجيت» حاملة كيسًا بلاستيكيًا أسودَ يعرفه «رامز» جيدًا. كان عليه التخلص من هدية «بريجيت» بعيدًا عن متناول يدها. كعادته في قلب المنضدة، صاح فيها وهو يُنزل «أمنية» أرضًا فتقف على ساقين واهنتين:

- والآن تفتشين قمامتي مجددًا! ألا يكفيكِ سرقة محتوياتها من قبل؟

قالت بثبات وهي تكتم مشاعرَ مُختلطة يغلب عليها الألم:

- دعني أعرِّف مصطلح «قمامة».. القمامة هي ما يتخلَّص منه الإنسان ولا يرغب في استخدامه مرة أخرى؛ لذا، فالقمامة تصير مشاعًا حين يتخلَّص منها صاحبها. أنا لم أسرق منك شيئًا.

- ولو.. الصناديق كانت خارج شقتي وأنا...

- أما عن تعريف الهدية، فهي شيء ممنوح من شخص لشخص آخر بهدف إظهار المحبة أو التقرُّب. وحين تُلقي هدية في القمامة فهي رسالة لا يُمكن إساءة فهمها.

- افترضي أنني لا أريد تقربك ولا محبتك!

- وقتها سيكون رفضك الهدية هو الاعتذار عن عدم قبولها لا التخلُّص منها في القمامة. شكرًا لك.

احتقنت أذنا «رامز»، وهمَّ بترك «بريجيت» والصعود إلى شقته، لكن الأخيرة دفعت إليه باللوحة وقالت وهي تحاول أن تتمالك نفسها:

- لا تتخلص منها.. لمصلحتنا جميعًا، لا تتخلص منها، ولا تهرب مِمَّا تُذكرك به..

أغلقت بابها ووجد «رامز» نفسه ممسكًا باللوحة، و«أمنية» تحدق فيه لا شعوريًا.

صاح فيها:

- فيمَ تحملقين؟!

صعدت الدرجات أمامه وهي تنظر من وقت لآخر خلف كتفها. كان «رامز» يصعد السلم وأمامه ظله، لكن ثمَّة ظلًا آخر جواره يتكسَّر على الدرجات ولا يبدو كظل. كان مُجسمًا كمنحوتة من فحم.

* * *

استلقى «رامز» على الأريكة، ووضع لوحة «بريجيت» أمام الجزء

المُقشر من الجدار وظل يرمقها. ماذا تريد تلك المرأة؟ ولِمَ انصاع لها؟ بل إنه علّق اللوحة المُخيفة ولم يتخلّص منها كذلك!

الذكريات التي يحملها كل عنصر في اللوحة أكثر مِمَّا يتحمل.. الغضب.. الخوف.. الوحدة..

بريجيت حسين الرافعي.. الاسم مألوف إلى حد بعيد، لكن مَن هي؟ كرامته لا تسمح له بأن يعتذر لها ويسألها عن نفسها وعن سر اللوحة. كذلك هو خائف، فما يحدث في شقته لا يعني سوى شيء واحد، أن أباه قد عاد بطريقة أو بأخرى. هو لم يرَه، لكن ما إن يسمع طرقاته اللعين تلك حتى يبدأ الخوف والاضطراب، تمامًا مثلما كان يحدث لهم في أثناء غيابه بالذات.

قام وأنزل التلفاز من فوق الخزانة، ثم حاول دفعها كي يعرف مصدر صوت الطرقات. الخزانة تتحرَّك بصعوبة شديدة وقد حفرت مكانها في خشب الأرضية وصار في تحريكها مشقة عُظمى. هنا أبصر بصيصًا من نور يبزغ من الفراغ تحتها. تمدد على بطنه وراح ينظر من الفتحة الصغيرة. ظن أنه رأى درجات سُلم بيضاء، موضوعًا عليها أُصص نباتات جافة ومناشير صغيرة. هذه هي شقة «بريجيت» ولا ريب.

أعاد الخزانة إلى مكانها وراح يُفكر. لو كانت هي مَن يطرق، فكيف سمع صوت الطرقات وهي عنده؟ هل يسكن معها شخص آخر؟ يجوز. هل تريد إرعابه ليترك الشقة؟ هل تطمع فيها لنفسها؟ وارد.. لكن هناك ما هو أهم من ألاعيب «بريجيت»، ثمَّةَ ما يحدث في الشقة ويدعم مخاوفه، لكنه كذلك لا يدفع تلك المخاوف في سلة «عودة الأب» أو شبحه أو قرينه.. الأمر يبدو وكأن ابنته ذاتها نسخة من جدها التي لم ترَه! أتراها «مخاوية» هي الأخرى؟

رن جرس هاتفه المحمول، ففزع من الصوت، وقرر ألا يرد. لكنه رأى اسم أخته على الشاشة في اتصال مباشر لا عبر «واتساب». الأمر عاجل إذًا.

- «ناريمان»! ماذا حدث؟!

جاءه صوت «ناريمان» عصبيًا عاليًا وهي تصرخ فيه:

- أنت أخبرني، ماذا يحدث عندك؟! ابنتك تتصل بي وأنا على بُعد آلاف الكيلومترات منها وتستغيث بي، بينما أنت لا تعي ما يحدث حولك! ماذا دهاك؟!

- اتصلَت بكِ؟

شعرت «ناريمان» بالغضب يعتمل في صوته، فقالت آمرة:

- اجلس مكانك ولا تمسها.. أتفهم؟! أنت لا تشعر سوى بالغضب يا «رامز»! لا تتعاطف، لا تتفهَّم، لا تحزن! ابنتك فزعة ولا تلجأ إليك. أتفهم ما معنى هذا؟

- معناه أن أمها زرعت في عقلها كراهيتي لا أكثر.

- معناه أن الطفلة لا تجد معك أمانًا يا «رامز»، وكفى كذبًا. ربما كانت «لمياء» طليقتك تعاني مشكلات كثيرة، لكنها لم تكُن السبب في طلاقكما. أنت تعرف وأنا أعرف.

- «ناريمان».. سأرى ماذا دها «أمنية»، أغلقي الخط الآن وسأكلمك لاحقًا.

- انتظر!

أغلق «رامز» الخط، وكوَّر قبضتيه ودخل على «أمنية» النائمة في حجرتها. كانت تغطي رأسها، لكن جسدها كان يهتز كأنما تكتم بكاءً.

انتزع الغطاء من فوقها، فتكورت كالقط وأزاحت نفسها إلى أبعد نقطة عنه. كانت ترى خلفه الظل الأسود، لا يتكسر على الجدار، وإنما كان ملتصقًا بظهره، لا يشبهه في شيء.

- الآن تشكين إلى عمتك. أنا المُخطئ دائمًا!

- بابا.. أنا لم أشكك.. حكيت.. فقط..

صارت ترتجف، وتقلّص فكاها رُعبًا، فلم تستطع الكلام أكثر. جذبها «رامز» من ملابسها، وقد زالت عنه قدرته على السيطرة على غضبه. «أمنية» مثل جدها، وتلقي اللوم عليه.. «أمنية» مخاوية..

صرخ فيها:

- احكي لي، ما تفسير ما أراه منك؟ لا تقولي لي إنني أتخيل أو أهلوس.. انطقي!

صرخت «أمنية» فصفعها. صمتت واتسعت عيناها رُعبًا. ما زال الظل الأسود خلفه، ينثر في أثناء حركته ما يشبه الرماد على وجه أبيها وشعره. أفلتت نفسها من بين يديه وحاولت الفرار، لكنها كانت أوهن من أن تجري. مدت يدها تمسك هاتفها المحمول، فألقاه «رامز» بعيدًا عنها.

- ستتصلين بجدك هذه المرة، أم أمك التي وجدت أخيرًا فرصة في

الخلاص منك؟ لِمَ تجحدين كل ما أفعله من أجلك؟ لقد سئمت أفاعيلكم.. سئمت!

تركها «رامز» وخرج إلى مكتب أبيه. لاحظ في أثناء مروره أن الحائط خلف لوحة «بريجيت» قد تقشّر أكثر، وظهر توقيع على خلفية ملونة، توقيع يحمل اسم حسين الرافعي، بالإنجليزية.

ظل يجول في الصالة يفكر فيما عساه أن يفعل بـ«أمنية». ثم تساءل عمّا قالته لـ«ناريمان». بالتأكيد حكت لها الأكاذيب كما كان يفعل جدها.

بالتأكيد..

ثم.. هذه اللوحة.. هذه اللوحة..

***

قبيل الفجر، قامت «أمنية» مُترنحة تبحث عن هاتفها وهي تبكي، لكنها لم تجده. يبدو أن أباها قد أخذه منها. دخلت الحمام وغسلت وجهها، ثم انتابتها نوبة قيء شديدة ألقت بها إلى الأرض. صارت أوهن من أن تبكي. لقد كان شبح جدها مُحقًا، لا مكان لها هنا ولا في أي مكان في هذه الحياة.

لكنها كذلك تخشى الموت، تخشى المصير الذي حكا لها جدها عنه، أن تتحلل وتأكلها الديدان تحت الأرض. سمعت أصوات آلةٍ ما تعمل بالأسفل، وتذكرت رائحة الدفء التي فاحت من شقة الجارة الغريبة. لم تخَفْ منها على الرغم ممَّا قالته لأبيها وما فعلته معه، وعلى الرغم من إصرارها على إهدائه لوحة تضم أجزاء من ممتلكات جدها.

وقفت «أمنية» على المرحاض وفتحت النافذة، وتمسكت بها كي لا تسقط بسبب الدوار. رأت من بين أكياس القمامة رأس «بريجيت» وهي تتحرَّك منحنيةً. فكرت أن تنادي عليها، لكن ماذا بعد؟ ما عواقب تصرف كهذا؟

عادت «أمنية» أدراجها بعد أن مسحت قاعدة المرحاض، وأعادت ضبط المناشف على المشجب. رأت أباها وسط ظلام الصالة يحدق في اللوحة، وفي الألوان المتبدية من خلفها. أخذ سكينًا وبدأ في كحت الطلاء، وقد بدا لها منفصلًا تمامًا عمَّا حوله، وكأن في إزالة تلك الطبقة خلاص نفسه.

هنا سمعت «أمنية» دقاتٍ ثلاثًا من تحت الخزانة، وكانت دقات قوية؛ حتى إنها ظنت أن التلفاز سيهوي أرضًا. نظر «رامز» تجاه الصوت، ثم سمعا صوتًا مماثلًا قادمًا من ناحية الحمام. كانت «أمنية» واقفة قُربه، فَعَدَتْ نحو غرفتها واحتمت ببابها وهي تنظر من خلفه، لا تدري سببًا محددًا لخوفها.

سار «رامز» نحو باب الحمام، فوجد النور مُضاءً، وأبصر ظلًا خلف الباب. قبض على المقبض لثوانٍ، لكن الأخير تحرَّك كأنَّ مَن بالداخل

يُديره..

* * *

لم تدرِ «ناريمان» ماذا تفعل بشأن ما حكته «أمنية» عن الأشباح التي تراها. تفاصيل لا تعرفها الصغيرة عن يوم وفاة جدها، تحكيها لها وهي ترتجف، وتشكو من عودة الجد، يحادثها عبر النظارة القديمة، ويظهر لها في تجسدٍ أسود مُرعب تراه أحيانًا مُلاصقًا لأبيها، وأحيانًا مُنفردًا.

لم تكُن تلك هلاوس المرض، أدركت «ناريمان» هذا منذ أول كلمة حكتها الطفلة. هل عاد عادل دميري بعد كل هذه الأعوام؟

هل رحل من الأساس؟

سمعت ثلاث دقات على بابها. أمسكت بطرف مكتبها وقامت لتفتح الباب وقد كانت موقنة أنها لن ترى أحدًا خلفه. بالفعل لم يكُن ثمَّة أحد، قبل أن تغلق الباب، وجدت ذراعًا حالكة تمتد وتمنعه من الانغلاق. لم تكُن يدًا بشرية سمراء اللون، بل كانت سوداء فاحمة، تنثر غبارًا حولها بينما «ناريمان» تصرخ وتدفع الباب أكثر.

تلك الذراع، القوة، الغبار الأسود..

لم يرحل عادل دميري، ولن يرحل..

تذكَّر يوم العاشر من أغسطس ١٩٨٣م.. إجازتهم الأولى في مصر..

* * *

١٠ أغسطس ١٩٨٣م

الدقي - الجيزة

الجو حار، التكييف يعمل على أعلى طاقة له. «رامز» جالس يشاهد فيلمًا لفؤاد المهندس ويضحك. لم يكُن أبوهما في المنزل، ولم يكُن سيعود إلا بعد أربعة أيام. كان يعد الساعات الباقية، وكلما تناقصت

انقبض قلبه الصغير. ينظر إلى قدمه المُضمدة وتلحُّ العَبَرات في الفرار من عينيه. لكنه قد قرر ألا يسترجع أي أمر يُحزنه خلال الأيام التي يغيب فيها أبوه عن البيت.

أما «ناريمان» فكانت تعرف جيدًا كل ما يدور في خلد «رامز»، كانت متمرسة في فنون قراءة الملامح واستنباط الحالات النفسية؛ لذا كانت تنجو من عواصف أبيها دومًا.

يومها، كانت تساعد أمها في المطبخ على قدر معرفتها، وطلبت منها «حنان» أن تنزل لشراء كيس مكرونة وعلبة صلصة. فلم يكُن «رامز» قادرًا على السير بسبب إصابة في قدمه. كادت «ناريمان» تنزل لكنها سمعت طرقات على باب الحمام، ثم هوت قِدر الماء من بين يدي أمها. جرت الأخيرة لتُغلق التلفاز. نظر إليها «رامز» ممتعضًا، لكنها لم تأبه، وشغلت القرآن بصوتٍ عالٍ. أدركت «ناريمان» ما سيحدث، وأدركت أن أمها ستنكر كل شيء، وسيخاف «رامز» حتى يبلل ملابسه، ولن يتحدث هو الآخر.

ما زالت تذكر كيف كان «رامز» يُلحُّ على أمهما قبل يوم أن تدعه يلعب بلوح الطاولة أو ببطاقات الكوتشينة التي تحتفظ بهما في خزانتها المُغلقة. وكيف كانت ترفض وتُذكره بأن أباه يقول إن اللعب بهما حرام. وتذكر «ناريمان» كيف تسلل وفتح الخزانة، وأخرج البطاقات اللامعة وراح يتحسسها في فضول ويتشمم رائحة دخان السجائر والعطر العالقة بها. كان سعيدًا بمغامرة صغيرة كتلك، وابتسمت وهي ترقبه من بعيد؛ فقد فعلت مثله مرارًا، لكنها لم تكُن تخبر أحدًا بتسللها.

كذا كان يفعل أبوها من وراء الجميع.. يُدخن، يشرب، يحادث الناس هاتفيًا، لكن أمامهم لم يكُن سوى «عادل» التقي الوَرِع.. وهنا رأته.. شبح له ذراعا أبيها يبزغ من داخل الخزانة ويدفع «رامز» إلى الحائط المُقابل، فيتعثر وتُجرح قدمه.

دخلت الحجرة لتراه راقدًا على الأرض ينظر نحو الخزانة في فزع.

طلب منها أن تعيد البطاقات إلى مكانها سريعًا وتغلق الخزانة قبل أن تأتي أمهما، لكن «ناريمان» تجمدت مكانها. كان في مقدورها إنقاذ موقفه وإخفاء فعلته، لكنها لم تفعل. كانت خائفة، كانت تستعيد لذة إبلاغ أمها عن أخطاء «رامز»، وكانت تشعر بالإثم للذتها تلك.

والآن، يبدو أن للطرقات الثلاث معنى. ويبدو أن شيئًا على وشك الحدوث. ارتباك أمها، العرق المتصبب من جبين «رامز». صاحت «حنان» بها أن تنزل لشراء الطلبات، فنزلت سريعًا وهي تنظر خلف كتفها مُتسائلة، لِمَ لا يؤذيها الشبح كما يؤذي أمها وأخاها؟ لِمَ لا تشكو أمها لأبيها مِمَّا يحدث؟ ولِمَ تُنكر حدوثه؟ هل الشبح يشبه أباها لأنه هو شبح أبيها؟ وكيف يكون للإنسان شبح وهو حي؟

كانت تخشى الشكوى كي لا يخاصمها والدها، وهو أقصى وأقسى ما يفعل معها. لكنها كانت خائفة، ولم يكُن لديها مَن تحكي له.

توقفت عند شقة الطابق الأرضي، وتذكرت «بريجيت» و«حسين»، والرجل الذي كان يسكن معهما ولا تذكر اسمه. «بريجيت» آمنة وسعيدة، هكذا كانت تبدو دومًا. «حسين» كذلك يبدو مُسالمًا على الرغم من كل ما يقوله أبوها عنه وعن ابنته. ما معنى كلمة «فاسقين» التي كان ينعتهما بها؟ ولِمَ لم يسمح لها ولأخيها باللعب مع «بريجيت» أبدًا؟

من أعلى السلم، سمعت «رامز» يبكي، ظنت أن أمها تضربه، لكن بعد ثوانٍ سمعت صرخات أمها ورجاءها شخصًا ثالثًا معهما أن يسامحهما وأن يترك السكين!

لم تتردد «ناريمان» في الطرق على باب جيرانها. الأمر قد صار فيه سكين كذلك..

* * *

ما زالت اليد السوداء تحاول دفع الباب، ولم تعُد «ناريمان» قادرة

على المقاومة أكثر. تركت مكانها وجرَت نحو المطبخ وسحبت سكينًا كبيرة وشهرتها عائدة إلى حيث المُقتحِم. فليذُق طعم السكين ولو لمرة..

* * *

تراجع «رامز» عن باب الحمام، وأمسك بيد «أمنية» وجذبها نحو باب الشقة. يبدو أن مُتسللًا قد دخل إليهما. لكنه لم يستطِع أن يخرج أو يتصل بالشرطة حتى. ظل يرمق المقبض وهو يدور ببطء عاجزًا عن الحركة.

كانت هذه مرة أخرى من المرات التي كان يشعر فيها أنه يتصرف كرد فعل على فعل لا يذكره. لا يذكر سبب هلعه من الطرقات الثلاث.. لا يذكر سبب تردده في الفرار أو المواجهة أو طلب الغوث.

انفتح باب الحمام ولم يرَ أحدًا بالداخل. جذبت «أمنية» ذراعه مانعةً إياه من الذهاب لفحص المكان، وأشارت إلى الظل على الأرض وهي تدعو الله أن يرى ما تراه.

باب الحمام مفتوح على مصراعيه، والظل على الأرض مجسم، كجسدٍ متفحمٍ يزحف حاملًا سكينًا في يمناه. كان يهمس فتسمعه «أمنية» وأبوها على حد سواء:

- حفيدتي.. لقد آذاكِ، وستكون هذه آخر مرة يؤذيكِ فيها. «رامز».. ماذا فعلت أيها اللعين بشقتي؟ أين أغراضي؟

ثم صرخ الظل:

- تعالَ هنا أيها المؤذي!

يزحف الظل نحوهما كتمساح غاضب. تفتح «أمنية» باب الشقة وتسحب «رامز» الذي تجمَّد مكانه خارجها. تعدو نازلةً الدرجات وهو خلفها، وهو حافٍ لا يستطيع حتى أن يُنزل عينيه عن فرجة الباب،

وصوت الزحف والحفيف كأنما يزحف الظل على أوراق شجر جافة.

وقفت «أمنية» عند باب «بريجيت» تطرقه وتصرخ:

- طنط.. افتحي أرجوك..

فجأة أفاق «رامز» من تجمُّده، ونظر نحو «أمنية» حانقًا، ثم جذبها ليخرجا إلى الشارع.

- ألن تكفّي عن فضحي في كل مكان؟ مَن هي كي تطرقي بابها؟ أجُننتِ؟

- أين سنذهب؟!

وقف «رامز» في الشارع ينظر يَمنة ويَسرة. لم يكُن معه مال ولا هاتف، ولم يكُن يعرف أحدًا في الشارع. لطالما كانا معزولين لا يعرفان أحدًا ويخشى الجميع مغبّة معرفتهما.

جلس على الرصيف يرتجف، ما زال جرح قدمه واضحًا كخط أبيض فوق كعبه. لكن الأوضح هو أثر حرق السكين على عضده.

شعر بمن يقترب خلفه فأجفل والتفت ليرى «بريجيت» متدثرة في شالها. تمنت «أمنية» لو استطاعت أن تجري نحوها وتختبئ بين ذراعيها، لكنها ظلت واقفة عند جذع الشجرة ترتجف من البرد حتى اقتربت منها «بريجيت» ووضعت الشال الذي تفوح منه رائحة الفانيليا والكيماويات حول كتفيها وهي تسأل «رامز» في قلق:

- ماذا حدث؟!

- لا شيء.. عودي إلى شقتك. شكرًا. هيا يا «أمنية».

قام «رامز» وأمسك بيد ابنته، لكنه كان عاجزًا عن الحركة أو اتخاذ القرار. إلى أين سيذهبان؟ ابتسمت «بريجيت» وقالت:

- لستُ غاضبة بشأن اللوحة. اعذرني، أحيانًا ما أصاب بنوبات غضب.

أرجوك، كنت سأوضّح لك أهميةِ اللوحة حين زرتك أول مرة، لكنني.. هل تسمح لي بفرصة للحديث معك؟

- بشأن؟

- بشأن ما يحدث في شقتك. ألا تذكر فعلًا يا «رامز» مَن أكون؟ ألا تذكر يوم جاءتنا «ناريمان» تستغيث من شبح أبيك؟

* * *

عادت «ناريمان» من المطبخ لتجد أباها أمامها، تمامًا مثلما كان في شبابه.. البذلة الأنيقة ونظارة الشمس، وكان جالسًا على الأريكة فاردًا ذراعيه على ظهرها، واضعًا ساقًا فوق الأخرى:

- «نانا».. لِمَ السكين؟

كانت ترتجف وقد جفّ ريقها. لا بُدّ من أن يكون كل ذلك وهمًا، لا وجود للأشباح.. لكنها تعرف جيدًا أن شبح أبيها كان حقيقيًا، قادرًا على إلحاق الأذى البدني. لكنها لم تره منذ سبعة عشر عامًا، منذ يوم وفاة أبيها، فلأي سبب عاد الآن؟

لقد فتح «رامز» صندوق باندورا وأقلق اللعنة في مرقدها. «رامز» السبب.. «رامز»...

- هل تصدقين قلبك يا «نانا»، أم تصدقين هؤلاء الفَسَقة؟ هل آذيتُكِ يا «ناريمان» كي تقبلي كل هذا الكلام الفاسد عنّي؟ لقد خاب أملي فيكِ كما خاب في أخيكِ وأمك. كنت أظن أن ما حدث يوم وفاتي غير مقصود منك. لكنني كنتُ مُخطئًا. والآن تشهرين عليّ سكينًا!

- أنتَ لست أبي.. اخرج من هنا..

كانت كلماتها واهنة راجفة وهي تتراجع للخلف حتى وجدت هاتفها المحمول، ثم أردفت:

- سأتصل بالشرطة.. اخرج من هنا.

ضحك «عادل» غير مُبالٍ، ثم قام يتجول حول مقتنياتها قائلًا:

- لقد أفسدتكما «حنان».. انظري إلى ما آلت إليه حياتك بسبب عصيانك لي وغضب الله عليكِ. أنتِ وحيدة، بلا زوج ولا طفل. مجرد ممرضة بلا مستقبل. منبوذة، خائفة. ألا تتعظين أبدًا وتريدين إيذاء أبيكِ مرة أخرى؟

- ماذا تريد منا؟

- ما يريده الأب من أبنائه. أن يظل وسطهم، يحميهم من شرور أنفسهم. هذا ما كنت أفعله وأسأتم تفسيره دومًا. لقد شهد الجميع بحسن أخلاقكم وتربيتكم، فهل هذا جزائي؟

ظل يقلّب في أوراقها، ويتفحص محتويات الأدراج والخزائن. ثم تقدم منها سريعًا وأمسك بكفها القابضة على الهاتف المحمول وقال من بين أسنانه:

- «رامز» السبب، وها أنتِ تسيرين على هواه. لطالما خدعتِني يا «ناريمان» وكنت تتصرفين كما تشائين من وراء ظهري. وكنت أغفر لك لأنك ابنتي.. تشبهينني. أنا أعرف كل شيء، وكل ما أخفيتِه عني. وستدفعين ثمن كل أخطائك في حقي يا «ناريمان».

رحل «عادل»، وترك آثارًا محمرة على كفها. سقط الهاتف من يدها وتهاوت أرضًا. ظلت تبكي وهي عاجزة عن إقناع نفسها بأن ما رأته وهم، وأن ما قاله كان زورًا. أبوها كان حقيقيًا، وما قاله كان حقيقة مخلوطة بالبهتان، لكنها غير قادرة على التمييز. إحساسها بالذنب طغى على تفكيرها وقيّدها في مكانها. ما فعلته هي وأمها يوم وفاة والدها لم يُغتفر ولم يمر في سلام.

* * *

مارتساميمي - صقلية

٨ سبتمبر ٢٠٠٥م

عاشت «بريجيت» في الكرفان سنوات طويلة، تصارع المرض والعجز وقلة العمل. لم يرافقها في وحدتها التي اختارتها سوى اللوحة التي رسمها «توماسينو» لأبيها وبعض متعلقاته القديمة التي كان قد تركها قبل استقراره في مصر. لسنوات لم يفارقها التفكير في لوحات أبيها، التي صنعها خاصةً كي يحبس ذكريات أمها وجدتها. تذكر كيف عاد شبح أمها ورأته حين أعاد «عادل» لصق أشلاء لوحتها، وتساءلت عن السبب الذي أراد أبوها أن ينسى أمها من أجله. ألم يحكِ لها عن قصة حبهما وتوق أمها إلى إنجابها؟ كيف تأثر بحديث شبحها إذا كان ما قاله الشبح كذبًا؟ ما علاقة الشبح بـ«عادل» من الأساس؟

حتى جاءها «توماسينو» وأخبرها أن جدتها قد توفيت، تاركة لها ميراثًا معقولًا كونها وريثتها الوحيدة. وقبل أربعة أعوام كان قد أخبرها الدكتور «رجب» بوفاة «عادل» جارها، وأنها إن شاءت العودة لشقتها أعادها أو ساعدها في بيع شقتها، لكنها رفضت كلا الاقتراحين. لم تجد في نفسها القدرة وقتها على مواجهة عودة «عادل» إن عاد، ولا بد من أن يعود. أي حياة تلك التي ستحياها في أي مكان على سطح الأرض لو لم تفهم ماضيها وتعرف ما تدفعها إليه الأيام؟!

طلبت من «توماسينو»، بعد وفاة جدتها، أن يجيب عن كل أسئلتها بصراحة؛ فهي لم تعُد طفلة وعليها مواجهة العالم لا الاختباء في أمان ماضي أبيها وصديقه.

حين جاءها «توماسينو»، أخرج علبة بها الألبومات الغنائية التي كان يحب هو و«حسين» سماعها في شبابهما، وشغل أغنية قديمة كان يحبها، وأحبتها «بريجيت» حين سمعتها لاحقًا. صوت «داليدا» وحزنها وفرنسيتها المخلوطة بالإيطالية. لو كان لـ«بريجيت» نسخة أخرى لكانت «داليدا».

«تشاو تشاو بامبينا..

وداعًا وداعًا يا صغيرة..

قولي: أحبك، للمرة الأخيرة.

فقريبًا سأفقدك، ولكم يحزنني فقدك ويُشجيني».

ضحكت «بريجيت» لاختياره، وسألته:

- من قال لك إنني سأرحل؟

- لقد شارفتُ على الخمسين يا «بامبينا»، وتظنين أنني لن أعرف الفراق حين أراه قادمًا.

- ليس فراقًا يا سو «توما»، أحتاج إلى أن أعرف كي أبدأ رحلتي؛ فكما ترى، لقد كبّلتني الذكريات والأحزان وأقعدتني. أنا أحب مصر، وأحب الدقي وشوارعها وشقتنا وذكرياتنا هناك. عليّ أن أتخطى ما فعله «عادل» بنا، أريد أن أفهم كي أواجهه حين يعود.

- صغيرتي.. «عادل» مات ولن يعود.

- أنت تعرف أن شبحه كان حقيقيًا.

- كان.. نحن مَن نُضفي الحقيقة على أشباحنا يا «بريجيت». لم أنجرف يومًا نحو إضفاء تفسيرات عقلانية لكل ما هو ليس ماديًا. كنت ببساطة أتخطاه وألتفت إلى الحياة الحقيقية.

- أختلف معك بشدة. الحواس خادعة، ربما نكون أنا وأنت وشبح «عادل» سواء.. كلنا أوهام، أو كلنا حقيقة. شبح «عادل» قتل أبي.

- «عادل» هو من قتل أباك بتلاعبه به. ما انفك يدمره ويهاجم ثقته بنفسه وكأنه عدو له. «عادل» كان ورمًا سرطانيًا لا يفرق بين سليم وسقيم. لا تقولي أبدًا إن شبحًا قد قتل «حسين».

ما زالت «داليدا» تتغنى:

«تشاو تشاو بامبينا..

من يعرف، فقد تتقاطع طرقنا يومًا.

والسماء المُرتابة الليلة، تبكي وتبكي على حبنا».

أخذ «توماسينو» بيد «بريجيت» وصعد بها إلى سطح الكرفان؛ حيث كان هو و«حسين» يرمقان العالم من أعلى، وسط رسومات الأزهار وعلامات السلام. الصدأ يرسم بلونه الكالح فوق الألوان الزاهية، ويبدو أنه قد انتصر أخيرًا على أحلام أبناء الزهور.

- «جيجي»، قضيت نصف حياتي تقريبًا أحيا في وهم، أهرب من الواقع، أرسم فوق سواد مخاوفي بالألوان وأتظاهر أن كل شيء على ما يُرام. لكنني كنت أطارد وهمًا، وكذا فعل صديقي «حسين»، كان يطارد أمك إلى عالم مجهول، لا يعرف حتى إن كانت موجودة فيه أم لا، وقد فقد حياته بسبب أوهام كتلك. أعرف أن العالم مليء بالغوامض، وكلنا يسعى إلى إغلاق كل علاقة مواربة، أو وضع نهاية لكل حدثٍ مبتور. كل ما تريدينه يا ابنتي هو إغلاق مناسب لصفحة «عادل» هذا. الصدأ قد أكل رسوماتي مع مرور السنوات لأنني طيلة الوقت كنت أغطيه بالألوان ولا أفكر أبدًا في إزالته. صدأ الروح يثقلها فتكبلك وتُبقيك للأبد في هاوية أحزانك. تخلصي من صدأ «عادل» أولًا.

- وهذا هو ما أريد فعله! أن أزيل «عادل» نهائيًا من ذكرياتي.

- كيف؟ ستنتقمين من شبح؟

وحدة «بريجيت» وعزلتها ومرضها لم تترك لها سوى ذكرى أبيها، ويوم ذبح نفسه ضعفًا ويأسًا. لم تكُن ثمّةَ خُطة مُحددة في عقلها، لكن لوحات أبيها الأخيرة كانت تُلح عليها. كيف حبس ذكرى أمها وجدتها في لوحتين، ثم بدأ رحلة تعافيه من الادمان؟ ما فعله أبوها كان ذو

اللوحة.. يتذكر تفاصيلها اللعينة..

من أعوام طويلة، في يوم صيفي حار..

قدمه تؤلمه، يكبت ألمه وخوفه ليخرجهما على هيئة تنمر وغضب دائمين على أمه وأخته. لا يستطيع أن يبكي؛ فالرجال لا يبكون، لا يستطيع أن يطلب المساعدة؛ فالرجال لا يضعفون.

كان طفلًا مُمددًا ممطوطًا في جسد رجل، ولم يفلح أي شيء في ملء الفراغ بين حقيقته وما أراده أبوه أن يكونه.

يسأل «بريجيت»:

- أنتِ تعرفين بشأن الشبح الذي يظهر لنا فعلًا؟ كيف؟

- الشبح هو شبح والدك كما حكيتُ لك يا «رامز». هو من أصاب كفي بعجز دائم، وهو مَن قتل أبي.

تحسَّس «رامز»، لا شعوريًّا، موضع حرق السكين على عضده، وآلمته قدمه كما كانت تؤلمه يوم إصابتها، حين ظهر له شبح أبيه ودفعه بعيدًا عن الخزانة وهو ما زال طفلًا.

العاشر من أغسطس..

لم يكُن ذلك اليوم ليمر بسلام أبدًا؛ فمنذ الصباح كان جده لأبيه يحادث أمه هاتفيًا، ويلومها على كونها لم تأتِ لزيارتهم منذ أن عادت إلى مصر. ثم سمعها تدافع عن أبيه، وتتعلّل بأسباب لا يذكرها، لكنه يذكر أنها كانت تبكي وهي تسند ظهرها إلى الحائط كأنها تحميه من هجوم خفي، وتنظر تجاه باب الحمام الموصد.

رائحة الطلاء الحديث تزكم أنفه، ألم حرق عضده الطازج حين رآه أبوه أو شبحه يجرح الطلاء الطري بطرف قلم. كان ينهره ويذكّره بأن عذاب الله له سيكون أشد من عذاب سكين ساخنة.

بعد إنهاء أمه مكالمتها، ظلت تبكي، لم يأبه لمواساتها؛ ففيلم فؤاد

المهندس أفضل من التواصل مع أي شخص في هذا المنزل. مشاهدة الأفلام صارت حرامًا في بيتهم؛ لذا فعليه مشاهدة أكبر قدر منها قبل عودة والده من خلوته.

ثم جاءت الطرقات على باب الحمام، فسقط وعاء من بين يدي أمه. أغلقت التلفاز، وشغلت القرآن الكريم. اقشعرَّ بدنه حين تذكر ما قاله أبوه، بأن الله يرى ما يفعل في غيابه، وسيرسل له مَن يخبره.

كان يعرف أن «ناريمان» هي الرسول الذي يأتي دومًا بالباطل.. الجبانة، ابنة أبيها. حين رآها تخرج كي تشتري بعض الطلبات كما أمرتها أمهما، شعر براحة، فذهب ليشغل التلفاز مجددًا.

وانفتح باب الحمام على مصراعيه..

* * *

لا تعرف كيف وجدت «ناريمان» نفسها تدق باب «ويلارد» حافيةً بملابس المنزل. كانت تنظر خلفها في ذعر، بالضبط كما فعلت منذ خمسة وثلاثين عامًا تقريبًا.

كل تعقُّلها يتهاوى، كل ما قالته الدكتورة «مُهرة» عن حالتها وعن ضرورة مواجهة نفسها بالحقائق، وعن أن أباها قد مات ولن يعود إلا ما سمحت هي به من ذكراه. كل شيء ظنت أنها تخطته يعود ويتكوَّم أمامها كحاجز مستحيل العبور.

فتحت لها «لوين» فَزِعةً، فترددت «ناريمان» في الدخول. ماذا لو آذى الشبحُ اللعينُ أحدًا آخر؟ ما زال منظر الدم يتدفق من كف «بريجيت» لا يفارقها. كان هذا هو اليوم الذي رأت فيه كل آثامها الصغيرة تتجسد أمامها.

من خلف «لويز»، رأت «ويلارد»، يرتدي نظارة المسافات ويطوي كتابًا يحمله. قالت «ناريمان»:

- شبح أبي عاد يا «ويلارد»!

ثم سقطت مغشيًا عليها.

* * *

يذكر «رامز» أباه يخرج من الحمام، شاهرًا سكينًا. كان هو، لكن في هيئة مُختلفة، بلا لحية ولا زبيبة صلاة.

جرت أمه تحول بينه بين وأبيه. كان يتقدم منهما مبتسمًا، وهو يقول:

- أرأيتما كيف أن الله يرسل إليّ مَن يخبرني بكل شيء؟ اقبلا عذابي وانجوا من عذاب الله. كل ما أريده هو مصلحتكما.

الصوت صوت أبيه، لكنه كان بعيدًا، كأنما يأتي من كون آخر. يبكي «رامز» فجأة.. يصرخ..

حملت «حنان» «رامز» وجرت نحو الباب، لكنه كان موصدًا. لأول مرة تصرخ «حنان» في الشبح:

- ماذا تريد منّا؟ ماذا فعلنا لأجل كل هذا؟! الرحمة! اترك السكين!

كان أبوه مصممًا على أن يحرقه، فأشعل القداحة وراح يسخّن طرف السكين ببطء وتلذذ. دفعت به أمه أمامها كي يدخلا إحدى الحجرات، لكن بابها صُفع في وجهيهما. كان «رامز» مشلولًا، لا يعرف بمَ يشعر، وما إذا كان عليه الشعور بأي شيء.

قال شبح «عادل»:

- أنتِ كذلك تستحقين العقاب الشديد، فكيف لأم أن تجهل أين تذهب ابنتها؟ ألم أقل لكِ إن «حسين» وابنته فاسقان؟

ثم صاح في غضب:

- ألم أقل ذلك؟!

بكى «رامز» وبكى، وهو يعلم عقاب البُكاء جيدًا، فلم يكُن يتحمَّل نبرة الصوت العالية تلك. احتضنته «حنان» وهي ترتجف وترجو الشبح أن يسامحهما. أغلقت عينيها ودست رأسه الصغير في صدرها لعلّ الشبح ينصرف، لكن في كل مرة كان «رامز» يسترق النظر، كان يرى أباه واقفًا أمامهما، باسمًا، مُتلذذًا بذعرهما.

مرت الدقائق طويلة، واختفى الشبح. قامت «حنان» مُترنحة تمسح وجه «رامز» بكفها، لكنها سمعت صوت «عادل» من خلفها يهمس:

- هذه كي تذكري أنني أعرف كل شيء.

صرخ «رامز»، وشعرت «حنان» بألم حار على جبينها. ثم انهمرت الدماء كالشلال على عينيها. لم تكُن ترى مَن فعل بها هذا، لكنها كانت تعرفه، وتعرف أن «رامز» لن يكون في أمان. راحت «حنان» تطرق على اللوح الخشبي الذي يفصلها عن جارها الذي لم ترَ وجهه منذ لجأت إليه قبل أن تلد «ناريمان».

- أستاذ «حسين».. أستاذ «حسين».. افتح.. أرجوك افتح.

لم تكُن تعرف إن كانت تناديه كي تأخذ ابنتها من عنده، إن كانت عنده فعلًا، أم تناديه كي تهرب إليه.

سمع «رامز» صوت جارهما يحاول كسر اللوح الخشبي بينهما، ظل يبكي فزعًا، وكان غاضبًا عوضًا عن الشعور بالغيرة من شجاعة «ناريمان». لم يكُن يعرف شعورًا سوى الغضب، فالرجال يغضبون.

انكسر الحاجز، فدسّ «رامز» ذراعيه يحاول أن يلقي نفسه في أحضان مَن يتلقفه بالأسفل، فكان منظر وجه أمه الدامي مفزعًا. سمع صوت صراخ أمه، ثم شعر بمن يجذبه من ساقيه. كلا الطرفين كان يجذب، حتى إن ابنة جارهما كانت تجذب مع أبيها النحيل، ثم رأى السكين تأتي من خلفه تطعن كفها. وتخلت هي وأبوها عنه.

لم يستطِع «رامز» أن يلتفت إلى من يجذبه من ساقيه، رأى أمه تنظر

إلى من يقف خلفه، وتومئ برأسها في ذعر وهو يقول:

- كما تشائين يا «حنان»، اهربي لو شئتِ.

قامت «حنان» ونزلت بضع درجات، ثم عادت تجر «ناريمان» الباكية الصارخة من ذراعها وهي تصيح:

- أغلق تلك الفتحة بسرعة، ولا تتدخل في شؤوننا مطلقًا، أتفهم؟ مُطلقًا.

* * *

أفاقت «ناريمان» لتجد نفسها في طوارئ المستشفى الذي تعمل به، وبجوارها دكتور «ويلارد» وزوجته.

للحظة توقعت أن ترى «بريجيت» تنزف، و«حسين» يعدو بها بحثًا عن مُساعدة. هذا مشهد لم ترَه في الواقع، لكنها تخيلته كاملًا وهي تصعد السلم الداخلي مع أمها، كتفها تكاد تنخلع، وقلبها مُنفطر من الدماء التي تغرق كف «بريجيت» ووجه أمها.

مجرد أن بزغ رأسها من أرضية الشقة، في العاشر من أغسطس ١٩٨٣م، رأت «رامز» متكوزًا في ركن يبكي، وفي عينيه غضب عارم. وكزتها أمها، ودفعت الخزانة الثقيلة بما فوقها كي تسد فتحة الأرضية. كانت خزانة ضخمة، وراحت أبوابها تنفتح وتتساقط منها محتوياتها أرضًا، لكن أمها مُصممة على غلق الفتحة الآن وكتم صوت أنين «بريجيت» وصيحات «حسين» المرتبكة.

وقفت «ناريمان» تنظر حولها، طفلة ما زالت، لكن عقلها يجاهد كي يفهم وينضج قبل أوانه. رأت كلًا منهم معزولًا في جزيرته الخاصة، مُحاطًا بسياج من الخوف والألم والذكريات السيئة.

لا تذكر «ناريمان» أي ملجأ من ذكريات جيدة، كل أعوامها القليلة كانت عبارة عن فترات هُدنة قصيرة مُتوجسة، بين غارات تُشَنُّ على كل

واحدٍ منهم في معزله، حيث لا يستطيع أن يصرخ أو يستغيث، أو أن يثق بمن حوله ولا بنفسه.

جلست «حنان» واجمةً تنظر بطرف عينها نحو الحمام، وقد تجلط الدم على وجهها ولطخ شعرها. سكين مطبخ كبيرة مُلقاة على الأرض. تسألها «ناريمان»:

- ماذا حدث؟

- لم يحدث شيء. لن تنزلي وحدك مجددًا أبدًا. أتفهمين؟

- ماما.. كنت خائـ...

- اخرسي تمامًا..

قامت «حنان» ودخلت المطبخ، تتحرك كآلة، تطبخ طعامهم كأنَّ شيئًا لم يحدث، حتى إنها لم تغسل وجهها أو تنظف ملابسها. تسللت «ناريمان» إلى الشرفة، وتخفّت خلف الستار، ورأت «حسين» يطوق كتفي «بريجيت» بذراع، وبكفه يضغط على كفها الدامية. ينتظر سيارة أجرة في هلع حقيقي. لم تكُن «بريجيت» خائفة على نفسها، بل خائفة على أبيها. علاقة بسيطة للغاية، مؤلمة للغاية. كيف يمكن لشخص أن يحب أباه دون تعقيدات هكذا، بلا خوف أو توتر أو حسابات لكل تصرف أو كلمة؟!

ما حدث بعد ذلك لم تستطِع «ناريمان» استعادته من ذاكرتها أبدًا. آخر ما تذكره هو الغداء الذي تحوّل إلى العشاء دون مكرونة بالطبع، ثم ذهاب كل منهم إلى فراشه. تذكر أنها لم تنم ولم ينم «رامز»، ولا تذكر شيئًا آخر.

تجلس «ليزا» جوارها على سرير غرفة الطوارئ، زملاؤها يمرون كي يطمئنوا عليها فتطمئنهم شاردة.

عليها أن تتصل بـ«رامز».

* * *

الدقي - الجيزة

٢ يناير ٢٠٠٦م

عادت بريجيت الرافعي إلى شقة أبيها بالدقي، بعد إقامتها أسبوعًا في الإسكندرية لدى عائلة الدكتور «رجب»؛ حيث أنهت إجراءات تسلّمها ميراثها من جدتها.

ماتت آمال ذو الفقار وحيدةً، وعلى الرغم من ثرائها فإن أحدًا من عائلتها لم يكُن يهتم بزيارتها دوريًا مع طول مُدّة مرضها. تركت «آمال» ميراثًا ممتازًا، وقد باعته «بريجيت» كله، ولم تحتفظ بأي قطعة من المشغولات الذهبية التي كانت تشكل أغلب الميراث. ثم عادت إلى الدقي وفي ذهنها بدأت تتشكّل خطة ضبابية ما.

دسّت المفتاح في القفل، وهي تنظر نحو شقة الطابق العلوي. عرفت أن «حنان» تسكن وحدها بعد وفاة زوجها وزواج ابنيها. يُقال إنها جُنّت؛ إذ ترفض زيارة أي شخص إلا ابنيها. لو فقدت عقلها فمن يلومها؟

دفعت «بريجيت» الباب ودخلت، ما زال الموكيت مُبقعًا بدماء أبيها. التراب يكسو كل شيء. لم تستطِع أن تتوغّل أكثر في الشقة، وجلست تبكي فوق حقيبتها في المدخل. ليتها سمحت لـ«توماسينو» أو أحد إخوتها أن يأتي معها. بعد قُرابة ساعة، دخلت «بريجيت» وأغلقت بابها عليها. أكواب العصير ما زالت على المنضدة والعفن يغطيها. الرائحة خانقة لا تُطاق. دخلت إلى مرسم أبيها وراحت تجمع كل ما وجدته من لوحات وكُتب في صناديق. كانت قد قررت أن تأخذ كل شيء وتؤجر مكانًا تسكن فيه حتى تقرر ما ستفعل، لكنها اغتاظت من خوفها وجُبنها. لو لم تواجه ذلك اليوم التعس ستظل تفر منه طيلة حياتها.

باتت ليلتها في ركن حجرتها القديمة، ودون أن تغيّر ثيابها. كانت تنتظر رؤية شبح «عادل»، لكن الشبح الوحيد الذي رافق أحلامها هو

أبوها. حين فتحت عينيها صباحًا تمنّت لو أن الأشباح حقيقية، فيعود أبوها ويعود شعورها بذراعه النحيلة حول كتفها، وصوته الخشن المُرهَق وهو يعتذر لها عن كل لحظة تقصير في حقها.

في اليوم التالي، أتت بعُمال يخلعون الموكيت وينظفون الشقة، وصعدت إلى الطابق الثاني على ساقين راجفتين. تهاجمها أعراض مرضها أكثر، وكأنّها تمنعها من الصعود. ألم في الصدر والمفاصل، أصابع قدميها تؤلمها بسبب البرد، إرهاق عظيم كأنها تتسلق جبلًا. كان جسدها يهاجم نفسه، يهاجمها ويشلها ويدفعها إلى الاستسلام.

أخيرًا، دقت جرس الباب، وظلت واقفة تنظر إلى ظلال الشخص المُتحرك بالداخل، لكن الباب لم يُفتح.

نزلت وجلست على كرسي في المدخل حتى ينتهي العمال من عملهم. لم تكُن تستطيع بذل مجهود بدني أو تحمل التراب وأشعة الشمس المباشرة. تتدثر بشال ثقيل أغلب أشهر السنة، وتشعر وكأنها جاوزت التسعين من العمر. لو كانت لديها بعض الذكريات السعيدة التي تحتمي بها، لأنهت تعاستها ووحدتها للأبد ولحقت بأبيها.

بعد رحيل العُمال، كانت الشقة في حال أفضل، وإن لم ينتهوا بعدُ من تركيب أرضيات بديلة. جلست في حجرتها، التي كانت قِسمًا من حجرة أبيها، مفصولًا عنها بحائط خشبي ملون على طراز الـ«ريترو» المبهج، تقلب في الكتب بحثًا عمَّا لمّح به أبوها. ماذا عساه أن يكون شبح «عادل»؟ ولِمَ خطرت له فكرة تلك اللوحات التي حبس فيها ذكرى أمها وجدتها؟

على رف فوق سريرها، ما زالت الألبومات الغنائية ذات العُلب الشفافة والأغلفة الملونة مكانها، أمسكت بأحدها وفتحته، فريق «يو تو»، وأغنية أبيها المفضلة لهم: لم أجد بعدُ ما أبحث عنه.

صدح صوت الأغنية بعيدًا، كأنما يأتيها من الماضي:

«تسلقتُ أعلى الجبال، وعدوت عبر الحقول..

فقط كي أكون معكِ».

فتحت صندوق كتب أبيها وراحت تقلّب بين الصفحات، بعضها كان بلغة آسيوية لم تفهمها، وبعضها كان بالفرنسية مُترجمًا عن الكتب الآسيوية. كان أغلبها مِلكًا لأمها كما حكى لها أبوها، وبعضها الآخر اشتراه أبوها من إيطاليا.

وسط الصفحات وجدته، خطاب بالفرنسية مُصفر مهترئ.

«كم تسع حياة واحدة من أحلام؟ من الظلم أن يُطالب المرء بإنجاز كل حلم لديه خلال سبعين عامًا أو حتى مائة. ألا يكون منطقيًا أن يكون للإنسان حيوات لا نهائية تتسع لكل رغبة أو خاطرة؟

حسين، لسنا مثاليين، ولو كنت ستحكم على الآخرين بأخطائهم، فستحيا وحيدًا.. لا تحكم عليَّ ولا تكرهني. سأحيا مجددًا معك؛ فالموت مجرد فرصة أخرى للحياة.. بريجيت».

دمعت عيناها وهي تمسح بيدها على الكلمات، هذا هو خط أمها. لِمَ أخفى أبوها هذا الخطاب عنها؟ هل كتبته أمها قبل وفاتها؟ هل كانت تعلم أنها ستموت؟ ولِمَ قد يكره أبوها أمها، ماذا حدث بينهما وجعل من ذكراها شبحًا مخيفًا أمرض أباها ثم دفعه إلى قتل نفسه؟

«عدوت وزحفت.. تسلقت حوائط تلك المدينة وحواجزها..

فقط كي أكون معك..

لكنني لم أجد بعدُ ما أبحث عنه».

تصفحت فهارس الكُتب، والألم يدق فوق مفاصل ساقيها. تتدثّر أكثر بالأغطية وتتمنى لو استطاعت أن تقوم لتصنع لنفسها مشروبًا دافئًا..

«من الظلم أن يُطالَب المرء بإنجاز كل حلم لديه خلال سبعين عامًا أو حتى مائة. ألا يكون منطقيًا أن يكون للإنسان حيوات لا نهائية تتسع

لكل رغبة أو خاطرة؟».

تعرف «بريجيت» عن تناسخ الأرواح، وحلول أرواح الموتى في أجساد جديدة حتى يكفروا عن أخطائهم فتفنى، وينعموا بالراحة الأبدية. في فلسفات الشرق الأقصى كل ما يشرح تلك العملية، ويبدو أن تلك الكتب تتحدث عن التناسخ وعن ممارسات أخرى يمارسها كهنة التبت وتتعلق بالروح وإعادة الخلق.

بالنسبة لـ«بريجيت»، كان التناسخ حقيقة، لكن مختلفة عمَّا يزعمون؛ فالموت لا يعني الرحيل الكامل، فجزء من آبائنا يحل في أجسادنا ويظهر جليًا بعد رحيلهم: أفكارهم، ذكرياتهم، مخاوفهم، هواياتهم. أحيانًا تكون معركة المرء الحقيقية هي ألَّا يكون تناسخًا لوالديه، وأن يكون انتصاره حين يستطيع أن يفك تشابك روحه من الأرواح الساكنة المتصارعة فيه، فيكون هو هو، لا أحدًا آخر.

بدا لها أن أحدًا لم يكسب تلك المعركة أبدًا؛ فالحياة أقصر من أن نولد أكثر من مرة واحدة؛ فأحيانًا ما يتمسّك المرء بتناسخ آبائه فيه، فهو كل ما سيملك بعد رحيلهم، وكأنها أشباح محبوبة مغادرتها قسوة فوق قسوة الموت.

«تحدثت لغة الملائكة، ورافقت الشياطين..

وكلما زاد الليل دفئًا، تجمد قلبي كالحجر..

لكنني لم أجد بعد ما أبحث عنه».

رن جرس الباب، تجاهلته «بريجيت» مرة، لكن الطارق ألح، فقامت «بريجيت» تكاد تزحف من الألم، فتحت الباب لتجد سيدة منتقبة تقف أمامها. تساءلت «بريجيت»:

ـ من تكونين؟

رفعت السيدة النقاب عن وجهها، وكان هذا أبلغ رد.

* * *

سأل «رامز» «بريجيت»:

- أمي جاءتك؟ لِمَ؟

- رأتني أقرع بابها في الصباح، رؤيتي أفزعتها. كانت مرتعبة من كل ما قد يُبعث من الماضي، وكل ما قد يطرأ في المستقبل. والدتك كانت على شفا الجنون، ولم أرَ رُعبًا أكثر مِمَّا رأيت في عينيها.

- أمي كانت قاسية، لا مُبالية. لا أعتقد أنها كانت خائفة أو تشعر بأي شيء.

- أمك كانت مرتعبة، والرعب يحطِّم القلوب ويطرد منها أي شفقة.

والدتك طردت كل أطياف المشاعر من قلبها، فقط كي لا يتسلَّل الخوف وسطهم إليها مرة أخرى.. كي لا يتسلل الشبح إليها مرة أخرى..

ما قالته «بريجيت» كان هو عين ما فعل «رامز» طيلة حياته، لكنه لم يدرك ذلك إلا الآن. لمح عيني «أمنية» تنظران عبر النافذة إلى الظلام، فقط كي لا تنظر إليه. «أمنية» تُفضِّل أن تقضي ما يمكن أن يكون آخر أيامها رانية إلى اللاشيء على أن تنظر إليه وتستعيد الرعب الذي يغمرها به. أمه كانت تخشى الشعور بالخوف، بينما صار هو الخوف مُجسدًا.

سأل «رامز» «بريجيت»:

- ماذا تعرفين عن الشبح الساكن في شقتنا؟

- لنتفق أولًا على أن ما تراه ليس شبحًا بالمعنى الدارج. هو ليس روح والدك ولا قرينه كما كانت تظن أمك. الأمر أكثر تعقيدًا يا «رامز». دعني أرتب أولًا الأحداث كما عرفتها من والدتك ومن «توماسينو» ومِمَّا أتذكره. أول من رأى شبح والدك هو والدتك بعد زواجها به بفَتْرة قصيرة. هو أخبرها أنَّ الشبح قرينه، ومهمته حمايتها.

تراجع «رامز» في كرسيه، والتفتت «أمنية» إلى «بريجيت» مُتعجبة. قال «رامز»:

- لا أعتقد أن الوقت سيكون مناسبًا لهذا الحديث الآن و«أمنية» موجودة.. لا أريدها أن تفزع.

- بل علينا أن نشاركها كل شيء. لن نحجب عن أحد أي معلومات؛ فأنت تعرف جيدًا ما حدث لك ولأختك، بل ولي شخصيًا بسبب عزل كل منَّا عن الآخر.

تنهَّد «رامز»، وهو يسمع أصوات خطوات في شقته عبر السقف. وكانت الأصوات متمركزة حول فتحة السقف التي كانت تربط الشقتين بعضهما ببعض. نظرت «بريجيت» نحو الفتحة وقالت:

- لا تخَف.. الشبح حقيقي، لكن كينونته هي وهم من عقل بشري. دعني أكمل.. حين زارتني والدتك، أحضرت معها صورًا فوتوغرافية كانت قد عرضتها على أبي وخالي مسبقًا، وتوضح شبح أبيك يدفع لوحة في منزلنا في يوم عيد مولدي، وتبين الصور كذلك بعض الهدايا التي كان أبوك يشتريها ويتحوَّل شكلها من أغراض مبهرة ثمينة إلى أشياء عادية. كان لي أيضًا تجربة مع دمية اشتراها لي أبوك، وكذلك علبة شوكولاتة أهداها لنا. حكى أبي لي تلك المواقف بالطبع؛ فقد كنت صغيرة وقتها. حكى لي أيضًا أن في بداية زواج أمك بأبيك، وقبيل أول حفل عيد ميلاد لي في مصر، رأيتُ نسخة ثانية من أبيك، ورأى أبي تلك النسخة لأول مرة ليلة رأس السنة، لكنه كان مخمورًا فلم يُعطِ الأمر أهمية. الخلاصة: كلنا رأينا شبح أبيك وهداياه الغريبة في مرات متفرقة. حتى جاءت والدتك واستغاثت بأبي من ذلك الشبح وحكت كل شيء عنه وعمَّا يفعله معها. إلى هنا، الأمر مألوف لديك؟

لم تحكِ «حنان» أيًا من هذا لـ«رامز» أو لـ«ناريمان»، فقد كان الشبح جزءًا من حياتهم، ولم يكُن مسموحًا لأحد منهم أن يتحدث عنه أبدًا. في طفولة «رامز»، كان يظن أن لكل أب شبحًا يحل محله في غيابه

ويعاقب العاصين من أهله حتى يعود. قال «رامز»:

- هلا حكيتِ لي بالتفصيل؟ بالفعل أنا... أنا لا أذكر أغلب طفولتي، وما أذكره لا أجد له معنى أو سياقًا، فأتناساه.

- سأحكي لك..

* * *

لم يرد «رامز» على هاتفه، وكذا «أمنية».

شعرت «ناريمان» بقلق بالغ، ممَّا عساه قد حدث. أيكون «رامز» قد آذى الطفلة بسبب مكالمتها الأخيرة؟ أتكون قد...

ظلت شاردة في أثناء جلستها مع الدكتورة «مُهرة». فلم تكُن تريد الحديث عن شبح أبيها كونها لن تصدق أنه مجرد هلوسة، وكانت كذلك تريد مَن يقنعها بأنه ليس حقيقيًا.

لذا فقد عادت لتقابل «ويلارد»؛ فهو لن يتهمها بالجنون، ولن يوبّخها على معتقداتها. حكت له كل ما تذكره من طفولتها وهما يسيران في ممشى على ضفة نهر باراماتًا، المزدان بنقوش السكان الأصليين، التي رسمها يدويًا في العصر الحديث رسام من قبائل «النجيمبا». كانت النقوش كبيرة حتى إنها لم تكُن لتدرك معناها بالمشي فوقها؛ لذا توقف «ويلارد» عند لافتة تحمل صورًا لنقوش الممشى وشرحها ثم قال:

- على الرغم من أننا سرنا على هذا الممشى كثيرًا، أنا وأنت، منذ بداية معرفتنا، لكنني صممتُ أن نمشي اليوم هنا كي يصل إليكِ ما أريد قوله. واعذريني يا «ناريمان»، فقد اعتدتُ التعامل مع الأطفال، وصار الشرح البصري والقصصي هو أسلوب حياتي.

ضحك «ويلارد»، وتجعدت البشرة على جانبي عينيه. لكن «ناريمان» لم تضحك. ظلت تحاول أن تستكشف ما سوف يحكيه لها «ويلارد» قبل أن ينطق. كانت تريد حلًا في أسرع وقت.

- الرسوم هنا تحكي قصة شعب «الأبوريجينال»، منذ بداية التاريخ. كل حقبة كما ترين ملونة بلون مميز.

كانت «ناريمان» ترى الأقسام جميعًا مصغرة في اللوحة التعريفية لمحتوى رسوم الممشى. رسومات لأسماك وحيوانات على خلفية حمراء، ثم رسم لسفينة ضخمة على خلفية زرقاء تعبّر عن الغزو الأوروبي. ثم رسم حرب «البيمولوي»، وتمثل محاربًا من السكان الأصليين يحمي أرضه، لكنه قُتل في النهاية وسط نقوش خطوات دامية. وفي نهاية الممشى، تقبع اللوحة الأخيرة، حين قرر أصحاب الأرض والغُزاة التعايش، ومحاولة فهم ثقافة «الأبوريجينال»، ومشاركة الأرض الخيِّرة.

- ربما ترين يا «ناريمان» أن «الأبوريجينال» استسلموا، لكنني أرى أننا أكثر ذكاءً من شعوب أخرى، استنزفت قواها في حروب متتالية حتى فنيت. ما فعلنا أننا قبلنا مُشاركة الأرض، في ظل ظروف لم تسمح لنا بالوقوف أمام الغزاة طويلًا. نحن لم نُمحَ، وكما ترين، فإننا لا نسكن في مستعمرات الآن، ولا نخفي هويتنا، بل وتُدرَّس قصصنا وأساطيرنا في المدارس. بالطبع كلنا كنا نأمل أن تكون أرضنا لنا وحدنا، نحكمها بأنفسنا.. لكن ليس هذه هي طبيعة الأمور يا عزيزتي. أن نظل موجودين شامخي الرؤوس هو أفضل ما يمكننا فعله عوضًا عن الإبادة الشاملة. هذا هو التكريم الذي استطعنا الوصول إليه لأرواح من قُتل من أجدادنا.

- ما علاقة هذا بما أحكيه لك يا «ويلارد»؟ شبح أبي قد عاد، وأنت رأيت أثر أصابعه على كفي. «رامز» و«أمنية» لا يجيبان اتصالاتي، ولا أعرف ماذا حدث لهما. ما حكته لي «أمنية» كان مُريعًا.

استند «ويلارد» إلى كتفها وسار حاثًا إيَّاها على السير إلى جواره، ثم قال:

- أنا بالفعل أحاول أن أساعدك. اعتبري حياتك مُقسمة كهذا الممشى.

كان من المفترض أن يكون تاريخ «الأبوريجينال» طبيعيًا، لو لم يأتِ الغزاة. في البداية قاومناهم بكامل طاقتنا، ثم لم نجد حلًا سوى السلام والتعايش مع عدم التفريط في كينونتنا الحقيقية ورفض زوال ثقافتنا. قارني ما وصلنا إليه مع ما وصل إليه عدد كبير من الشعوب القديمة أمام وجه الغزو. أريد منك أن تكوني مثلنا.. حياتك كادت تُدمَّر بسبب أبيكِ.. وأقول كادت؛ لأنه ما دمتِ تقفين على قدميكِ فثمَّةَ أمل في التغيير والنصر حتى لو بشكل مُخالف لتوقعاتك. ما فعله أبوكِ بكِ وبأخيك لن يتغيَّر، ندبة دائمة ولن نُغطيها، إنما سنفخر بها ونتعايش معها ونجعلها جزءًا من هويتنا. مفهوم؟

- مفهوم.. لكنني أريد خطوات واقعية يا «ويلارد». لا أجد في نفسي أي قوة على التفكير. كل ما أريد الآن هو أن أعود إلى مصر.

- إذًا عودي.

- لكن، في الوقت نفسه، لا أستطيع مواجهة «رامز». لم يقبل مني أي مساعدة. لقد صرنا كقنفذين، يرى كل منا الآخر يغرق، ولو اقترب منه ليساعده ستقتله أشواكه. لا وقت لديَّ لتقليم أشواكي، ولا للتعافي ولا لأي شيء. لا وقت لديَّ ولا قوة!

رن جرس هاتفها المحمول، ولأول مرة في حياتها ترى اتصالًا من «رامز».

***

- أين كنتما يا «رامز»؟

- «ناريمان»، لقد عاد شبح أبي.. لكن الأمر أكبر مِمَّا نتصوَّر..

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها عن شبح الأب. كان «رامز» يتحدث في الهاتف في شرفة شقته، بينما «أمنية» و«بريجيت» في الصالة، صامتتان. الفوضى حولهما تشي بأن ما رأته «أمنية»

وأبوها كان حقيقيًا.

- ماذا حدث يا «رامز»؟

- أتذكرين بريجيت الرافعي؟ لقد عادت هي الأخرى..

بعد أن حكت «بريجيت» لـ«رامز» في شقتها كل ما خفي عنه من أمر شبح أبيه، قالت وهي تجذب «أمنية» لتجلس بجوارها:

- منذ وفاة أبيك، ولم يعُد لشبحه وجود. هذا أمرٌ غريب، فمن المفترض أن يظهر الشبح بعد الوفاة، لا قبلها. المهم.. والدتك لم تطمئن يومًا لغيابه، ولم تقتنع أنه لن يعود. ظل جرح جبهتها يطالعها كلما نظرت إلى انعكاس وجهها في المرآة. ارتدت النقاب كي تداريه عن الناس، وانقطعت صلتها بأهلها. والدتك كانت على وشك الجنون وهي تراكما تبتعدان عنها بعد وفاة أبيكما. طلبت مني أمك بعد زيارتها أن أغادر الشقة ولا أعود مجددًا. كانت تتوقع أن يرجع شبح «عادل» ويعاقبها على فعلتها، وكانت تنتظر هذا العقاب طيلة عمرها.

رنّت العبارة جرسًا في عقل «رامز»، فسألها في خبث كي يعرف إلى أي حد وصلت معلوماتها:

- ماذا تعنين بـ«فعلتها»؟

- لا تُلق بالًا.. المهم الآن أنها كانت تتوق إلى أن تنتهي حياتها، تتوقع أن تُعاقَب على أفعال لم تقترفها، أو اقترفتها تحت ضغط تنوء به الجبال. إدراكها الأمر كان مشوهًا جنونيًا، إدراك شخص لم يعرف في حياته سوى العقاب كرد فعل على أي تصرف.

رحلتُ بعد شهرين إلى إيطاليا، الحقيقة أنني لم أشعر براحة هنا وأنا أرى ذكرياتي تطاردني في كل مكان. مكثتُ هناك أقرأ وأراجع كتب أبي، وأبحث عن أشخاصٍ قد سافروا أيام قوافل الهيبيز إلى التبت وتأثروا بثقافتها.

كثير منهم فقدوا أصدقاءهم نتيجة إدمان عقاقير الهلوسة، ومَن قابلتهم لا يزالون يعيشون في الماضي.. الوحدة والفن والماريجوانا.. هذا هو عالمهم بعد سنوات طويلة. كثير منهم بالطبع شق طريقه بشكل طبيعي مثل «توماسينو».

قامت «بريجيت» وقادت «رامز» إلى مرسم والدها، الذي أعادته إلى سيرته الأولى، وعلقت كل اللوحات التي صنعها في حياته، تلك التي كان يمزج فيها عناصرَ مجسمة مع الألوان. وأضافت هي بعضًا من لوحاتها التي تمزج فيها عناصرَ جافة جدباء مع أخرى يانعة مُبهجة. وقفت «آمنية» عند الباب تنظر إلى أبيها، منتظرةً منه الإذن بالدخول، لكنه كان مأخوذًا تمامًا بما يراه.

- إذًا أبوكِ هو من رسم اللوحات القديمة على جدران شقتنا..

- لم يكُن هو، بل «توماسينو». لكن أبي وضع اسمه عليها خوفًا من أبيك، وحرصًا على استمرار التعاون بينهما، خاصة أن الأخير لم يكُن يحب «توماسينو» أبدًا. كان يعتبره منافسه الطبيعي على صداقة أبي.

حكت «بريجيت» لـ«رامز» ما حدث يوم انتحار/ مقتل أبيها، وكيف أعاد شبح «عادل» اللوحات الممزقة إلى سابق عهدها وأخاف «حسين» بالمحبوس فيها من ذكريات:

- ما زلتُ أذكر هذا اليوم وأعيشه في كل لحظة يا «رامز». أبوكَ لم يكُن موجودًا في البيت، وكنت أشك في أنه عاد وقتل أبي، ولكم تمنيث لو أن هذا ما حدث. لكن بعد قراءاتي ولقاءاتي مع الشهود، عرفت أن شبح أبيك لم يكُن شبحا.. كان «تولبا».

* * *

جلست «ناريمان» على مقعد وسط الممشى، وظلت ترمق الرسم الضخم لرجل من «الأبوريجينال» يتلقى طلقات من الغازي، وهي تسمع ما يقول «رامز» عبر الهاتف.

- شبح أبي كان ماذا؟

- «تولبا».. أبونا كان يملك قدرة عقلية على تجسيد أي شيء يتخيله. هكذا يؤمن رهبان التبت. يقولون إن الإنسان يستطيع تجسيد جزءٍ من خياله لو كان يملك الموهبة، ويستطيع أن يشعر أن هذا الجزء المُجسد شخص منفصل عنه، بل ويصادقه كذلك. هكذا يفعل الأطفال حين يتخيَّلون صديقًا خياليًا.

- وكيف لخيال الشخص أن يراه غيره يا «رامز»؟ هذا كلام غير معقول.

- اسمعيني.. يُقال إن الأشخاص ذوي القدرة على تجسيد الـ«تولبا» يستطيعون خلق جسد طاقي شبه مادي لخيالهم؛ لذا فيمكن للآخرين رؤية الـ«تولبا» كذلك والتأثر بها ولمسها. كان يجسّد صورة من ذاته، ويزيِّف صورًا مبهرة ليضفيها على هدايا ومشتريات عادية.

- أتقصد أن شبح أبي بكل قوته وسطوته كان خيالًا؟ مستحيل.. كيف يكون أبي هو من صنع هذه الـ«تولبا»، وما زال هذا الذي صنعه موجودًا حتى بعد وفاته بسبعة عشر عامًا؟!

- «بريجيت» تقول إن الـ«تولبا» القوية تنفصل عن صانعها وتصير لها إرادة مستقلة يا «ناريمان».. ما نواجهه هو خلاصة شر أبي متجسدة في صورة شبح لا يمكن أن يموت!

- «رامز»، ما تقوله لا يمكن أن يكون حقيقيًا. وإن كان كذلك، لِمَ لَمْ يظهر لأمي بعد وفاة أبي وزواجنا؟ لِمَ لَمْ يطاردنا في بيوتنا كما يفعل الآن معي؟! شبح أبي كان هنا يا «رامز».

- هناك سبب بالتأكيد.. أبي كان يستمتع بفترات صمته الطويلة حين كان يعاقبنا. أتذكرين؟ صمت بارد يتلاعب بأعصابنا، حتى نتمنى لو يضربنا وينتهي الأمر. يبدو أنك لا تذكرين، فهو لم يقسُ عليكِ كما كان يفعل معي. لا عليكِ يا «ناريمان». لا أعرف لِمَ اتصلت بكِ من الأساس.

وقفت «ناريمان»، وقالت بصوت عالٍ عصبي:

- لا تمارس ألاعيبك أنت عليّ! أنا من اتصلت بك، وأنا مهتمة بكل شيء تقوله أو تقوله «أمنية». وأبي لم يكن رفيقًا بي، وأنت تعلم ذلك. أنت لا ترى سوى نفسك يا «رامز»، هذا هو كل شيء. لا تلمني على شيء لم أفعله.

أنهت «ناريمان» المكالمة، فقام «ويلارد» خلفها يربت على كتفها ويُجلسها، فحكت له ما قاله «رامز». قال:

- أخوك يحتاج إلى مساعدة عاجلة. لا أرفض ما يقول ولا أصدِّقه، المشكلة أن عقله مشوش ولا يستطيع أن يرى الأمور كما هي. أنتِ حكيتِ لي أن «أمنية» رأت شبحًا لنفسها بالإضافة إلى شبح جدها. فمن أين جاء شبحها؟

- «أمنية» مريضة كما تعلم، ربما تخيلت شبحها هذا. لا أعرف شيئًا يا «ويلارد».. لا أعرف.

- دعينا نقرأ إذًا عن موضوع الـ«تولبا» هذا ثم نقرر ما سنفعل. هيا بنا.

***

أرسل «رامز» رسالة إلى «ناريمان»، وكفّاه ترتعشان، كتب لها فيها:

- آسف.. لكن عليكِ أن تعودي إلى مصر في أقرب وقت.

تردد قليلًا ثم أضاف:

- «أمنية» تحتاج إليكِ.

أرسل الرسالة، ثم دلف إلى الشقة وجلس أمام «بريجيت».

- أخبرت أختك؟

- أجل.. أتمنى لو تأتي فعلًا. ماذا علينا أن نفعل؟

ـ كما أخبرتك؛ فالمنطق يقول إن موت أبيك يُفني الـ«تولبا» التي صنعها. مهما كانت قوية، فلا يمكن لها الاستمرار دون وقود موهبته. أنت ترى ضوء النهار، وربما لا تُدرك من شدته أن مصدره الشمس. لكن الضوء نفسه لا يمكن له الاستمرار في الوجود لو أطفأنا الشمس. أتفهمني؟

ـ أفهم؛ لذا تظنين أن لشبح أبي مصدرًا آخر غيره.

ظل «رامز» ينظر نحو هاتفه المحمول، ثم دسه بين فخذه والكرسي، وكأنَّ «ناريمان» ستقدر على سماع حديث «بريجيت» وكشف ما أخفاه عنها. قالت «بريجيت»:

ـ لو أن أباك كان موهوبًا لهذه الدرجة، فوارد أن أحد ابنيه ـ أنت أو «ناريمان» ـ قادر على خلق الـ«تولبا» الخاصة بكما، وأن تُجسداه وتبعثاه من موته.

ـ ولِمَ قد نفعل هذا؟

ـ الصدأ في أرواحنا يعود مهما رسمنا فوقه بألوان مبهجة. لم يستأصل شيئًا خوفنا من «عادل»؛ لذا فأحدكما يُعيده إلى الحياة، وأنا شخصيًا أعاني من «عادل» حتى لو لم أغد أرى شبحه المتجسد. ابتسامته وهو يحدِّق إلى أبي القتيل، مشهد يأكل روحي وجسدي يا «رامز». أنا مريضة، ولا علاج لحالتي. سأموت عاجلًا أم آجلًا، سأكون وحيدة وقتها.. أعرف هذا.. لكنني لا أريد أن أرى وجه «عادل» وأنا أسلم روحي لبارئها. أريد أن أزيل الصدأ عنها قبل رحيلي.. أخاف يا «رامز» أن يكون هو قاتلي وآخر ما أراه في هذا العالم..

* * *

عادت «بريجيت» إلى شقتها بعد مغادرة مجلس «رامز». ذكرى عودتها الثانية منذ عشر سنوات تعود إليها من جديد.

عامين قضتهما في إيطاليا، تجمع المعلومات وتستجوب الشهود عمَّا

رآه بعضهم في زياراته الروحانية للتبت في الستينيات. لو استبعدنا ما يمكن أن يراه المرء تحت تأثير الماريجوانا، فما حكوه كان رهيبًا مُفزعًا.

يَدعون من يستطيعون تجسيد الـ«تولبا» بـ«تولبامانسن»؛ حيث يبدأ الممارس لهذا التجسيد تمارين مُرهقة حتى يستطيع إضفاء تفاصيل مُعقدة لخياله، ثم ينشئ علاقة بينه وبين هذا الكيان المتجسد في عالم خيالي يسمونه «أرض العجائب»، حيث يلتقون صنيعتهم من وقت لآخر، ويستمعون إلى الحكايات التي تنسجها الـ«تولبا» ككيان منفصل نوعًا ما عن وعي صانعها. والهدف من هذا هو فصل العقل الباطن عن العقل الواعي، وتجسيده ككيان مُستقل كي يستطيع الـ«تولبامانسن» معرفة مزيدٍ عن نفسه وعن سُبل التحكّم بها. تعيش الـ«تولبا» في هذا العالم الخيالي عندما لا يستدعيها الـ«تولبامانسن» للمقابلة؛ لذا فـ«التولبا» تظل آمنة حبيسة عقل خالقها حتى هذه المرحلة.

في مرحلة تالية، يستطيع الممارس أن يستدعي الـ«تولبا» لتحل محل وعيه الحقيقي، وكأنه يبدل بين شخصيتين في الجسد نفسه. حكى «ماركو» - أحد مَن قابلتهم مِمَن سافروا إلى التبت عبر قوافل الهيبيز- أنه عندما شاهد كاهنًا يعطي لتولبته قيادة جسده، شعر كأنما يرى شيطانًا يستحوذ على جسد بشري. وذكّره هذا بما رآه في قريته عندما قام قس كاثوليكي روماني بطقس طرد الشياطين القديم على فلاحة ممسوسة. رأى كيف تحوّل وجه الفتاة وصوتها إلى ملامح شخص آخر وصوته، بل إنها كانت تتحدث بلغة لم يميزها أحد. ارتعب «ماركو» يوم شاهد ما فعله الكاهن التبتي، وشعر برعب لم يشعر به في طفولته حين شهد طقس طرد الشياطين.

قال لها:

- انتابتني مشاعرُ متضاربة.. أيمكن للمرء أن يخلق شيطانًا داخل نفسه؟ أيمكن أن تكون الـ«تولبا» شيطانًا كامنًا وهو أيقظه؟ أين تذهب شخصية الكاهن الحقيقية؟ أيؤثر طقس طرد الشياطين في هذا الكيان

الجديد، أم أنه منيع أمام كل شيء؟ ألا يخشى الكاهن أن يُحبس في أرض العجائب تلك إلى الأبد؟ الحقّ يا آنسة رافعي، كنت قد سافرت إلى التبت بحثًا عن كشفٍ روحاني، أو طريقة للتواصل مع ذاتي. سمعت عن اليوجا والتمارين الروحانية الخفيفة، وكان هذا ما سعيت إليه. لكنني بعد هذا المشهد قررتُ الرحيلَ عن هناك. فما أدراني أي وحش كامن فيَّ سأطلقه بحماقتي؟

تابعت «بريجيت» بحثها، وقرأت عن مستوى أعلى مِمَّا شهده «ماركو» من خلال مجتمع الـ«تولبامانسر» على الإنترنت.

تقول الأبحاث إن الـ«تولبامانسر» عادة ما يكونون ذوي بشرة فاتحة، أعمارهم بين التاسعة عشرة والثالثة والعشرين، ويفوق عدد الرجال الموهوبين النساء بمقدار الثلث. وتعني كلمة «تولبا» بالتبتية: التجسُّد، أو الوهم السحري.

أما ما يمارسه الـ«تولبامانسر» في منتدياتهم على الإنترنت، فهو اجتهادات شخصية، ومواهب مُكتشَفة بالصدفة. حتى إن منهم مَن لم يخلق الـ«تولبا» في عالم خيالي يحبسها فيه، بل جسَّدها مباشرة في الواقع، وتدريجيًا بدأ غيره في رؤيتها. المرعب أن أغلب تلك التجسُّدات لم تكُن على هيئات بشرية؛ فقد كانت مختلطة بخيال صانعها، ولم تكُن محددة المعالم بشكل كافٍ. فرُصد بعضها ككيانات مشعرة، أو تشبه الشخصيات الكرتونية إن كان صانعها في مرحلة الطفولة.

خرجت الـ«تولبا» من ممارسات الشرق الأقصى، وترسَّخت في عقائد السحر المعاصر والثيوصوفيَّة في أوروبا وأمريكا. وصار لها ممارسون ومُدربون. ومع خروج صُنعها عن قواعده، تحررت بعض الـ«تولبات» وصارت لها شخصيات مستقلة وراحت تسعى إلى تدمير حياة صانعها والتخلّص منه كذلك.

هل تعلّم «عادل» في أحد أسفاره الـ«تولبامانسر»؟ أدفعه تمحوره حول ذاته إلى خلق «عادل» آخر يُحكِم به سيطرته على من حوله؟

عاد إلى «بريجيت» ما حكته «حنان» عن فيلم روجر مور الغريب، الذي حاول فيه شبيه البطل التخلص منه بقتله. أترى «الدوبلجانجر» و«القرين» و«التولبا» أسماء لشيء غامض مرعب واحد؟

في نهاية رحلتها الاستقصائية، جلس «توماسينو» معها للمرة الأخيرة في مقهى على البحر في مارتساميمي وقال لها:

- أقول لك الآن: إنني لم أتم طيلة العامين اللذين انغمستِ فيهما بحثًا عن أصول شبحك. لم أرد أن أحجب عنكِ ما تريدين معرفته بدافع الخوف الأبوي، لكنني كنت خائفًا عليكِ من مصير أبيك. «جيجي».. أبوكِ كان يُطارد شبح أمك التي تركتكما دون تفسير. سألتِني عن معنى المكتوب في خطابها، وماطلتكِ في الإجابة. أنتِ تستحقين أن تعرفي ما قد تتورطين فيه لاحقًا. أمك كانت تلاحق سراب التطهُّر والتناسخ والميلاد من جديد، ودس تفكيرها هذا الوهم في عقل أبيكِ. كان يظن أنك تناسخ لها، وكان يرى شبحها تحت تأثير عقاقير الهلوسة. ظل مقتنعًا أنها ما زالت موجودة، وأن شبحها قد يؤنسه. وهذه كانت نقطة الضعف التي دخل إليه «عادل» منها. كانت أمك الشجرة المحرمة في الجنة، وكان «عادل» الثعبان الذي أغواه وطرده من عالمه الحقيقي، حيث فنه وابنته وأصدقائه. أخشى عليكِ فتنته يا «بريجيت».. وأخشى أن تتبعي لعنة أورثك إياها أبوك وأمك.

- سو «توماسينو».. ما أسعى خلفه ليس وهمًا. الـ«تولبا» حقيقة، مثلها مثل الشيطان الذي تتحدث عنه. هناك من يشكُّك في وجودها كما يشكك بعض الناس في وجود إله وشيطان. أنت تعرف أن الله موجود لأنك تؤمن بوجوده وتحتاج إليه. أنا كذلك أومن بتجسُّد «عادل» وأخافه. لن أضيع كما ضاع والداي.. لقد كانا وحيدين، أما أنا فمعي عائلتي، تحبني وتساندني.

أمسكت كفه فابتسم، وقال:

- «بامبينا».. أقولها لك للمرة الأخيرة، عودي إلى حياتك. «عادل» لن

يعود، وإن عاد يكون شبحًا من ذكرى مؤلمة في عقلك. عالجي نفسك وامحي الصدأ عنها. عديني أن تهاتفيني أو ترسلي لي على الأقل بريدًا إلكترونيًا يوميًا. أتعدينني؟

- أعدك بالطبع.. لن أكف عن احتياجي إلى وجودك أبدًا.

عادت «بريجيت» إلى مصر مجددًا في عام ٢٠٠٨م، وبدأت سرًا في ممارسة الـ«تولبامانسر».

* * *

«ناريمان» هي مَن تصنع الـ«تولبا» وتعيد أباها الحبيب إلى الحياة مرة أخرى.

لم تغادر الفكرة رأس «رامز» مطلقًا. هي ابنته ولم يؤذِها قط، ورثت عنه موهبته، وهاهي تتسلى بتخويفه وإفزاعه، بل وصنعت شبحًا لـ«أمنية» كي تُحكِم قبضتها عليه وتُشعره بالتقصير تجاه ابنته.

«ناريمان» نُسخة أبيها ولا ريب في هذا، ولو كان قد أخبرها بشكوكه فيها لهاجمته ورفضت فكرة العودة إلى مصر.

قالت له «بريجيت» إن الـ«تولبا» إن غادرت ما يسمَّى أرض العجائب، صارت ذات شخصية منفصلة قوية. ولا سبيل للتخلّص من الـ«تولبا» إلا بإعادتها إلى أرض العجائب بإرادة من صانعها، أو بموته.

دخل «رامز» إلى «أمنية» في الشرفة، وقد كانت جالسة مولية ظهرها للشمس الدافئة، وتقرأ في ذلك الكتاب الذي أعطاه إياها «إسلام».

لم يكُن قد أعاد لها هاتفها المحمول، وكان يود لو يأخذ منها هذا الكتاب كذلك. كل اهتمام مِن غيره بها يبيِّن مدى وهن مشاعره تجاهها، وتجاه كل شيء. لو استطاع فقط أن يشعر بشيء سوى الغضب، لحُلَّت أغلب مشكلاته.

جلس بجوارها وسألها:

- «أمنية»، ماذا رأيتِ هنا؟ احكي لي بالتفصيل.

تزايدت دقّات قلبها وهي تغلق الكتاب وتقول دون أن تنظر إليه:

- لم أرَ شيئًا. كنتُ أتخيل أشياء كما كنت أتخيل الفأر الأبيض الذي حكيت لك ولأمي عنه من قبل.

زفر «رامز» وكبت غضبه من إجابتها، وقال:

- «أمنية».. أنا وأنتِ رأينا ما خرج من الحمام. احكي لي كل ما ترينه منذ جئنا إلى هنا تحديدًا. هل رأيتِ الفأر الأبيض هنا؟

- أجل.. وسمعت صوت جدي ورأيت... الظل.. الشبح. كنت أراه بجوارك أحيانًا، وأحيانًا أخرى كان يأتي إلى حجرتي ويخيفني و...

- وماذا؟

كانت تريد أن تخبره أن الشبح يؤكد لها أن أباها لا يحبها، وأنه لا يوجد من يحبها بمرضها ومسؤولياتها المتزايدة، لكنها فضّلت الصمت. البوح لأبيها له عواقب وخيمة دائمًا. أردفت «أمنية» بصوت خفيض:

- ورأيت أخرى تشبهني.

- رأيتها؟! متى؟

حكت «أمنية» لـ«رامز» متى وكيف رأت جدها ومثيلتها، وتأكد «رامز» من أن ما تحكيه حقيقة؛ فقد رأى «أمنية» الأخرى أكثر من مرة، بل ونام بجوارها ليلة كاملة!

اللعنة على «ناريمان».. لكن...

صمت قليلًا وقد جال بخاطره شيء.. ماذا لو كانت «أمنية» هي من تصنع «تولبتها»؟ قال لها:

ـ دعينا نتفق، لو رأيتِ أي شيء مخيف، ناديني فورًا. وأنا كذلك لو رأيت شيئًا سأناديكِ. لكن رجاءً، لا تخبري «ناريمان» أو «بريجيت» بشيء. اتفقنا؟

ـ لماذا؟ لماذا لا أخبر «ناريمان»؟

ـ ألا يمكنك أن تطيعيني دون أسئلة يا «أمنية»؟

صمتت «أمنية» وأطرقت أرضًا. كانت خائفة ولم يكن أمان «رامز» هو ما تبحث عنه. كانت تريد مَن يسمع دون لوم أو تحميل لمسؤولية.

كانت تريد أن تشعر بالحب وبأن هناك مَن يريدها مهما كانت حالتها.

قامت إلى غرفتها وأغلقت بابها خلفها، وجلست وحيدة تحت النافذة، ترمق ذرَّات الغبار العالقة في أشعة الشمس العابرة من فوقها، حتى غفت مكانها.

كان «رامز» قد بدأ في تقشير ما تبقَّى من الحائط باستخدام «التنر» الذي اشترى منه عشر زجاجات، احتفظ ببعضها في الحمام، وببعضها في متناول يده. من وقتٍ لآخر كان يترك ما يفعله بالحائط وطلائه، ويعيد ترتيب وسائد الأريكة في صف وعلى مسافة واحدة من بعضها البعض، أو يتذكر أن الأكواب في الخزانة غير مرتبة فيرتبها. كانت كفَّاه مصابتين بالخدوش والجروح إثر كل ما دفع نفسه إلى فعله طيلة اليوم الذي أمضى أغلبه في إهلاك طاقته وإفنائها كي لا يفكر في شيء آخر. حتى فتح خزانة الملابس كي يرص فيها ملابسه المغسولة، فرأى أمامه بطاقات الكوتشينة المفقودة منذ زمن، ووجد كل ما تخلَّص منه في القمامة قد عاد إلى مكانه، حتى ما قصَّته «بريجيت» أو قطعته كي تصنع اللوحة عاد مقصوصًا إلى حيث كان.

اللوحة خاوية، مجرد قماش ممزَّق مشدود حول إطار خشبي. اندفع «رامز» إلى «النيش» فوجده مليئًا بشظايا السيراميك والزجاج المخلوطة بالتراب. تلك الشظايا التي تخلَّص منها بعد أن تهشمت في

صندوقها إثر نوبة غضب منه.

متى حدث كل هذا؟ ومَن فعله؟!

كل شيء يعود كما كان، لا يمكنك يا «رامز» نسيان ما عليك نسيانه كي لا تُجن، ولا يمكنك تذكّر ما عليك تذكّره كي تُشفى..

* * *

بعد أن عادت «بريجيت» من إيطاليا للمرة الأخيرة، عام ٢٠٠٨م، لم تقابل «حنان» قط، ولم تسعَ الأخيرة إلى التواصُل معها. لكن نظر «بريجيت» ظل مُعلقًا بفتحة السقف في شقتها، وأذناها مُدرَّبتان على سماع كل شيء يحدث بالأعلى.

كانت تجلس عند آخر درجات السلم، متكوِّرة على نفسها، متدثرة بشالها، وتسمع ما يعلوها، وتنظر إلى ما آل إليه حال المنزل حولها. لم يكُن دافئًا أو آمنًا يومًا، لكن مَن فيه كان يملؤه بمحاولات لا تنتهي للنجاة. رائحة دخان سجائره، عرقه، رائحة الألوان والأصباغ والجلود، موسيقى أبيها من ستينيات القرن الماضي، وصوت «داليدا»:

«أشرب كل ليلة، وكل ما أشرب له المذاق نفسه..

وكل السفن تحمل راياتك، فلم أعُد أعرف إلى أين أذهب..

فأنت في كل مكان».

صوت «توماسينو» وثرثرته الدائمة بلهجته الصقلية الممطوطة، أو العربية التي كان يتعمَّد دس الألفاظ المصرية المضحكة في ثناياها كي يبدو مصريًا بالنسبة لها على الأقل.

تكاد ترى نفسها، نحيلة ضاحكة مفرطة النشاط، تجلس على إفريز النافذة وتحاول تقشير طبقة الألوان التي كانت تعبث بها عن أظفارها. تسمع في الراديو الصغير البرنامج الموسيقي وتشرب المياه الغازية في أيام الصيف الحارة.

«أنا مريضة، مُعتلة للغاية..

حرمتني من كل أغنياتي، واستنزفت جميع كلماتي.. قلبي عليل سقيم».

كلهم كانوا يجاهدون كي يكونوا سعداء، كي يخرجوا من الظلمات إلى النور. لم يكونوا سعداء تمامًا، لكنهم أبدًا لم يكونوا يائسين.

أما ما كان يُرعبها الآن، فكانت الأصوات الآتية من أعلى. أحيانًا ما كانت تشغل «حنان» التلفاز، وتضحك على ما يقدمه، ثم تغلقه فجأة وتبكي وتشغل القرآن. أحيانًا ما كانت تسمع صوت خطواتها الحيرى طيلة الليل. تبطئ وتتسارع. مكالماتها مع «ناريمان» و«رامز» لم تكن تتعدّى الدقائق مرة في الأسبوع. كانت «حنان» مُحطّمة، مُختلّة، خسرت كل شيء وكانت تموت وحيدة.

أما «بريجيت»، فقد قضت عامين تحاول أن تخلق «تولبا» لأبيها الذي تمنته. صنعت لوحات من أغراضه القديمة وعلقتها على جميع الحوائط، أغرقت نفسها في رائحته الباقية في ملابسه، شغّلت موسيقاه المفضلة.. أغنية سان فرانسيسكو. كانت تريد أن تعيده مجددًا وتعتذر له عمّا فعلته أمها. كانت غاضبة منه وتريد أن تلومه على إخفاء الحقيقة عنها، وأن أمها لم تكن تعبأ بوجودها أو عدمه. كانت تريد أن تعيش معه في أرض العجائب وتترك جسدها المعتل وجسده الميت في هذا العالم المنقوص الكئيب. كانت ستعوضه عن كل ألم شعر به، وكان سيعوضها عن غضبها من تخلّي أمها عنهما.

نسيت «بريجيت» «عادل» أربعة أعوام؛ فهو لم يعُد منذ وفاته، ويبدو أنه لن يعود مرة أخرى. لكنها لم تُشفَ منه وقد طردها تأثيره من الحياة الحقيقية إلى الأوهام. هذا هو ما يفعله «عادل» دومًا، لكن الفريسة لا تُدرك أبدًا موضع الفخاخ.

النهايات المفتوحة تؤرّقها، تدفعها إلى التخبّط والجنون.

في مساء يوم من خريف عام ٢٠١٢م، كانت «بريجيت» تخوض في خيالاتها مع أبيها، في عالمها الخاص، الذي لم تفلح في إخراجه منه ولو لثوانٍ قط. حين سمعت طرقات على فتحة السقف، فزعت وتذكرت فجأة نسيانها «عادل» وشبحه. ماذا لو عاد ووجدها قد نسيت حذرها، وتاهت في أوهام كأبيها وأمها؟

حين تكررت الطرقات الواهنة المُستجدية، أدركت «بريجيت» أن مَن يطرق ليس «عادل» أو شبحه، بل «حنان». صعدت درجتين على السلم وتساءلت:

- مدام «حنان»؟

- «بريجيت».

كان صوتها واهنًا للغاية، فهرعت إليها «بريجيت» تقرع بابها، بعد دقائق من القرع والنداء، فتحت «حنان» الباب، ولم تنسَ أن تغطي وجهها بالنقاب.

دخلت «بريجيت» وأسندتها حتى أجلستها على الأريكة. لاحظت «بريجيت» التغيُّر الشامل في هيئة الشقة وألوانها عمَّا تذكره حين كانت تصعد إليها في طفولتها. كل شيء صار درجة من درجات البني والرمادي لا أكثر، واختفت لوحات «توماسينو» خلف طلاء من لون «سن الفيل».

قبضت «حنان» على كف «بريجيت» وهي تزيح النقاب عن وجهها وتقول:

- ابنتي.. سامحيني.

- علامَ أسامحك؟ لم تفعلي شيئًا.

- أعلم أنني فعلتُ بك وبولديّ كثيرًا. على الأقل لم أستطِع حمايتكم منه. اغفري لي؛ فقد سمعتُ صراخك يوم وفاة أبيكِ وخفتُ على نفسي

وولديَّ من مغبة نجدتك.. «رامز» لا يرد على اتصالي، وكذا «ناريمان». قولي لهما أن يسامحاني. لقد عاد أبوهما منذ شهور، أراه في كل ركن يمارس حياته بشكل عادي وكأنه يتجاهلني كعادته حين كان يعاقبني. أعتقد أنَّ أوان رحيلي قد آن. عودته علامة على ذلك.

- مدام «حنان»، تعالي معي نذهب إلى المستشفى. ستكونين بخير.

- اسمعيني يا «بريجيت».. أوصيكِ بولديَّ، أوصيكِ بـ«رامز».. لو استطعتِ أن تتواصلي معه فافعلي. قد يبدو جاف المشاعر، قد تُبعد تصرفاتُه الآخرين عنه، لكنه يحتاج إلى سند. ما فعلتُه به قطع الصلة بينه وبين أخته منذ زمن، وأتوقع أن يعود بعد موتي، ربما ليدفنني.. ربما ليبيع الشقة.. فلو عاد، اعلمي يا ابنتي أن الذكريات هنا أكبر مِمَّا يستطيع تحمُّله. لا تتركيه، وسامحيني.. أنتِ وأبوك كنتما خير سند..

راحت الدموع تنهمر على وجه «حنان»، قالت «بريجيت» وهي ترتجف:

- ستكونين بخير، سنتصل بـ«رامز» معًا..

- لن أكون بخير أبدًا.. كل ما أتمناه هو أن أرحل إلى ربي، وأعلم أنه سيغفر لي ولن يرسلني إلى جحيم لا أرى فيه سوى «عادل». لقد عُذِّبتُ وعَذَّبتُ، ليت ربي يغفر لي.

بحثت «بريجيت» عن عباءة «حنان»، وأجبرتها على ارتدائها، وغطت وجهها بالنقاب وأحاطت جذعها بذراعها متجهةً نحو الباب:

- تعالَي، لن أتركك هكذا..

- اتركيني يا ابنتي.. الموت راحة. فقط أبلغي «رامز» أسفي، ولا تتركيه.. لن يبقى له غيرك.

انفلتت من بين ذراعي «بريجيت» وهوت على كرسي. رفعت «بريجيت» سماعة الهاتف تتصل بالإسعاف وهي ما زالت لا ترفع

عينيها عن وجه «حنان» الشاحب. لم تسمع صوت الصفارة المعتاد عند فتح الخط، لكنها سمعت صوت «عادل» الواثق البطيء:

- «حنان».. أنا أنتظرك.

ألقت «بريجيت» السماعة وتراجعت خلفًا، وبدا أن «حنان» قد استنتجت ما سمعته جارتها. لكن الصوت استمر، وكأنه يأتي من الهواء ويشع من الحوائط.

- «حنان».. تعالي إليّ.

صاحت «بريجيت»:

- لن أسمح لك أن تفعل ما فعلت مرة أخرى! انصرف!

أمسكت «بريجيت» بـ«حنان» وحاولت أن تحملها وتخرج بها، لكن «حنان» همست في أذنها:

- أنا قتلت «عادل».. ولم أعُد أعرف أسيعاقبني الله على قتله، أم على سماحي له بالعيش حتى دمَّر كل شيء.

وأسلمت «حنان» روحها لبارئها.

***

ثبّتت «ناريمان» كاميرات مراقبة داخل شقتها، وتأكّدت أنها تُرسل ما تصوِّره إلى الكمبيوتر الخاص بها.

لم يكُن ظهور شبح أبيها يوم هاجمته بالسكين هو الظهور الأخير؛ فمنذ قررت العودة إلى مصر، وظهوره صار لا يُطاق.

لم يقتنع «ويلارد» لحظةً أنّ شبح «عادل» ليس شبحًا وإنما تجسُّد ما، «تولبا»، كما أخبرها «رامز». قرأتْ معه كل ما وجداه في المكتبة العامة عن تلك التجسُّدات السحرية، وكلما رسخ اقتناعها أن هذا هو التفسير الوحيد لما يمرون به، زاد اقتناع «ويلارد» أن ما يعانونه مجرد

أوهام بدأت حين عاد «رامز» إلى شقة طفولتهما، أوهام بزغت من الضغط العصبي الذي انتابهما ولا تفسير غير ذلك. سألته «ناريمان» وهما خارجان من المكتبة:

- وما تفسير رؤية «أمنية» الأشباح؟

- «أمنية» مريضة، وأخوكِ مضطرب نفسيًا. يمكن أن تكون قد سمعته يحكي لأحد عن هلاوسه تلك وتأثرت بها.

- مستحيل.. أود أن أقتنع بكلامك يا «ويلارد»، أود أن ألقي بكل هذا خلف كتفي، لكن لا.. «أمنية» صادقة فيما رأت، ولا يوجد مَن يتحدث معه «رامز» ويحكي له تلك التفاصيل. حتى زوجته، طليقته أعني، لم تعلم قط بأي شيء يخص شبح أبينا، بل إنها لم ترَ منه إلا كل لطف، حتى إن «رامز» كان يغار من أبي ومن قدرته على إضحاكها وزيادة تعلّقه بها، حتى ظن أن أبي يغازلها ويريد أن يخطفها منه. كانت تصدق أبي في كل مرة يشكو «رامز» لها.. و... لماذا أحكي لك كل هذا؟!

ضحكت «ناريمان» على استرسالها الغريب في السرد، وعلى عودتها لا شعوريًا للأثر النفسي المدمّر لأبيها. قال «ويلارد»:

- تحكين لي لأن عقلك يعرف أن ما تمرون به هو نتيجة مرض أبيكِ النفسي لا أكثر. «ناريمان».. أهناك ما لم تحكيه لي؟ شيء سوى شعورك بالذنب تجاه «رامز»؟

- شيء؟

أفلت قلبها عدة دقات وقد علمت أنها ما دامت فتحت عقلها وقلبها لأي مخلوق، سيفشى السر، وسيفتح باب الجحيم أكثر.

- ربما أحكي لك وقتًا آخر.

يومان مرًا ولم يفارق أبوها أركان شقتها. جالسًا، ينظر إلى الفراغ أمامه، ولا يبالي بكل ما تفعل كديدنه طيلة حياته.

تذكُر محاولات «رامز» وهو طفل كي يُصالح أباه، فكان يبكي وينظر إليه فلا يهتم، ثم يقترب منه ويعتذر، فلا ينصت، ثم يحتضنه، لكن «عادل» لم يكُن يحرك ساكنًا، وترى هي شبح ابتسامة جانبية مُستلذة بحَيرةِ الصغير ويأسه. وبعد دقائق من ابتعاد «رامز» خالي الوفاض، كان يناديها، يحتضنها ويغدق عليها الحلوى والاهتمام. لم تطلب قط هذا التمييز، لكنها أحبته طيلة حياتها وتندم على هذا الحب.

الآن «عادل» يمارس معها ما كان يفعله بـ«رامز»، إلا أنه شبح مخيف، ولن يرحل قبل أن يُفقدها عقلها؛ لذا اشترت الكاميرات وانتظرت ظهوره.

لن يغفر لها أبوها ما فعلت..

لن يغفر لها قتله.

* * *

مدَّدت «بريجيت» جثة «حنان» على الأريكة ببطء، وهي تتلفَّت حولها توجسًا. ثم خرجت من الشقة نازلة الدرجات في خفة إلى شقتها. أغلقت بابها بهدوء ثم جلست على الأريكة قرب الباب. لم تزُل بقعة دماء أبيها قط من مخيلتها، ما زالت تراها مهما فعلت ومهما تجاهلتها.

تُرى ماذا حدث مع «عادل» وعائلته وفرَّق شملهم؟! بل إن «حنان» تظن أن عودة «رامز» لبيت أبيه خطر سيتوجَّب المساعدة! أتخاف عليه من الشبح؟ وماذا يمكن لـ«بريجيت» أن تفعل بهذا الصدد؟

أغلقت عينيها وانسحبت إلى أرض العجائب..

كرفان «توماسينو»، ملوَّن مُبهج كما كان في الماضي. كان «حسين»

جالسًا داخله يقرأ، مشابهًا لشكله في صورته التي التُقِطت في نهايات الستينيات قبل مغادرته الإسكندرية إلى إيطاليا. دخلت إليه وارتمت بين ذراعيه. راحت تبكي وهو يبتسم ويمسِّد شعرها.

- لقد عاد «عادل» يا بابًا.. «حنان» ماتت وعاد «عادل».

- لن يصل إليكِ هنا يا قطة. لا تقلقي.. لا يوجد هنا سوى كل ما تريدين.

- لِمَ لا تخرج لتعيش معي؟ لا أستطيع المكوث هنا للأبد.

- ولِمَ أخرج بينما نستطيع أن نحيا في جنتنا هنا؟ ألا تريدين أن تغادري آلامك ومرضك ومخاوفك؟ الموت فرصة أخرى للحياة يا قطة.

- و«رامز»؟ أنت و«توماسينو» لم تتخليا عن أي شخص في محنة قط..

دسّت «بريجيت» وجهها في صدره. مهما اجتهدت في تجسيم أرض العجائب خاصتها، لم تفلح قط في إضفاء رائحة أبيها على تلك الـ«تولبا» الواهنة الحبيس.

- لا تقلقي بشأن أي أحد، ابقي معي..

راح جرس هاتفها المحمول يتعالى، وتسرب إلى خلوتها فأفاقت. كان مَن يتصل هو «توماسينو» الذي لم ترسل له أي بريد إلكتروني منذ أيام.

- «جيجي».. لو لم تردي على الاتصال لكنت حجزتُ تذكرة الآن وجئت إليكِ. ماذا حدث؟

- «حنان» توفيت.. الآن.

- أنا آسف. أكانت مريضة؟

- لا أعرف. «عادل» عاد.. سمعتُ صوته عبر الهاتف. قبل موت «حنان» اعترفت لي أنها قتلته!

- ربما كانت هلاوس لا أكثر، وربما قتلته فعلًا؛ فهو يستأهل أكثر من القتل، لكن ما دخلنا في هذا؟ لقد ماتت المرأة.

حكت «بريجيت» ما حدث مع «حنان» تفصيلًا، ثم أضافت:

ـ لو كنت مكاني، أكنت تتخلى عن «رامز»؟

ـ أبدًا، لكنك يا صغيرتي مشوشة.. عقلك الباطن يريد أن ينتقم من «عادل»، أو يتخلَّص من شبحه، لكنكِ تعرفين أنه لا سبيل للخلاص من وهم إلا بعلاج العقل الذي توهمه؛ لذا تتمسكين بفكرة مساعدة «رامز» كي تضفي منطقًا على بقائك عندك، منغمسة في ضلالات مُدَزَّمة.

ـ لا أعرف، ربما تكون مُحقًّا.. لكني بالفعل أريد مساعدة «رامز» و«ناريمان». ما حدث يوم وفاة أبي ترك بابًا مواربًا في نفسي، منه تدخل كل المخاوف والكوابيس. لا أنفك أرى «حنان» تجذب «ناريمان» الطفلة عبر فتحة السقف، بينما «رامز» لا يكف عن الصراخ. أتفهمني؟ الشقة في الدور العلوي هي منبع كوابيسي يا «توما»، وعليَّ أن أغلق بابها للأبد بالمواجهة، لا بالهروب. لو فرضنا فعلًا أن «عادل» قد خلق «تولبا» منفصلة عنه وماتت بموته، فمن أين جاء مَن حادثني هاتفيًا؟

قال «توماسينو» في عصبية:

ـ ربما تخيلتِ تلك المكالمة يا «جيجي». لقد نصحتُكِ كثيرًا أن تتركي أمر الـ«تولبا» تلك وظننت أنكِ نسيتِ كل شيء عنها. كفانا يا «بريجيت» تفكيرًا في أوهام وأشباح! بيعي تلك الشقة اللعينة وتعالي. لا أفهم كيف تفكرين.. حقًّا لا أفهم!

صاحت «بريجيت»:

ـ ولن تفهم!

أنهت المكالمة وأجهشت بالبكاء. كانت ترتجف وهي عاجزة عن التقدُّم خطوة واحدة في حياتها إلى الأمام. ما زالت «بريجيت» المراهقة الصغيرة الجالسة في بركة دماء أبيها تصرخ. لم يسمعها أحد، ولم تأبه «حنان» ولا أولادها لصراخها. أكانوا يعرفون ما حدث؟

أكان الهول عندهم أفظع ومنعهم من مساعدتها؟

لم تطلب منهم مساعدة، بل ظلت في مكانها عشر ساعات تقريبًا، ثم قامت وقد تجلّطت الدماء حولها في كُتل زلقة بشعة الرائحة. انزلقت مرتين حتى استطاعت أن تسير إلى باب الشقة وتخرج منه. مشت على هيئتها المزرية تلك حتى وصلت إلى الكشك عند أول الشارع. صرخت «أم رحمة» وقامت إليها تتعثّر في الجرائد المصطفة أمامها على الأرض. ظلت تسألها عمّا حدث، لكن «بريجيت» لم تقُل لها سوى أنها تريد الجرائد الصباحية لأبيها. اجتمع أهل الشارع والمارة حولها، ثم اكتشفوا فيما بعدُ ما حدث لأبيها وأخذها جار لهم لتحيا عنده ريثما يظهر لها قريب.

وقتها لم يكُن عقلها قادرًا على استيعاب الأمر كما كان، والآن كل شيء يعود إليها بطوفان المشاعر الذي جرفها بعيدًا حتى عن أرض العجائب.

لم تستطِع أن تغفر لـ«عادل» ولا زوجته أبدًا.. تمنّت لو تتعفن «حنان» في جحيم لا ترى فيه سوى «عادل».

لكن «رامز».. «رامز» و«ناريمان».. ثَمّةَ خيط يجذب ثلاثتهم إلى المجهول، وعليهم أن يساعد بعضهم بعضًا حتى ينجوا.

***

«ناريمان» آتية..

ظل «رامز» يكرِّر العبارة في عقله وهو يكحت الطلاء ويذيب ما التصق منه بلوحات «توماسينو» على الحوائط. لم يكُن يعرف سببًا لكل هذا المجهود الذي يفعله. كان عقله يئزّ وعليه أن يفعل أي مجهود بدني كي لا يدفعه هذا الأزيز إلى الجنون.

«ناريمان» ستعود.

كل شيء سيعود بغض النظر عن رأيه. لكن «ناريمان» ستعود هذه المرة وقد رتّب لعودتها كل شيء.

ما يخيفه حقًا هو تصرف «بريجيت» نحوهم. المفترض أن ما حدث لها بسببهم يدفعها إلى الانتقام منهم، أو على الأقل الابتعاد عنهم إلى الأبد.

يذكر يوم وفاة أبيها، وقد أفزعه صراخها. لم يكُن يتحمل أي صوت أيًا ما كان، فما باله بصراخ هستيري استمر لنصف ساعة أو يزيد؟!

كان هو أول مَن قام مِن سريره. سار ببطء ونظر إلى وجه «ناريمان» المستلقية في فراشها، كانت مستيقظة مفزوعة، ترتجف. قالت له:

- «رامز»، أريد أن أعرف ماذا يحدث بالأسفل. أتأتي معي؟

- كفاني ما حدث بسببك.

لكن «رامز» كان يريد أن يعرف عاقبة فعلة «بريجيت» وأبيها. من الظلم أن يُعاقَب هو في كل مرة بينما يفلت كل شخص آخر من العقاب.

ظل «رامز» جالسًا تحت منضدة السفرة، متكورًا على نفسه، مُغطيًا أذنيه، مُراقبًا ما يحدث. بعد هنيهة، قامت «ناريمان» مُتسللة وحاولت دفع الخزانة عن فتحة السقف، لكنها أصدرت صوتًا عاليًا. فتراجعت إلى حجرتها تنظر إن كانت والدتها ستقوم من نومها أم لا.

رأى «رامز» بعدها أمه تقوم وتتلفّت حولها وهي تضم الروب حول جسدها، وقد لفّت رأسها بالشاش. رن جرس الهاتف وسمعها تحادث أباه:

- كلنا بخير يا «عادل»، المهم سلامتك.. كلا، تعثرت في الحمام وسقطت على جبيني فانفتح.. كل شيء على ما يرام.. لا أعرف يا «عادل»، أعتقد أنني أسمع صوت بكاء بالأسفل، لكن ما لنا بما يحدث؟ أعرف أن لديك شفافية خاصة، ربما حدث شيء. اتصل بهما إن شئت..

سننتظرك على العشاء، في رعاية الله.

انقبض قلب «رامز» أكثر وقد عرف أن أباه غالبًا سيعود عند موعد العشاء. نظر نحو «ناريمان» فرآها تنظر إليه نظرة من نوعية «مَن مِنَّا يتسلل ليرى الآن؟»، لكنها نقلت عينيها بسرعة إلى شيء يزحف خلف أمها الجالسة على كرسي جوار التلفاز تُجدِّد ضمادة جرحها.

رأى «رامز» طلاء الحائط يتقشَّر ويتحوَّل إلى كومة من القشور تزحف على الأرض ببطء. لم يكُن خائفًا سوى مِمَّا قد يفعله أبوه حين يكتشف فساد الطلاء، ثم دون أي مقدمات، رشق سكينًا في الحائط بجوار كتف «ناريمان» مباشرة. حاولت «ناريمان» التراجع، لكن «حنان» كانت قد رأتها. خرج «رامز» من مخبئه وبسذاجة الطفولة هتف:

- ماما، «ناريمان» كانت تريد النزول مرة أخرى.

التفتت إليه «حنان» وصاحت:

- وأنت ماذا كنت تفعل تحت المنضدة؟!

- أنا؟!

راح «رامز» يكحت آخر ركن من الحائط، وهو يُبعد عن ذاكرته ما حدث. لطالما كان كبش الفداء مهما حاول الفرار من ذلك المصير.

***

في بداية أبريل، وصلت «ناريمان» إلى مطار القاهرة، وركبت سيارة أجرة من هناك متجهة إلى الدقي.

اتصلت بـ«رامز» قبلها وأخبرته أنها ستأتي بنفسها ولا حاجة إلى استقبالها في المطار. لم تكُن تعرف لِمَ توقعت أن يأتي من الأساس.

اتصلت بـ«ويلارد» وطمأنته على وصولها، وقد كان قلقًا مِمَّا ستواجهه، وقد رأى بعينيه في تسجيل كاميرا المراقبة تجسُّد أبيها يجول في المنزل حتى في أثناء غيابها يتلصَّص على حساباتها على

مواقع التواصل الاجتماعي، ويقلب في أوراقها، بل ويعيد ترتيب بعض الأغراض في شقتها وفق ما يراه هو.

وصلت «ناريمان» عند مدخل البناية، ووقفت أمامه حاملة حقيبة كتف صغيرة لا أكثر. منذ أعوام طوال نزلت من سيارة أجرة مع أبيها وأمها و«رامز»، ولم تكن تعرف ما ستحمل لهم إجازتهم القصيرة.

بجوار شقة «حسين» و«بريجيت»، رأت صندوق نفايات كبيرًا مُفعمًا بقصاصات الأوراق والقماش، وأفرع النباتات الجافة. ومن داخل الشقة استطاعت تمييز صوت أغنية بالإنجليزية تعود إلى الستينيات أو السبعينيات:

«جيل كامل يتحرّك عبر العالم في موجة عارمة..

تحمل تفسيرات مختلفة..

إلى من سيأتون إلى سان فرانسيسكو..

توّجوا رؤوسكم بطوق الأزهار..

إن كنت ستأتي إلى سان فرانسيسكو..

فستجد في صيفها حُبك».

تسارعت دقات قلبها وهي تصعد الدرجات. لم تعُد البناية مُعتنى بها كما في الماضي، كل شيء يذوي ويذبل بغرابة. وقفت عند باب شقتهم، ونظرت إلى الطابق العلوي. رأت ساكنه قد طلى ما حول شقته بطلاء أبيض وزيّن المدخل بنباتات ظل، ويصدر من خلف الباب الموصد صوت تلاوة قرآنية هادئة. يبدو أن الوباء محصور في هذين الطابقين الملعونين. رنت الجرس وانتظرت حتى فتح لها «رامز» الباب.

لقد صار حرفيًا شخصًا آخر، ولم تكن لتعرفه لو رأته في الشارع:

- «ناريمان»، حمدًا لله على سلامتك.

أفسح «رامز» لها كي تدخل، وكان يرتدي ملابس الخروج. سمعت صيحة سعادة، وقبل أن تدرك ما يحدث، وجدت «أمنية» تقفز بين ذراعيها وتحتضنها:

- «نانا»! لا أصدق! ما هذه المفاجأة؟

- «رامز»، ألم تقل لـ«أمنية» إنني آتية؟

- فضلت أن أفاجئها.

لم يكُن «رامز» ينظر إلى عيني «ناريمان» المتسائلتين. أنزلت «أمنية» وأمسكت كفها وهي تنظر حولها إلى الشقة التي صارت خطامًا. الحوائط مقشرة واللوحات القديمة أصيبت بخدوش شوهتها. «النيش» مليء بالتراب وفتات السيراميك. وفي وسط الصالة تكوّمت ملابس ممزقة وكتب وحقائب. لم يبدُ لها أن «رامز» يرى غرابة في هذا كله.

- «ناريمان»، خذي راحتك. سأصحب «أمنية» للجلسة ونتحدث حين نعود.

- هل يمكنني اصطحابها أنا هذه المرة؟

- كلا.

جذب «أمنية» من يدها وحمل الحقيبة الصغيرة التي قد حضّرها لها وهمّ بالخروج.

- «رامز»، لو كنت قد تأخرت قليلًا، وخرجت أنت، فأين ستظنني كنت سأذهب؟ لِمَ لَم تتصل بي وتخبرني كيف سيسير يومك؟

- لم أعتد القلق عليكِ، فلطالما كنتِ قادرة على إدارة حياتك بنجاح. جهزتُ لك حجرتي القديمة، أعرف أنك لن تحبي المبيت في... في الحجرة الأخرى، و«أمنية» تنام في حجرتك. هيا يا «أمنية».

شعرت «ناريمان» بالحنق يجتمع في صدرها، لكنها ابتسمت لـ«أمنية» وقبّلتها، بينما الأخيرة تبتعد عنها وفي عينيها تطل آلاف التساؤلات

والمخاوف.

جلست «ناريمان» على كرسي السفرة تحدق إلى الباب المغلق، ورائحة «التنر» تخنقها. ثم راحت عيناها رغمًا عنها تتحركان نحو حجرة أبيها وأمها. لن تدخل هذه الحجرة أبدًا.

ولجت «ناريمان» حجرة «رامز»، ولم يكُن قد أزال الغبار عن أي شيء في الشقة لسبب لا تعلمه، لكنه رتب كل شيء في صفوف متوازية من الأكبر إلى الأصغر، وطوى الأغطية بهندام يليق بالفنادق.

لم تكُن قادرة على تنظيف أو فعل أي شيء بعد سفر طويل دام ساعات. أزالت الملاءة المغبرة واستلقت على السرير بملابسها، وأرسلت رسالة إلى «ويلارد» تطمئنه فيها، فأرسل إليها يطلب منها موالاته

بالمستجدات. ثم أغمضت عينيها ونامت دون أن ترد حتى على رسالته.

***

أغلقت «بريجيت» الستائر جيدًا بعد أن رأت «ناريمان» تعود وتصعد إلى شقتها. شعرت أن شيئًا عظيمًا على وشك الحدوث، لكنها لم تعرف كنهه.

لم تشعر بمثل هذا الشعور المُقبض منذ وفاة «توماسينو» في أبريل ٢٠١٦م.

بسبب مرضها لم تستطِع السفر لحضور الجنازة، وبدلًا من ذلك عزلت نفسها أيامًا تتذكّر كل كلمة قالها لها، وكل ابتسامة، وكل مساعدة. كان حزنها عليه مختلفًا عن حزنها على أبيها. كان أصدق بكثير، ولهذا لم تُطقه.

كانت تهرب منه إلى أرض العجائب، وتحاول استحضاره هناك. لكنه أبدًا لم يحضر، وكأنه يرفض في موته كل ما تفعله من هروب وعبث

باتزانها النفسي.

عزت فشلها هذا إلى أنها لم تكن تملك أي شيء من أغراض «توماسينو» ، ولا أثر له في المكان سوى على حوائط شقة «عادل». لقد حرمها اللعين كلا الأبوين..

حاولت في الفترة التالية لوفاة «توماسينو»، تذكرت وصيته أن تُعالج نفسها وتمحو عن روحها الصدأ.

كيف كان «توماسينو» يمحو عن الآخرين صدأ نفوسهم؟

حاولت أن تفهم أكثر العلاقة التي أنشأها أبوها بين ذكرياته السيئة واللوحات، والعلاقة بين الرسم والتخلص من المشاعر المؤذية التي كان يستخدمها «توماسينو» مع المدمنين. بدأت في المطالعة من جديد لعلها تفهم، لعلها تستطيع حبس اللعين «عادل» وذكراه والصدأ الذي خلفه في نفسها.

أدركت «بريجيت» أن كل ما يراه المرء ويرسمه بيديه يعبُر عبر عقله أولا ويُصفّى ويضفي عليه العقل طابعًا مميزًا قبل أن يسمح له بالخروج على الورق. الرسم عمومًا هو عملية تحويل كل ما هو حقيقي ثلاثي الأبعاد، إلى رسمٍ من بُعدين.

ثم هناك الرسم التخيلي، حين يتخيّل الرسام شيئًا غير واقعي في عقله، ثم يرسمه، فيكون بهذا خالقًا لشيء جديد لم يوجد قط سوى في عقله.

العلاقة بين ما يفعله الرسام وما يفعله الـ«توليامانسر» وثيقة؛ الأول ينقل من الواقع إلى الورق عبر عقله، أو يرسم ما يتخيله عقله مباشرة على الورق. أما الثاني فهو ينقل جزءًا من الواقع، من شخصيته، كما هو إلى عقله ليعيش حبيسًا وسط عالم من إبداعه هو.

ثمة حلقة مفقودة، لو عرفتها لاستطاعت أن تعود إلى مشروعها

الأول، وتحبس «عادل» إلى الأبد.

ثم ألهمتها رسائل المتعافين من الإدمان، الذين ساعدهم «توماسينو» عن طريق العلاج بالرسم، التي أرسلوها عبر «فيسبوك»:

- «توماسينو»، ابن الزهور، كما كان يحب أن يُطلَق عليه، ساعدني في حبس كل ما دمرني من الماضي في ركن بعيد من عقلي حتى استطعتُ التعافي. كان يجعلني أرسم وأفرغ معاناتي على الأوراق ووسط الألوان، والآن، أنظر إلى كل ما أخافني في حياتي وأراه ضئيلًا بلا قيمة. لم أعُد أخاف الماضي ولا حاجة لي إلى الهرب منه. ماضٍ صار كتلة من الألوان حبيسة إطار لن تفر منه أبدًا.

مئات من رسائل العزاء تُزين حائط «توماسينو» المزدان بالورد وعلامات النصر. لقد وصل «توماسينو» إلى حلمه أخيرًا، وحصل على النهاية التي تمناها، وأزال صدأ روحه، لكنها لم تحصل على نهايتها بعدُ.

بدأت «بريجيت» في تجارب أخرى، محاولة حث «تولبا» أبيها على الخروج من عقلها. بكاميرا هاتفها المحمول، شغلت تسجيل الفيديو وبدأت في تصوير تجاربها على دفع «تولبا» أبيها على تلبُّس جسدها، تمامًا مثلما حكى لها مَن رأى تلك التجربة في التبت. شهور مرت وهي تحاول وتحاول، بلا جدوى.

ثم بدأت في صنع لوحة مِمَّا ترك أبوها، خاصة من خطاب أمها وبقايا علب الأقراص التي كان يتعاطاها وشرائط الكاسيت الخاصة به. كان عليها نقله من أرض العجائب إلى اللوحة مباشرة إن كانت عاجزةً عن تجسيده. ظلت في تجاربها المجنونة، تتأرجح ما بين محاولات التعايش مع فقد «توماسينو»، والخوف من عودة شبح «عادل».

والصدأ يزحف أكثر وأكثر على روحها.

وبعد عودة «رامز»، تأكدت لها مخاوفها. أحد ابني «عادل»، أو حفيدته، هو من يجسد «تولبا» جديدة، وعليها إيجاد طريقة لمعرفته،

ودفعه إلى الخلاص منها بإرادته أو رغمًا عنه. وكان هذا الاحتمال هو الأقرب للعقل.

ستقف مع «رامز» وتساعده، في النهاية هدفهما واحد.

على الميت أن يظل ميتًا للأبد، ففي الموت فرصة أخرى لحياة لن تدع «عادل» يسرقها منها مرة أخرى.

* * *

في المساء، عاد «رامز» بـ«أمنية»، وقد كانت مُعتلة، ودرجة حرارتها عالية. ظلت نائمة في سريرها و«ناريمان» بجوارها، بينما «رامز» جالس في الصالة يُفكر فيما سيحدث..

كانت فكرة «بريجيت» هي حبس تولبا «عادل»، التي صنعها أحدهم - هو أو «بريجيت»، أو حتى «أمنية» - في اللوحة التي صنعتها من مقتنيات الأب. تمامًا مثلما فعل أبوها بحبسه ذكريات أمها وجدتها، وكما كان يفعل «توماسينو» لمساعدة المدمنين على التعافي. خليط ابتكرته بين علوم الشرق الأقصى وسحره، وبين العلاج بالفن والعلاج النفسي. لكن اللوحة التي قد أهدتها «رامز» تمزقت، وعاد كل عنصر فيها إلى أصله المأخوذ منه.

قالت «بريجيت» لـ«رامز» إنها ستصنع لوحة أخرى وتُبقيها لديها، وحين تعود «ناريمان»، ستأتي هي وستبدأ معهما رحلة إرجاع الأشباح إلى جحيم النسيان، إلى حيث تنتمي.

«رامز» لم يكُن يحتاج إلى «بريجيت» إلا لإقناع أخته بأن الفكرة ليست نابعة منه، على طرف ثالث أن يتحمل قيادة رحلة التخلُص من الـ«تولبا» ونتائجها. لكنه لم يرتح قط لنيات «بريجيت».

لم يخبر «رامز» «ناريمان» بشكُه فيها، وفي «أمنية» ذاتها. لو أخبرها لهاجمته ورفضت العودة. عليه أن يضعها أمام الأمر الواقع إن كانت هي مَن تصنع تلك الـ«تولبا» اللعين، فعليه الخلاص من أشباحها بأي

ثمن.

أما عن شكه في «أمنية» فهو أمر آخر. ماذا لو كانت هي من تصنع الـ«تولبا» الجديدة وتصنع نسخة منها كما صنع جدها نسخة منه؟ ماذا لو أن «ناريمان» و«أمنية» هما مصدر كل تلك الـ«تولبات» المرعبة؟

لم يتبادل هو و«ناريمان» إلا بضع كلمات، وكانت هي تتحاشى لومه على تصرفاته جميعًا، فلم يكن شيء مِمَّا يفعله يليق برجل ناضج.

لكن في النهاية، ومع انتصاف الليل، جاءته «ناريمان» حاملة صحفة عليها كوبان من الشاي، وتربعت جواره على الأريكة، وراحت تنظر إلى ما ينظر إليه، إلى الحمام المغلق:

- «أمنية» نامت. علينا اصطحابها للطبيب في الصباح. أرسلتُ تقاريرها إلى طبيبٍ في أستراليا.

تنهَّد «رامز»، وقرر ابتلاع ما فعلته؛ فها هي تلومه على تقصيره بشكل خفي.

- شكرًا. يمكنك أن تنامي لو أردتِ. سأوقظك حين تأتي «بريجيت» ومعها لوحة خاصة، تستطيع حبس الشبح فيها كما أخبرتك.

- كنت أريد الحديث عن ذلك الأمر يا «رامز».. أنا أعرف أن ثَمَّة شبحًا، لا أجادلك في هذا. لكن ما دخل «بريجيت» في هذا الأمر؟ كيف نضمن مصداقية تجاربها تلك؟ أنا قرأت عن الـ«تولبا» وأعرف أنها تختفي بموت صانعها، فكيف قالت لك إن «تولبا» أبي ما زالت موجودة؟ لا بُدَّ من أن هناك تفسيرًا آخر.

- وهل قابلتِ «تولبا» يموت صاحبها من قبل كي تتأكدي من أنها تموت بموته حقًا؟

كان سؤالُها خبيث للغاية، واحتقن وجه «ناريمان» وهي تقول:

- لو ستتحمل أن نفتح باب الكلام في هذا الأمر، لنتكلم. أنت تعرف

أنني فعلت ما فعلت من أجلك أنت فقط..

- بل فعلتماه من أجل مصلحتكما. عمومًا، لنجرِّب يا «ناريمان»، لِمَ ترفضين كل شيء أقترحه؟! لستُ طفلًا.

- كما شئت.. كما شئت.. لكن لن أفعل شيئًا قبل أن تذهب «أمنية» إلى الطبيب.

أمسكت كوب الشاي وراحت ترشفه وهي تعود إلى حجرتها، التي كانت حجرة «رامز»، وهي تحاول ألا تُفكر في أن «رامز» هو مصدر الـ«تولبا» الحالية لا أباها. كل شيء بدأ بعودته إلى الشقة وتحمله مسؤولية «أمنية» كاملة. ربما لا يعي ما يفعل، لكن الـ«تولبا» الحالية تختلف في التفاصيل عن تلك التي كانا يريانها في طفولتهما. هذه الـ«تولبا» تهاجمها، ولم تفعل ذلك «تولبا» أبيها قط.. إلا في مرة واحدة، حين رمتها بالسكين يوم وفاة «حسين».

تجتمع الصورة في ذهنها: «رامز» ينتقم منها ومن نفسه لما حدث يوم وفاة أبيهما. لا تفسير أمامها سوى ذلك. «رامز» ينتقم منها منذ أن وعى كراهيته إياها، منذ نيف وثلاثين عامًا.. تولبا «رامز» هي مَن حاولت قتلها بالسكين.

لكنها عادت ونبذت تلك الأفكار بعيدًا؛ فقد عاهدت نفسها على ألا تُلقي اللوم على «رامز» مجددًا. لو أنه مَن يفعلها فالذنب ذنبها وذنب أمها وأبيها، وهي مستعدة لفعل أي شيء للخلاص من هذه الـ«تولبا»، مهما كان الثمن.

أمسكت برأسها وتزاحمت المشاعر في قلبها. تساءلت: ماذا عليَّ أن أشعر؟ غضب؟ شفقة؟ تأنيب ضمير؟ شبكة معقدة من المشاعر تتصارع عليها وتمزقها. تمنت لو أنها أخذت فرصتها في العلاج النفسي أولًا قبل العودة.

سمعت ثلاث طرقات على باب الشقة، ففزعت، وسمعت صوت «رامز»

يخبر الطارق أن ينتظر. كانت تريد أن تمنعه من أن يفتح الباب، كانت تريد الانكماش في ركن سريرها حتى تموت.

ثم سمعت صوت امرأة متحشرجًا واهنًا. أطلت من فرجة بابها لتراها، «بريجيت» النحيلة فائقة الجمال وقد زينت وجهها فراشة حمراء، ميزتها «ناريمان» فورًا. «بريجيت» مصابة بالذئبة الحمراء.

بدا لـ«ناريمان» في كل حركة لـ«بريجيت» أن حالتها متدهورة، مُهملة. نظرة عينيها الزائغتين تدل على اضطراب نفسي. «بريجيت» ليست على ما يرام ولا يمكن الوثوق بها.

ثم تذكرت كيف حمتها «بريجيت» في طفولتهما، حين تبدَّت لها يُمناها العاجزة عن الحركة بشكل سليم، فعاد إليها شعورها المَقيت بالذنب. كيف تتهم «بريجيت» بالخبال بعد كل ما فعلت لأجلها؟

مسحت «ناريمان» وجهها، وتنهدت، ثم خرجت لتقف وسط الصالة، تحاول انتزاع ابتسامة تخفي خلفها خفقان قلبها وارتعاش جسدها:

- «بريجيت».. مرَّ وقت طويل. تفضلي.

- «ناريمان».. وكأن الوقت لم يمضِ.

جالت «بريجيت» بنظرها حولها في خجل، باحثةً عن موضع قدم وسط الفوضى. سألت «رامز» وعيناها مثبتتان على لوحة الفتاة الصقلية على الحائط:

- كيف حال «أمنية»؟

- سآخذها للطبيب غدًا. حالتها غير مُستقرة.

- كل شيء سيكون على ما يُرام.

ظلَّ نظر «رامز» مُعلقًا على الصندوق الذي تحمله. صندوق خشبي بسيط مثبت عليه قفل. فتحته ورأوا بداخله لوحة، مجرد قماش مؤطَّر،

ومعه علبة مادة لاصقة قوية وفرشاة.

قالت «بريجيت»:

- ربما يخطر ببالك يا «ناريمان» سؤال: ما سر ولعي بالخلاص من شبح

أبيكِ؟ الأمر بسيط للغاية، أبوكِ وشبحه أخذا مني كل شيء. أهذا سببٌ كافٍ يا «ناريمان»؟

- بالتأكيد.. كافٍ. لا أعترض أبدًا على هدفك؛ فثلاثتنا.. أربعتنا إن كان لي أن أضم «أمنية» لضحايا أبي كذلك، تأثرنا بما فعل هو وشبحه.

نظر إليها «رامز» نظرة غاضبة حين جاءت سيرة «أمنية»، وسألها:

- وما دخل «أمنية»؟!

- «رامز»، ربما تكون الليلة هي فرصتنا الوحيدة للمصارحة. أعرف أن قسوة أبي عليك كانت أكبر من قسوته عليّ أو على أمّنا ذاتها، وما فعله قد نقل إليك نيرانه بالكامل، وبدلًا من أن يضيء مشعله طريق ابنه، أحرقه وأحرق كل مَن اقترب مِنه.

- مرة أخرى تلومينني على كل شيء. لن أسمع هذا الهراء.

- ستسمع مني، وسأسمع منك. لا مجال للحديث عمّا فعلته مع طليقتك، فلو كانت مسخًا كما تزعم، فأنت مَن مسخته. أنت تعرف جيدًا كيف تُعامِل «أمنية»، تلك البائسة ما كانت تستأهل كل تلك السموم التي نفثتها في جسدها.

- «ناريمان»!

- ولا أعفي نفسي مِمّا صرتَ أنت عليه يا «رامز». لا أعفي نفسي مُطلقًا، وأتمنى لو يقتص الله مني بذنبك، لكن الله أمهلني كي أقتص من نفسي بيدي. انظر إلى حياتي يا «رامز» وستعرف أن الله عادل. «ناريمان» مجرد حطام، كتلة من المشاعر المشوهة، وحيدة، مكروهة

من أقرب شخص لها، أخيها. كِفَّتانا متساويتان.

ـ لن تكونا متساويتين أبدًا؛ فعلى الأقل أنا لم أقتل.

لم يبدُ على وجه «بريجيت» أي دهشة؛ فقد كانت تعرف أن «عادل» قد مات قتيلًا، لكها بالطبع لم تكُن تعرف أن لـ«ناريمان» ضلعًا في الموضوع.

تكاد تسمع صوت «حنان» المحتضرة توصيها بـ«رامز»، لكنها نسيت أن توصيها بـ«ناريمان» المعذبة خلف مظهر فتاة أبيها المدللة.

لاحظت «بريجيت» ظلًا غريبًا يتحرك على الحائط خلف «ناريمان»، ظلًا شديد الضخامة، فقالت:

ـ أعتقد أن...

وأشارت بيدها إلى ما خلف «ناريمان»، ففزعت الأخيرة وقامت منتفضة، ولا شعوريًا وقفت خلف «بريجيت». كان الظل أضخم من أن تتضح تفاصيله، فقد سوَّد أغلب الحائط وما زال باقي الظل داخل الحمام.

قالت «بريجيت» وهي تتراجع حاملة الصندوق:

ـ علينا أن نبدأ ما جئت لأجله، «رامز»، اسمح لي أن أختار بعضًا من أغراض أبيك التي كنت قد صممت منها اللوحة الأولى.

سحبت «بريجيت» «ناريمان» خلفها نحو ركن بعيد عن الظل. ووصلت إلى «رامز» من فعلتها التلقائية رسالة واضحة: «بريجيت» و«ناريمان» في معسكر واحد ضده. لطالما كان يفهم الأمور على هذا النحو.

لكنه كذلك كان خائفًا، حانقًا، مُستهلَكًا بلا سبب. دفع نحوهما بصندوق صغير يحوي بقايا لوحة «بريجيت» الأولى.

جلست «ناريمان» و«بريجيت» على مقعدين حول السفرة، ولحق بهما «رامز». الظل ثابت يرقبهم من طرف الشقة، يحجب في ظلامه باب

حجرة «أمنية».

- «رامز»، هل أحضر «أمنية»؟

- لا أعتقد أن حالتها تسمح برؤية كل ما يحدث. اتركيها لتنام الآن.

أخرجت «بريجيت» اللوحة الخالية، وأسندتها في وضع مائل إلى المنضدة. عن يُسراها جلس «رامز»، وعن يُمناها راحت «ناريمان» تقرض أظفارها، وعيناها لا تغادران الحجرة المغلقة والظل.

قالت «بريجيت»:

- قبل كل شيء، الـ«تولبا» من صنع أحدكما. كل ما أعرفه أن الـ«تولبا» تموت بموت صاحبها؛ فمن غير المنطقي أن يكون ما نواجهه هو بقايا «تولبا» أبيكما.

تساءلت «ناريمان»:

- لحظة، قال لي «رامز» إنك تزعمين أننا نواجه «تولبا» أبينا. أليس هذا ما قلته يا «رامز»؟!

ارتبك «رامز» هنيهة ثم قال:

- «ناريمان»، لو كنت قد قلت لك إننا نشك أنكِ أنتِ، أو أنا، من صنع تلك الـ«تولبا»، لأسأتِ الظن بي ولما جئتِ لمساعدتنا.

- ومن قال إنني كنت سأتخلى عنكما حتى لو كنت أنا من أصنعها؟!

- لطالما تخليتِ عنَّا يا «ناريمان». لن أعدِّد لك المرات أمام الغرباء.

قالت «بريجيت» وهي لا تنقل عينيها عن الظل:

- لا مجال للشجار الآن، هل أنتما مستعدان لتقبل أن يكون أحدكما صانع الـ«تولبا»، وأن عليه محوها بإرادته؟

- بالتأكيد!

قالتها «ناريمان»، لكن «رامز» لم يعلق. أردفت «بريجيت»:

ـ ما سنفعله هو التالي، لكل منا ذكرى سيئة مع «عادل»، على كلٍّ منا أن يختار واحدًا من أغراضه، وأن يلصقه على سطح تلك اللوحة بنفسه، ويحكي لنا ذكراه معه. لا مجال للخجل أو الخوف. الخطر حقيقي وعلينا فتح الجرح وتنظيفه. مُتوقَع أن يثير ما نفعل غضب الـ«تولبا» وقلقها، لكن لا داعي للخوف؛ فأحدكما قادر على التحكُّم بها ودفع أذاها.

تساءلت «ناريمان»:

ـ ماذا تفعلين بالضبط يا «بريجيت»؟ علاج بالفن؟

ـ هو ما قلتِ.. لستُ ساحرة، ولا أعرف عن طرق التخلُّص من الـ«تولبا» إلا أمرًا واحدًا، مَن صنعها هو الوحيد القادر على الخلاص منها. لكن صانعها قد لا يدرك أنه مَن فعل ذلك. ما نراه هنا قد يكون أثر تولبا «عادل»، لكنني موقنة أنها «تولبا» صنعها أحد ابنيه رغمًا عنه بسبب ما فعله به. النتيجة واحدة، عليكما الخلاص من تلك الـ«تولبا» في أقرب وقت.

لم تتوقع «بريجيت» أن يتم الأمر بسهولة، فلو أن ما تفعله هو ضرب من ضروب العلاج بالفن، فالرحلة قد تحتاج إلى شهور أو أعوام حتى يُشفَوا من كل أثر لـ«عادل»، لكن عليهم البدء في أقرب وقت، فقد أرسلت لوحتها الغريبة لـ«رامز» في بداية عودته إلى الشقة، كي تثير فضوله، وتفتح معه بابًا للحوار فتساعده من خلاله، لكن الأمور سارت في اتجاهات لم تحسبها، والوقت ينسل من بين أصابعهم سريعًا. الـ«تولبا» الحالية عنيفة، مختلفة عن تولبا «عادل». «عادل» كان متلاعبًا يؤذي بحديثه ووجوده الثقيل. كلما مر الوقت، أيقنت أن تلك الـ«تولبا» من صنع شخص آخر، وعليها التأكُّد سريعًا.

مدَّت «ناريمان» يدها إلى تمثال سيدة عارية مكسور، عليه آثار تصليح قديمة، أمسكت الفرشاة وغمستها في اللاصق، ثم طَلَت جزءًا

من اللوحة به، وثبتت التمثال:

ـ أنا من كسر هذا التمثال، ورأيت لأول مرة «توليا» أبي بعدها. «رامز».. أعترف أنني كنت مخطئة حين أخفيت تلك الحقيقة، وتركت أبي يعاقبك. أبي كان مخطئًا حين ميّز بيننا، وأنا كنت مخطئة حين أحببت هذا التمييز وفضّلت نفسي عليك.

ابتسم «رامز» في مرارة، وأشاح بنظره بعيدًا. صمته أثار أعصاب «ناريمان» فصاحت:

ـ «رامز»، ما أفعل ليس سهلًا أبدًا، عليك أن تسمعني وترد عليَّ. اغفر لي أو قل لي إنك لن تسامحني، لكن لا تصمت هكذا!

لم تتحرك ملامح «رامز»، فقالت «بريجيت» وهي ترقب أي تغيير على الظل:

ـ دورك يا «رامز».. اختر شيئًا.

قام «رامز»، وراح يبحث في قاع الصندوق عن شيء، ثم أخرج أوراق اللعب ونثرها على المنضدة وقال في سخرية:

ـ أتذكرين هذه يا «ناريمان»؟ لم أطلب منك يومها الكذب، كل ما طلبته هو الصمت.

قالت «بريجيت» بصوت خفيض:

ـ «رامز»، أرجوك، ركّز على مشاعرك السلبية تجاه أبيك الآن. أبوك هو

مَن فعل كل هذا بكما وبعلاقتكما بعضكما ببعض، لو استمررت في لوم «ناريمان» فسينتصر أبوك مجددًا.

ألصق «رامز» الأوراق وهو يقول:

ـ سأفعل ما أشاء، أبونا لم يكن ملاكًا، وكان لديكِ الاختيار يا «ناريمان»، وكان لأمك الاختيار. ليس عدلًا أن تلوموه وحده. ألا تشعرين

بالذنب تجاه رجل لم يؤذِك أنتِ بالذات ومع ذلك قتلتِه؟

ـ «رامز»!

تنحنحت «بريجيت»، وكل ما كان يخطر ببالها كلما أتى ذكر مقتل «عادل» هو الرضا والعدالة. آخر ما رأى هو يدا ابنته وزوجته الملوثتان بالدماء. تُرى كيف قُتل؟ ولِمَ؟

قامت «ناريمان» في حنق متجهةً نحو حجرة «أمنية» وهي تقول:

ـ سأطمئن على المسكينة.

ـ أنتِ تهربين يا «ناريمان».. أنتِ من تصنعين الـ«تولبا» لأنك تشعرين بالذنب تجاه أبينا.. أنتِ قاتلة وتحاولين إحياء ضحيتك على حسابنا. أنتِ نسخة منه ولن تقبلي إلا أن تكوني هو.

* * *

دخلت «ناريمان» حجرة «أمنية»، وأغلقت الباب خلفها كي يُخرس لوم «رامز» المستمر. تهاوت على الأرض تبكي.

بيد مرتجفة، أخرجت هاتفها المحمول واتصلت بـ«ويلارد». لا يهم فرق التوقيت، لا يهم سوى أن تسمع صوت شخص يستطيع أن يراها بشكل غير الذي ترى عليه نفسها:

ـ «ويلارد».. أنا قتلت أبي يا «ويلارد».

ـ «ناريمان»؟! ماذا حدث؟ أين أنتِ؟ وأين أخوكِ؟

ـ اسمعني يا «ويلارد»، أيمكن أن أكون أنا مَن صنع تلك الـ«تولبا» كي أدمر ما تبقى من أخي؟ أيكون إحساسي بالذنب هو من جعلني أتحول إلى نسخة أخرى من أبي؟

كانت تبكي وهي ترى الظل الأسود ينساب من فرجة الباب العلوية، كنقش أسود يتسلل على الحوائط، ويسحب النور، وينثر الرماد. زحفت

«ناريمان» نحو «أمنية»، وأحاطتها بذراعها وقالت لـ«وِيلارد»:

ـ لو انتحرت، أيموت معي ما صنعت؟!

كان الظل يقترب، يتجسّد من الحائط ليصير ثلاثي الأبعاد، أضخم من أن يُدرك. وكان يقصد «أمنية».

فتحت الأخيرة عينيها ورأته، ورأت «ناريمان»:

ـ «نانا».. أهذا... حقيقي؟

وكانت كلما فتحت عينيها منذ عادت من المستشفى، رأت العالَم بشكل مختلف، لا يوصف. ثقل عظيم يجثم عليها لكنها لا تشعر بوزنه. تطفو أحيانًا في بحر من مادة ساخنة غامضة، تصرخ همسًا. درجة حرارتها المُرتفعة حاصرتها في زنزانتها المخيفة. تحسست كفها الفراش لعلّها تجد «ناريمان»، لكنها لم تكُن هناك، وكان بدلًا منها الفأر الأبيض الصغير. قال لها بصوت جدها:

ـ هيا يا «أمنية»، لنرحل بعيدًا حيث لا ألم؛ حيث لا تكونين عبئًا على أحد، بابا ترك حياته من أجلك، وها هو تعيس، وحيد، مكتئب، فهلا تتركين حياتك من أجله؟ ألا تشتاقين إلى «جدو»؟

أغمضت عينيها وبكت حتى نامت. كانت بالفعل تريد الرحيل، لا بسبب الألم والمرض، بل بسبب البرودة والخوف. شعوران لا تستطيع إلا أن تشعر بهما وحدهما دون غيرهما. لم تمر دقيقة لم ترَ فيها نظرة اللوم في عيني أبيها، اللوم على مرضها، وعلى تأثيره في حياته، وعلى كونها موجودة بالأساس.

وحين استيقظت الآن، كانت «ناريمان» بجوارها، كيان الجد الضخم يحيطها من كل جانب. كانت تشعر بلهيب وجوده، مؤلمًا، مختلفًا عن برودة أبيها. وكان يحادثها كما لم يفعل أبوها، يهتم بألمها ويحدثها عنه. كان هاوية مغوية تجذبها، ولا يمسكها عن السقوط فيها سوى كف

«ناريمان»:

- أنا هنا يا «أمنية».. انظري إليّ.

نادت «ناريمان»:

- «رامز»!

ثم سمعت «ويلارد» يهتف بها:

- ماذا يحدث عندك؟ ابقي معي!

يصدح صوت الظل:

- «ناريمان».. حبيبتي.. أنا غفرتُ لكِ، يمكنك الاستسلام للنوم الآن، أنا أحبك، وسأنسى ما فعلتِه لو جئتِ إليّ.

تهمس «أمنية»:

- جدو.. أأنت هو حقًا؟ أنا مُتعبة..

تهتف «ناريمان»:

- «أمنية»، لا تسمعيه يا حبيبتي، هذا.. هذا وَهم، اتفقنا؟

ثم تقول لـ«ويلارد»:

- ماذا لو كنت أنا من أصنع الـ«تولبا» يا «ويلارد»؟ هل يتوقف كل هذا لو مُتُّ؟

- «ناريمان»، لو كنتِ مَن يصنعه حقًا، فيمكننا علاج الأمر. لا تقلقي.. الـ«تولبا» جزء متجسد من الخيال لا أكثر. ماذا يحدث عندك؟ صوت مَن هذا؟ وماذا يقول؟

بيدٍ مرتجفة، أغلقت «ناريمان» مكالمتها مع «ويلارد»، اتصلت به في مكالمة مرئية عبر «ماسنجر». كانت تريده أن يرى ما يحدث ويؤكد لها أن ما تراه حقيقة.

شهق «ويلارد» قائلًا:

- احملي الطفلة واهربي من هنا..

ألقت «ناريمان» الهاتف المحمول على السرير، وحملت «أمنية» بذراعين هشتين مرتعدتين. ما زالت عيناها على الظل المربع والظلام الجاثم حرفيًا عليهما. الرماد يغرقهما، والباب لا ينفتح. ظلت تنادي:

- «بريجيت».. «رامز».

لم يبدُ أن أحدًا يسمعها، استدارت تواجه الظل، وهي تدفن وجه «أمنية» في صدرها وتهمس لنفسها:

- هذا مجرد وهم.

- لستُ وهمًا يا «نانا».. هل تعتبرين روحك وأحلامك وذكريات الإنسان وهم مُعبأ في وعاء من طين؟

- أنتَ إذًا حقيقة، لكنك ماضٍ انقضى ولن يعود، ولن يؤثر في أحد الآن.

حاصرهما الظل في ركن، وامتدت أنامله تمس خد «أمنية».

- «أمنية»، أنتِ تعرفين أنني لا أكذب، وتعرفين طريقي كما اتفقنا من قبل.. سأنتظرك.

صرخت «ناريمان»:

- انصرف!

توالت الطرقات على باب الحجرة، وسمعت «رامز» يصيح:

- افتحي يا «ناريمان».. افتحي.

أخيرًا انكسر الباب، وتهاوت «ناريمان» أرضًا. هرعت «بريجيت» نحوها تطوقها بذراعها هي و«أمنية». بينما لم يبدُ على «رامز» سوى

الغضب:

- ماذا تريدين من ابنتي؟! هاتيها!

مدَّ ذراعيه نحو «أمنية»، إلا أن الأخيرة أطبقت كفيها على ملابس «ناريمان». كانت تعرف أن تصرُّفًا كهذا سيشعل غضبه، وكانت تعرف أن النهاية قادمة، وأن لحظة حنان كتلك قد تكون الأخيرة بغض النظر عن عواقبها.

لكم «رامز» الجدار، ثم انتزع «أمنية» انتزاعًا، وحملها كوسادة وخرج بها. هرعت «ناريمان» خلفه، تكاد تزحف على أطرافها الأربع، والرماد يغرق شعرها وملابسها:

- «رامز».. انتظر.

- ولا كلمة.

ألقى «رامز» «أمنية» على أريكة حجرة المكتب، وأغلق الباب بالمفتاح، ثم صاح:

- اجلسي هنا وتخلصي من تلك الـ«تولبا» اللعين التي صنعتِها.

تهاوت «ناريمان» جالسةً على المقعد أمام لوحة «بريجيت». وجلس «رامز» قبالتها، ووضع أمامها قدَّاحة «عادل» الذهبية:

- بماذا تذكرك هذه؟ بكل المرات التي كنتِ تدخنين فيها في الشرفة وفي الجامعة، بينما تخاف أمك أن تبلّغ عنك أبانا؟ وماذا فعلتما حين استعرتُ أنا تلك القداحة؟ ماذا فعلتما؟!

لم تكُن «بريجيت» قادرة على النهوض من مجلسها على الأرض في غرفة «أمنية»، راحت تنظر حولها، للرماد المتناثر، وآثار الأطراف الضخمة الزاحفة على الحوائط. ما يحدث هنا مُريع، ما يحدث خبيث، أشد خبثًا مِمَّا فعل «عادل» في حياته. «عادل» كان كاذبًا شرسًا يستمتع بتكسير عظام ضحيته قبل التهامها، بينما صانع تلك الـ«تولبا»

جريح غاضب ينزف الغضب والصديد.

ثم نظرت إلى «ناريمان» و«رامز».. أيهما يصنع هذا؟ لم تُتح لها فرصة الحديث مع «ناريمان» قط، ولم يحكِ لها «رامز» أي شيء من ماضيه مع أبيه. لكن ما يحدث بينهما الآن هو تصفية حسابات قديمة من طرف «رامز»، لن يُسفر هذا عن علاج، بل عن مزيدٍ من الجروح.

تذكرت «توماسينو»، والمرات اللانهائية التي كان يساند فيها أباها ويساعده على التعافي. لو أن الأولاد تناسخٌ لآبائهم، فهي تناسخ لـ«توماسينو».

قامت «بريجيت» مُترنحة، الألم يطحن عظامها.

وصية «حنان»..

الرابط الذي يربط ثلاثتهم..

والنهايات المفتوحة تطالب بالغلق..

كان هاتف «ناريمان» على الأرض بجوارها، أغلقت المكالمة مع «ويلارد»، فظهرت لها ضمن آخر الرسائل المُتبادَلة تصوير فيديو يبيّن شبح «عادل». لم يكُن هو مَن رآته «بريجيت» الطفلة، لكنه حقيقي وخطر.

فزعت ووضعت الهاتف فوق خزانة صغيرة، تحاملت على نفسها وسارت نحوهما، مُتكئةً على الحوائط التي تحمل ضربات فرشاة أبيها الثاني. ألوان قوية مبهجة غطتها سنوات من الرمادية والكراهية وطعنات سكين المعجون الذي أزال به «رامز» الطلاء.

«عادل» عاد يا «توماسينو»، والـ«تولبا» ليست وهمًا.

قالت «ناريمان» وهي تمسك القداحة:

- أعرف أنني عشت كما أريد، وفعلت كل ما أبغي بالكذب والتدليس. كنت السكين التي يقتلوا بها أبي.. ماذا أفعل يا «رامز» كي أكفّر عن

هذا؟

- لا شيء يمكنه التكفير.

قالت «بريجيت» في وهن وهي تجلس بجوار «ناريمان»:

- رجاءً.. ما تفعله يا «رامز» لن يساعدنا. انظرا إليّ، فقدت أغلب عمري حبيسة الماضي، ولا أزعم أنني انتصرت عليه، لكنني أحاول. حاولا أن تنتصرا على ما يغذّي هذا الـ«تولبا» وكُفا عن لوم بعضكما البعض.

صاح «رامز»:

- ماذا تريدين أنتِ؟ تريدين الخلاص من الـ«تولبا»؟ ها نحن نتخلّص منها. تريدين مشاركتنا مصيبتنا لتشمتي؟ لا نحتاج إلى وجودك يا «بريجيت».. هذا أمر عائلي.

صمتت «بريجيت» عاجزةً عن الرد، لم تكُن تريد أن تخبره أنها تنفذ وصية أمه، في الواقع هي كانت تتصرَّف كما كان سيتصرَّف «توماسينو» ببساطة.

قالت «ناريمان»:

- أنت جُننت يا «رامز».. «بريجيت» تحاول مساعدتنا، وسواء

أقتنعنا بجدوى لوحتها تلك أم لا، فعلينا مواجهة بعضنا البعض. من يخلق هذه الـ«تولبا» غاضب متألم، وعلينا علاج مصدر هذا الألم. السيدة لم تخطئ.

- أتذكرين يا «ناريمان» كيف كان يجذب أبونا الناس في صفه ضدي؟ كيف كان يُشهِد عليّ أصدقاءه فيقتنعون خلال ثوانٍ بذنبي الذي لم أقترفه؟ هل...

- كفى يا «رامز».. لستُ أبانا ولن أكون هو. إن كان مِنا نسخة عنه فهو أنت!

صرخت «أمنية» من خلف باب المكتب المغلق. جرت «ناريمان» أولًا تحاول فتح الباب وهي تصيح:

- «رامز»، هات المفتاح!

لكن «رامز» كان قد تجمّد مكانه وهو يرى «أمنية» تخرج بهدوء من المطبخ حاملةً كوبًا من اللبن، وجنتاها حمراوان، بشرتها نضرة تشي بالصحة.

- بابا.. أنا هنا، هل تنادي؟

تصلّبت كفّا «ناريمان» على مقبض الباب، واتسعت عينا «بريجيت» رُعبًا. سارت «أمنية» نحو أبيها في تلقائية وقالت:

- ماذا حدث في أثناء نومي؟ «نانا»، لِمَ تنظرين إليّ هكذا؟ متعجبة من أنني شُفيت؟ أنا بالفعل شُفيت تمامًا. لنأكل ونخرج ونلعب ونفعل كل ما نشاء. ليغد أبي إلى عمله وأغد لأمي وتعودي يا «نانا» إلى أستراليا، حيث أصدقائك الجدد وعملك الذي تحبينه.

قالت «بريجيت» وهي تتذكر شبح أمها:

- لا تدعوها تشتتكما، هذه ليست «أمنية». اكسرا الباب.

أفاقت «ناريمان» سريعًا وراحت تُفتش جيوب «رامز» المتجمّد مكانه، حتى وجدت المفتاح. دسته في الباب بيد راجفة، بينما تسير «أمنية» نحو اللوحة على السفرة، وتنظر إلى «بريجيت» نظرة كراهية مُخيفة، وهمست لها:

- لن تنجح محاولاتك للخلاص منا. أعدك بهذا.

صرخت «ناريمان» وهي تحمل «أمنية»، والدم ينزف من شرايين يدها. كانت واعية، واهنة، مطبقة بيدها اليمنى على سكين فتح الخطابات. قالت لـ«ناريمان»:

- سأذهب إلى «جدو»، أنا متعبة.. اتركيني.

صاحت «أمنية» الأخرى وهي تمسك بكف «رامز» المذهول:

- دعها ترحل، أنا هنا بدلًا منها.. أليس هذا حلمك يا أبي، ابنة سليمة مُطيعة؟

بكت «ناريمان» وصرخت وهي تضع «أمنية» على الأريكة وتبحث عمّا تربط به جرحها:

- «بريجيت»، ابحثي لي عن أي شيء يصلح لربط ذراعها. أحضري لي حقيبتي من الحجرة هناك.. بسرعة!

«بريجيت» تتهاوى وهنًا وخوفًا. أنفاسها تتسارع وتكاد تفقد الوعي وهي تفكر سريعًا. جرت نحو الحجرة التي أشارت إليها «ناريمان»، لتجد «عادل» شاهرًا سكينه أمامها:

- «جيجي».. كنت دومًا أسمع أباك يناديكِ بهذا الاسم.. «جيجي».. أتذكرين «عادل»؟

أدار السكين بين كفيه وأردف وهو ينظر إلى يدها اليمنى:

- تذكرين ما يفعله «عادل» حين يغضب. لقد وعدتك أن أعود، وها أنا عُدت لأجدك شقية كما كُنتِ.

لوحة الفتاة الصقلية خلفه بألوانها الصارخة تجذب نظر «بريجيت». صوت «توماسينو» الأجش إذ يغنّي لها في عيد مولدها.. ضحكات إخوتها، رائحة الإفطار الذي يُعده أبوها في رمضان وهو يقرأ القرآن قبل المغرب.. البحر.. مارتساميمي.. سو «ماسيمو» وماما «جيوسيبينا».. بائعة الجرائد الطيبة، وبسمة دكتور «رجب» الشهم.. لكن كفها تؤلمها، مرضها ينخر فيها، رائحة دماء أبيها.. «عادل».

أغمضت عينيها وانسحبت إلى أرض العجائب. أبوها جالس يرسم في الكرفان.

- «جيجي».. تعالي يا قطتي.

يفتح ذراعيه لها، تعدو نحوه.. سأترك كل شيء يا أبي.. أنا مُتعبة..

وقبل أن تصل إلى ذراعيه يختفي كل شيء. الرماد ينتثر حولها ولا شيء سوى الألم وصوت «توماسينو» يصدح:

- «بامبينا».. نحن مَن نضفي الحقيقة على أشباحنا يا «بريجيت». لم أنجرف يومًا نحو إضفاء تفسيرات عقلانية لكل ما هو ليس ماديًا. كنت ببساطة أتخطاه وألتفت إلى الحياة الحقيقية. الصدأ حقيقي يا «بريجيت».. صدأ الروح حقيقة.

فتحت «بريجيت» عينيها لتجد «ناريمان» تجذبها بعيدًا عن شبح «عادل»، وفي لحظة شعرت «ناريمان» بالسكين تعبر جوار رقبتها.

- «بريجيت»، لنخرج من هنا.

ربطت «ناريمان» ذراع «أمنية» بشرشف المنضدة الصغيرة، وحملتها وجرّت خلفها «بريجيت». كان «رامز» واقفًا مكانه، محدّقًا في الفراغ والزبد يسيل من بين شدقيه.

سألت «ناريمان» «بريجيت»:

- أتقدرين على حمل «أمنية»؟

هزت «بريجيت» رأسها نفيًا، لكنها فهمت ما تريد «ناريمان»، فعادت «بريجيت» إلى «رامز» وجذبته كي يخرج معهم من الشقة. الجدران تتآكل ويغزوها الظلال. الرماد ينتثر فوقهم وصوت «عادل» يهدر:

- لن يخرج أحد من هنا.

ثم بصوت حنون قال:

- «أمنية».. لا تتشبثي أكثر بالعالم الكريه..

صرخت «ناريمان» وهي ترى فئرانًا بيضاء تنهش في رأس «أمنية»

فاقدة الوعي. تهاوى «رامز» أرضًا وقتها، واختفت «أمنية» الثانية..

راحت تتلفت «بريجيت» حولها في ذعر وهي ترى الظل المربع يتلاشى. نظرت نحو «ناريمان» وقالت:

- «رامز».. «رامز» هو من خلق كل هذا الهول.

***

الدقي - الجيزة

٢ أبريل ٢٠١٨م

تجلس «بريجيت» و«ناريمان» في قاعة الانتظار في مستشفى خاص، ريثما ينتهي الأطباء من خياطة جرح «أمنية».

حدّقت «بريجيت» في كوب الشاي الورقي بين كفيها بعد أن سمعت رحلة «ناريمان» للتعافي، ثم قالت في شرود:

- كان عليَّ اتباع نصيحة «توماسينو»، كان عليَّ السعي إلى التعافي وعلاج صدماتي وهلاوسي وسعيي المحموم نحو الهاوية. ما كان عليَّ أن أنصاع لجنوني.. ماذا دهاني كي أظن أنني قادرة على مواجهة شيء كهذا؟ أنا جُننت.

- كفى يا «بريجيت».. ما رأيناه حقيقيٌّ.. الـ«تولبا» حقيقة.. أيًا ما كان التفسير، فتشوهاتنا النفسية قد تغادر أجسادنا وتصبح خطرًا علينا وعلى مَن حولنا. أخي هو من يفعل كل هذا، وأنا من صنعت منه هذا الوحش.

- أبوكِ هو من فعل ذلك..

- كما قال «رامز»، أنا وأبي واحد. مهما فعلت فلن يُمحى أثر ذنوبي. «بريجيت».. ماذا سنفعل؟ أنا خائفة.

حاولت «بريجيت» تذكّر كيف كان «توماسينو» يتصرّف معها حين

تخبره أنها خائفة.. سألت «ناريمان» بصوت مبحوح:

- فيمَ تفكرين؟

- أفكر.. أفكر في أن «رامز» لن يغفر لي، وسيقتلني.. سيقتل ابنته.. قد يقتلكِ لو واجهته بما صار عليه.

- سنظل معًا ولن يستطيع أن يؤذينا. لن نسمح له أن يكون شبحًا لـ«عادل».

- هل تصدقينني؟ هل تصدقين أنني نادمة؟

حدقت المرأتان بعضهما في بعض، وقالت «بريجيت» في ثقة:

- أصدقك.

مرت ساعة ونصف الساعة، حكت فيها «بريجيت» كل ما مرت به منذ قُتِل أبوها حتى جاءتهم منذ ساعات تحمل لوحتها الغريبة في صندوق. أمسكت «ناريمان» رأسها بكفيها، ومسحت دموعها في كُم قميصها وقالت:

- لا أصدق ما أحدثه أبي وشبحه في حياتنا.. أبي كان يصنع تلك الـ«تولبا» بإرادته، ويعرف خطرها. أبي كان يعرف أن شبحه قتل أباك واتصل ليلتها كي يعرف كيف تصرفنا في غيابه.. «بريجيت»، أنا قتلت أبي، قتلته أمي وأنا تركته يموت، ولا أستطيع الآن أن أشعر بالذنب كما كنت في الماضي. أنا قاتلة ولم يعُد في جسدي شعرة تتعاطف معه.

راحت كفاها ترتعشان حتى سقط منها كوب الشاي الفارغ. طوَّقتها «بريجيت» بذراعها وقالت:

- لا شيء يبرر القتل يا «ناريمان»، لكن الله لا يحكم علينا بهذه الحِدَّة التي نحكم بها على أنفسنا وعلى بعضنا البعض.

- أقسم إنني حاولت التعافي، حاولت بكل قوتي وظننت نفسي قادرة

على شفاء نفسي وأخي، لكن الله لم يغفر لي.

ـ ماذا علينا أن نفعل كي تسامحي نفسك وتكفّري عن ذنبك؟ سأساعدك أيًا ما كان ما تُفكرين فيه.

صمتت «ناريمان» هنيهة وهي تسترجع كلمات «ويلارد»، قالت:

ـ الآباء المختلون يحلون في أجساد الأبناء كالشياطين، ويطردون منها أرواحهم النقية. يُمثلون بأجسادهم أحياء.. الآباء أخطر من الشياطين، فمن يملك مفتاح جسد ابنه يمكنه أن يحل فيه كملاك حارس أو شيطان رجيم. «بريجيت».. أنتِ مُحقة. علينا إخراج شيطان أبي من «رامز»، علينا استئصال ما زرعته فيه. بعدها سأسلم نفسي للشرطة وأعترف بما فعلت بأبي.. لكن...

ـ لكن؟

ـ هل سيتفهم أحد ما حدث يومها؟ أمي لم تعطِ أبي الدواء عمدًا، وتركته يموت إثر نوبة قلبية. أنا رأيت كل شيء ولم أمنعها. لكن إن لم نفعل هذا لقتل أبي «رامز».

* * *

الدقي ـ الجيزة

١٥ فبراير ٢٠٠١م

ما زالت المحال تضع في نوافذ عرضها هدايا عيد الحب، لكن كل شيء ينتهي في حياة «ناريمان». لا داعي لتعذيب زوجها أكثر من هذا.

ممزقة هي بين إخفاء حقيقة أبيها عن «علاء» زوجها، وبين خلق المبررات لأبيها عن كل أفعال «علاء» العفوية، وخلق تبريرات لـ«علاء» عن أفعال أبيها الجنونية المريضة، وتمثيلها لكل أطياف المشاعر التي خوَت روحها منها. تريد لكل شيء أن ينتهي.

ليت العالم يموت كما تموت روحها.

في الخامس عشر من فبراير، تمنَّت «ناريمان» الموت، لكن الموت ليس بالتمني.

صعدت الدرجات حتى وصلت إلى شقة أبيها، قرعت الجرس. صوته يهدر من الداخل:

ـ افتح يا «رامز»، ردفاك صارا كردفي امرأة حامل.

لن تستطيع أن تنظر في عينيه حين يفتح لها. حمدت الله على أن زوجته لا تأتي معه.

فتح «رامز»، غمغمت شيئًا، وغمغم شيئًا. لم تتلاق أعينهما. لو لم يزورا أباهما لاتصل بأهلَي زوجيهما وشكا لهم. سيفضحهم لدى الجميع وسيشيع قصة الرجل العجوز المريض الذي لا يزوره أولاده بلا جريرة منه. زيارة كل أسبوعين بغير زوجيهما تطفئ رغبته في الثرثرة وتشويه سمعتهما قليلًا. لكنهما لا يسلمان أبدًا من لسانه.

أقعد مرض السكري عادل دميري، بُترت قدمه اليمنى، وأتت المياه الزرقاء على أغلب نظره. كلما ضعف جسده، صار أشرس، وكأنَّ مرضه إهانة، عليه محوها بسلاطة لسانه وسيطرته عليهما حتى وهو مُقعد.

دخلت «ناريمان» المطبخ لتجد أمها جالسة تقشر الثوم. أومأت إليها برأسها وهمَّت بالدخول إليها، لكنها أشارت إليها أن تذهب إلى أبيها أولًا.

بدا لها أن ثمَّة مشكلة مع «رامز». مجرد أن دخلت إلى أبيها حتى صاح:

ـ تعالي وانظري ما فعل أخوكِ المتعوس. أخوك سرقني يا «ناريمان»!

وألقى بقداحته الذهبية بجواره على الكومود مُردفًا:

ـ كلما اختفى شيء قلتُ لنفسي لا يمكن أن يكون «رامز»؛ فأنا ربيته

جيدًا ولم أحرمه شيئًا. لكنه يسرقني يا «ناريمان». ابن الزنا يسرقني ليطعم عاهرته.

كان صوته يعلو بالشتائم، أغلقت «ناريمان» النوافذ كي لا يصل صوته إلى جيرانهم.

- زوجته هذه عاهرة برخصة. لن تتركه يعاشرها حتى يدفع الثمن. كل يوم والآخر يطلب مالا من أمه، والخرقاء تعطيه وأنا أسكت وأتغاضى.

- أبي.. صوتك يا حبيبي ربما...

- تريدين أن تُخرسيني أنتِ الأخرى؟! طبعًا.. لهذا لا يأتي زوجك ابن الباشوات أولاد الكلب معك كي لا يرى أباك المجنون. هه؟ صرت تخشين الناس ولا تخشين غضب أبيك؟!

- أبي.. اهدأ.. قلبك لن يتحمَّل كل هذا الانفعال.

- سأموت لترتاحوا مني. سأترككم لكلاب الشوارع تنهش فيكم، يومها ستترحمون عليّ، وتضربون أنفسكم بالنعال لأنكم قتلتموني بأفعالكم.. يا أولاد الحرام.

دخلت «ناريمان» الحمام وأغلقته على نفسها. كانت تريد أن تبكي لكنها لم تجد الدموع. فتحت حقيبتها وأخرجت كيسًا به نواقص أدوية أبيها، التي اشترتها له في طريقها. فتحت الخزانة الصغيرة المُعلّقة في الحمام ورصّت العلب في نظام دقيق كما يحب أبوها. أخرجت قرصَي دواء النقرس من شريطهما، ووضعتهما في الطبق الصغير المُخصص لتقديم الدواء، ثم ملأت الكوب من الصنبور وجففته من الخارج. لو لمح أبوها قطرات ماء على الكوب لصاح: هل تقدمون الماء لكلب؟ ماذا دهاكم؟ لا تحترمون من يشرب؟!

خرجت من الحمام بعد أن تأكدت أنه لا يظهر على وجهها أي أثر لضيق. دخلت لأمها وقالت:

- لا تنسي موعد الدواء. حضرت كل شيء.

نظرت أمها إلى الطبق الصغير وهزت رأسها في شرود. جلست «ناريمان» تساعد أمها في تحضير الغداء حين سمعت أباها ينادي:

- «رامز».. «رامز»!

سمعت «ناريمان» وأمها خطوات الأخير تتجه نحو حجرة نوم «عادل».

- اتصلت بحميك وأخبرته بما فعلت؟

صاح «رامز»:

- لماذا؟! هل جُننت؟!

- اخرس يا حيوان.. سيأتي كي أحادثه عن العاهرة ابنته التي دفعتك إلى الفسوق وسرقة أبيك.

- ما ذنب «لمياء»؟ ماذا تريد مني؟ تريد أن أموت لترتاح؟

- إن كُنتَ رجلًا فعلًا مُت.. كيف تتحمل عارًا مثل هذا وتقف تناطحني وتنعتني بالمجنون؟

ثم علا صوت «عادل» أكثر وأكثر وصاح:

- لستَ رجلًا.. لعلك تبلل فراشك الآن مثلما كنت تفعل وأنت مراهق.

لِمَ لَمْ تُنجب حتى الآن أيها العِنِّين؟ بالطبع تشتري صمت زوجتك بمالي كي لا تفضحك.

- كفى.. سأريحك مني.

خرج «رامز» من حجرة أبيه الذي ما زال يصيح:

- إن كنت رجلًا افعلها أيها المُخنث.

قامت «ناريمان» ملاقت «رامز» عند باب حجرته أمسكته من ذراعه

قائلة:

- «رامز».. انتظر.

- سأريحكم مني جميعًا.

قالها مصممًا، وكان يعني كل حرف فيها. أغلق الباب على نفسه، وسمعته يجر كرسيًا ليضعه خلفه، فلم تكُن للأبواب أقفال حسب تعليمات أبيها. لم يكُن لأحد خصوصية سوى هو، مكتبه هو المكان الوحيد القابل للغلق.

فتحت «ناريمان» الباب، لكن الكرسي المائل خلفه منعها من الدخول.

- «رامز».. افتح.

لأول مرة تسمع صوته يهدر:

- اغربي عن وجهي!

ما زال أبوها يصيح:

- ابن الفاجرة يظن نفسه رجلًا.. لِيَبُل على قبري إن أفلح. ساعة وسيأتي حموه، وليُرِني كيف سيبرر سرقاته.. ابن الفاجرة.

ظلت «ناريمان» تطرق على باب «رامز» وتناديه همسًا، لكنه لم يكُن يرد. جلست أمام الحجرة لا تعرف ما عليها فعله. صمت أبوها أخيرًا فعاد الهدوء، واندفعت العَبرات من مُقلتيها.

قالت همسًا مُلصقةً وجهها بباب «رامز»:

- «رامز».. أرجوك، اخرج وكلمني.. سأسمعك يا «رامز». أنا آسفة على كل شيء.. أنا مُتعبة وأحتاج إليك.. «رامز».

سمعت من داخل الحجرة صوتًا مُختلفًا عن صوت أخيها. كأنه أبوها يقول:

ـ لو كنتَ رجلًا افعلها الآن، أو واجِه حماك وزوجتك.

نظرت «ناريمان» من ثقب المفتاح، كان ما رأته كافيًا كي تعرف أن مَن مع «رامز» يحمل سكينًا.

اللعنة! أتذهب لأبيها ترجوه أن يترك «رامز» وشأنه؟! سيثور أكثر ولا تعلم ما سيفعل بهم شبحه. نادت على أمها:

ـ ماما.. تعالي ادفعي معي الباب.. «رامز» ليس وحده.

فهمت «حنان» من امتقاع وجه ابنتها ما تعني. لم يظهر عليها الخوف، وإنما لأول مرة ترى «ناريمان» هذا الغضب على وجهها. سمعتا صوت «عادل» يصرخ في ألم:

ـ «حنان».. «حنان»!

جرت «ناريمان» لتجد أباها متدليًا من سريره، يمسك بقلبه مُحتقن الوجه، جاحظ العينين:

ـ ابن الزانية سيقتلني.

توقفت «حنان» عند الباب تنظر إليه في غضب. صاحت «ناريمان»:

ـ ماما، أحضري قرصي «داينيترا» من الخزانة بسرعة.

خرجت «حنان» وأعادت «ناريمان» أباها إلى مرقده.

ـ اهدأ يا أبي.

ـ العاهر ابن العاهرة يقول إنكما تكرهانني.. يقول إنكما.. إنكما...

ـ أبي، لا أحد هنا.. اهدأ.

تأخرت «حنان»، فقامت «ناريمان» إليها، وأمام حجرة «رامز» رأت شبح أبيها شاردًا مُسودَّ الأطراف كأنه يتلاشى إلى دخان أسود. تلاقت عيناها وعينا أمها الواقفة داخل الحمام. بلا تفكير، جذبت «حنان»

ابنتها وقالت همسًا في غضب مكبوت:

- لو مات «عادل»، هل سيموت هذا الشيء معه؟ موت «عادل» كارثة لا أستطيع حتى التفكير فيها، لكن لو لم يمُت سيموت «رامز»!

نظرت «ناريمان» نحو الشبح المترنِّح. أجل.. سيرحل الشبح برحيل أبيها.. لكن...لم تقدر على هضم الفكرة، أمسكت «ناريمان» بشريط الدواء وحاولت جذبه من يد أمها، لكن الأخيرة تمسكت به بعنف حتى اختطفته منها وألقته خارج النافذة وقالت بصوت هامس كالفحيح:

- سيموت «رامز» يا «ناريمان».. ابني سيموت!

خرجت «ناريمان» إلى المطبخ وأحضرت قرصي دواء النقرس الذي كانت قد وضعته في الطبق الصغير، وحملته مع كوب الماء إلى أبيها.

كانت تبكي بملامح جامدة. وضعت واحدًا من القرصين تحت لسان أبيها. نظر إليها بعد ثوانٍ وقال:

- هذا ليس... الدواء.

- اهدأ يا أبي.. أرجوك.. اهدأ.

صرخ «عادل» وبصق وحاول النهوض، لكنه تهاوى مكانه. اتسعت عيناه وهو قابض على صدره يجاهد كي يتنفَّس.

- أحبك يا أبي.. سامحني.. لكني أحب أخي كذلك.

أسندت جبينها إلى جبينه، وتلاقيت أعينهما لآخر مرة.

صرخت «حنان» صرخة صادقة ملتاعة وهي تلقي بنفسها فوق جسد «عادل». تلثم وجهه وكفيه. انزلقت «ناريمان» أرضًا تحدِّق إلى خارج الحجرة؛ حيث كان شبح أبيها يهيم بلا هدف متخبطًا بين الحوائط. خرج «رامز» على صوت الصرخات وتساءل في حيرة:

- ماذا حدث؟

قالت «ناريمان»:

- أزمة قلبية.

التفتت «حنان» إلى ابنها، وقامت تُقبله وتبكي:

- الحمد لله يا «رامز».. الحمد لله.. سامحني يا بني.

- علامَ أسامحك؟ ماذا حدث؟!

- لقد رحل الشبح أخيرًا! سامحني يا بني، فما كنت لأسمح لشيء أن يأخذك مني.

نظر «رامز» إلى الطبق الصغير، وقرص النقرس عليه. سأل «ناريمان»:

- ماذا فعلتما؟ لا أفهم!

- ما وجب علينا فعله يا «رامز».. كل شيء انتهى.

- قتلتماه؟!

دفع «حنان» بكل قوته وجلس بجوار أبيه يمسك بكفيه ويضعهما على وجهه ويقول:

- أبي.. أنا هنا يا حبيبي، قُم.. لا تمزح! أعرف أنك تطيل الصمت كي تعاقبني.. أنا آسف.. هيا.. كلمني.. عانقني.

جذب «رامز» جسد «عادل» إليه وعانقه:

- هكذا.. هيا.. ضمني يا أبي.. أبي.

زحفت «ناريمان» حتى خرجت من الحجرة.

- أبي.. قل لي ماذا أفعل.. غد يا أبي وافعل بي ما تشاء.

أخذت حقيبتها وغادرت دون كلمة أخرى..

- أبي!

ولم تعُد «ناريمان» إلى شقة أبيها حتى يوم الأول من أبريل ٢٠١٨م.

***

قالت «ناريمان» لـ«بريجيت»:

- شبح أبي رحل برحيله.. وجاء شبح «رامز».. هو مَن كان يرسل صورة أبي لتخيف أمي كما تقولين في آخر أيامها. ليتني أبقيتُ على صلتي بها يا «بريجيت». لكنني عجزت عن مسامحتها أو مسامحة نفسي. لم نتحدث بعد يوم وفاة أبي إلا لِمامًا، ولم نجتمع مُطلقًا. هاجرتُ أنا ولم أحضر جنازة أمي، ولم يحضرها «رامز».

- أبلغتْ جارنا في الطابق الثالث أنني سمعت صوتًا مُريبًا في شقتكم، وأن أمك لا ترد على الهاتف. وكسر باب الشقة وعرف أنها تُوفيت، وتولّى هو كل شيء. الرجل المسكين تورط فيما لا يفهم مرتين.

ضحكت «بريجيت» في مرارة. قالت «ناريمان»:

- أتعرفين يا «بريجيت»؟ العلاج النفسي والعلاج بالفن وطقوس طرد الجن والشياطين تتشابه إلى درجة غريبة. كلها تدور حول طرد كيان شيطاني أو أحاسيس خبيثة تغزو الأرواح.

- صدأ.. يسميها «توماسينو» صدأ.

- صدأ.. شياطين.. هلاوس.. ذكريات.. ولا يزول أيها بالهرب منها. علينا مواجهتها.

ابتسمت «ناريمان» وأضافت:

- لطالما كُنا توأمتين يا «بريجيت».. أنا وأنتِ، «ويلارد» و«توماسينو».. أشباحنا المُشتركة. ما دمنا نقف على أقدامنا فثمّةَ أمل في التغيير والنصر حتى ولو بشكل مخالف لتوقعاتنا. ما فعله أبي بكِ وبنا لن يتغيّر، وقد خلّف ندبة دائمة لن نُغطيها بل سنفخر بنجاتنا منها.

وسنتعايش معها ونجعلها جزءًا من هويتنا. مفهوم؟

- مفهوم.

- سأعود إلى «رامز» بعد أن أطمئن على حالة «أمنية». هل يمكن أن تظلي معها حتى أعود؟

- بالتأكيد.

تحسست «ناريمان» رقبتها حيث مستها سكين الـ«تولبا» وقالت:

- «بريجيت».. لو حدث لي شيء، فـ«أمنية» مسؤوليتك حتى تُسلميها إلى أمها أو جدها. لا تُعيديها لـ«رامز» أبدًا لو فشلت.

* * *

رنَّ هاتف «ناريمان»، ظلَّ يهتز حتى سقط من فوق الخزانة حيث وضعته «بريجيت». أفاق «رامز» على صوت السقوط.

شهق.. سعل.. نظر حوله ورائحة «التِّنر» من زجاجة مكسورة تخنقه.

احتاج إلى دقائق حتى وعى ما حدث، دماء «أمنية» على الأرض وعلى الأريكة. الصمت من حوله، هاتف «ناريمان» هنا، فلا يمكنه معرفة أين ذهبن. ترنَّح حتى وصل إلى باب الشقة، فوجد المرأتين قد حبستاه بالداخل. ركل الباب مرات حتى صرخ.

التفت فرأى انعكاس وجهه في مرآة النيش، بينه وبينها أكوام من شظايا الخزف، ولوحة «بريجيت» على المنضدة.

نظر إلى كفيه والخدوش عليهما. الآن يذكر تمزيقه اللوحة الأولى وإعادة عناصرها إلى مكانها. يذكر إعادته الخزف المكسور إلى الأرفف.. يذكر إزالته الطلاء عن الحوائط:

- أبي.. أنا آسف، لكن كل شيء سيعود كما تريد بالضبط.. لا تقلق.

راح «رامز» يعيد رص زجاجات «التنر» في صف بمحاذاة الحائط.

عدَّل وضع المقاعد حول السفرة. راح يمسح بكفه على التراب المتناثر حول لوحة «بريجيت» كي يمحو آثار أصابعهم عليه. لم تعجبه النتيجة، فهرع إلى الحمام وجلب المنظفات، وجلس ينظف بحرص التراب، ودس أوراق اللعب والقدَّاحة الذهبية في جيبه:

ـ أنا لا أسرقك يا حبيبي، أنا فقط أحتفظ بأغراضك الثمينة بعيدًا عن «ناريمان» الشقية.. لا تقلق.. لا تقلق.

ثم مسح سكين فتح الخطابات من دم «أمنية» في ملابسه، ودسها في جيبه. أدرك أن شرشف المنضدة الصغيرة غير موجود، وأن نقشته مطبوعة على التراب من تحته، فركع ينظِّف مكانه:

ـ سأستعيد الشرشف منها حين تعود، وسأعاقبها.. لا تقلق يا حبيبي.

في انعكاسه على سطح الزجاج رأى وجهه، كان وجهه المُعتاد، لكنه كذلك لم يكُن هو. نظرته أكثر تحديًا وقوة.. عيناه أكثر حدة. تجمَّد «رامز» وهو ينظر إلى انعكاسه الذي يقول:

ـ أظنك عرفت من أنا.. تذكر كلام «بريجيت» عن الكاهن الذي استحضر «تولبته» على وجهه وراحت تتكلم بدلًا منه. أنا أنت يا «رامز».. صديقك الوحيد.

أغمض «رامز» عينيه، وبدلًا من أن يرى الظلام، رأى نفسه جالسًا في الصالة يهز ساقه في توتر. صدح صوت جرس الباب، تلاه صوت أبيه:

ـ افتح يا «رامز»، ردفاك صارا كردفي امرأة حامل.

سخرية مقيتة.

رأى نفسه يقوم ويفتح الباب. كان يعرف أنها «ناريمان». غمغم شيئًا لم يسمعه ولا يذكره.

ارتمى على المقعد مرة أخرى، بينما دخلت «ناريمان» المطبخ، ثم دخلت إلى أبيهما الذي راح يحكي لها كيف سرقه «رامز».

تقدم «رامز» من نفسه في الماضي، سبعة عشر عامًا مضت غيّرت فيه كثيرًا.. أحرقته.

كان صوت أبيه يعلو بالشتائم، أغلقت «ناريمان» النوافذ كي لا يصل صوته إلى جيرانهم:

«أبي.. اهدأ.. قلبك لن يتحمل كل هذا الانفعال».

فليذهب إلى الجحيم..

لا.. لا يمكن أن يتمنى لأبيه مصيرًا كهذا، الله يعرف ما يفكر فيه وسيعاقبه أشد العقاب.

شبح أبيه يعرف وسيعاقبه أشد العقاب..

«سأموت لترتاحوا مني. سأترككم لكلاب الشوارع تنهش فيكم، يومها ستترحمون عليَّ، وتضربون أنفسكم بالنعال لأنكم قتلتموني بأفعالكم، يا أولاد الحرام».

دخلت «ناريمان» الحمام وأغلقته على نفسها. بعد قليل سمع أباه ينادي:

- «رامز».. «رامز»!

قام «رامز» وهو يسب أباه في سرِّه، ويلعن نفسه ويلعن عقوقه إياه. تسلل «رامز» إلى الحجرة ليرى نفسه في الماضي يقف أمام أبيه مُنكسة الرأس، خانعة. كان يرى نفسه من الخارج، لكنه يستعيد كل شعور شعر به وقتها في نفسه.

أيكون يوم الخامس عشر من نوفمبر هو أرض العجائب التي حبسته فيها «تولبته»؟! أهذه إجابة تساؤل «بريجيت» عن المكان الذي يذهب فيه وعي الـ«تولبامانسر» الأصلي حين تتولى «تولبته» قيادة جسده؟

قال أبوه وبسمة قبيحة ترتسم على شفتيه:

- اتصلت بحميك وأخبرته بما فعلت؟

صاح «رامز»:

- لماذا؟! هل جُننت؟!

- اخرس يا حيوان.. سيأتي كي أحادثه عن العاهرة ابنته التي دفعتك إلى

الفسوق وسرقة أبيك.

سيأتي حمي، ستعرف زوجتي، سيعتني أبي بالعِنين العاجز المخنث. الجيران قد سمعوا.. الكل يعرف حقيقتي.. الكل يصدق كذبه.

صاح «رامز»:

- ما ذنب «لمياء»؟ ماذا تريد مني؟ تريد أن أموت لترتاح؟

- إن كُنت رجلًا فعلًا مُت.. كيف تتحمَّل عارًا مثل هذا وتقف تناطحني وتنعتني بالمجنون؟

ثم علا صوت «عادل» أكثر وأكثر وصاح:

- لست رجلًا.. لعلك تبلل فراشك الآن مثلما كنت تفعل وأنت مراهق.

لِمَ لَمْ تُنجب حتى الآن أيها العِنين؟ بالطبع تشتري صمت زوجتك كي لا تفضحك.

- كفى.. سأريحك مني.

خرج «رامز» من حجرة أبيه الذي ما زال يصيح:

- إن كنت رجلًا افعلها أيها المُخنث.

قامت «ناريمان» ولاقت «رامز» عند باب حجرته، أمسكته من ذراعه قائلة:

- «رامز».. انتظر.

- سأريحكم مني جميعًا.

قالها مُصممًا، وكان يعني كل حرف فيها. دخل حجرته وأغلقها على نفسه. لم تكُن للأبواب مفاتيح حسب تعليمات أبيه، فأمالَ كرسيًا وأسنده إلى الباب. ظلت «ناريمان» تحاول فتح الباب حتى انفرج قليلًا، لكن الكرسي المائل خلفه منعها من الدخول.

- «رامز».. افتح.

صاح بها بكل يأسه:

- اغربي عن وجهي!

ما زال أبوه يصيح:

- ابن الفاجرة يظنُّ نفسه رجلًا.. لِيَبُل على قبري إن أفلح. ساعة وسيأتي حموه، وليُرِني كيف سيبرر سرقاته.. ابن الفاجرة.

ظلت «ناريمان» تطرق على باب «رامز» وتناديه همسًا، لكنه لم يكُن يرد. ظل الباب يهتز، ثم رأى «رامز» الكرسي يطير في الهواء، ورأى أباه يدخل عليه شاهرًا سكينًا.. صاح فيه في غلّ وابتسامة ساخرة على شفتيه:

- لو كنت رجلًا افعلها الآن، أو واجه حماك وزوجتك.

السكين في يد شبح أبيه تلمع أمام عينيه. ليقتل نفسه وينتهِ كل شيء. أمسك السكين وأغمض عينيه.

لستُ جبانًا.. أنا رجل وقادر على تنفيذ كلماتي.

تسارعت دقات قلبه وهو يقرّب السكين من معصمه.

رأى «رامز» نفسه في حجرة أبيه فجأة، ورأى نفسه أمام فراش أبيه. أصابته الحيرة لوهلة حتى أدرك أن مَن في حجرة أبيه هي أول تجسد

لـ«تولبته».. كان هو، «رامز»، بكامل صفاته، إلا أنه كان منتصب القامة، حاد النظرات، غاضبًا.

قالت «تولبته» لأبيه:

- لا أحد يحبك.. لا أحد يحتاج إليك. أنت خلقت وهمًا بالسيطرة، لكنك في النهاية مجرد عجوز مُهمل نطيعك خشية لسانك. في لحظة لن تجد

أيًا منا. سأرحل وسأعيش كما أريد، وسترحل «ناريمان» وستنساك كأنك لم تكُن.. وستموت أمي.. وستظل وحيدًا..

تهدجت أنفاس «عادل» وهو لا يصدق أن يرى «رامز» يتحدث بهذا الثبات، وقال في غضب:

- كيف تجرؤ؟!

- أنا لم أسرق، أنا آخذ حقي كما تأخذ «ناريمان» حقها. أحتاج إلى مال لا تعطيه لي إلا بالإذلال والامتهان. كيف سأعيش وقد زوّجتني وتعايرني بأنني غير قادر على الإنفاق على زوجتي؟ أفعلت هذا لتزيد من أفضالك عليّ فقط؟ وفي نظر الجميع أنت أب شهم مثالي، يُزوج ابنه ويساعده في مصاريفه. أنت جعلت مني هباءً.. لا شيء.

أمسك «عادل» بصدره وقال:

- أنت عاق.. ستقتلني يا ابن الزانية ولن يتركك الله.

- ولن يتركك أنت كذلك.. أنا أعرف كل شيء يا «عادل».. الخمر، الزنا، القمار.. أشياء أخفيتها خلف زبيبة الصلاة والحوائط الباهتة الكئيبة والتهديدات الفارغة بالغضب الإلهي.

صرخ «عادل» في ألم:

- «حنان».. «حنان»!

رحل «رامز» عن مشهد أبيه باختفاء «تولبته»، ووجد نفسه في

حجرته.. «رامز» يفتح عينيه ببطء وينظر إلى السكين، ثم يرفع عينيه إلى شبح أبيه ليجده شاردًا، يسير نحو باب الحجرة المُغلق مُترنحًا. كل وهم صنعه يزول.. السكين تختفي.. الكرسي لا يزال مائلًا في موضعه خلف الباب. سمع «رامز» صوت أبيه يصيح:

- ابن الزانية سيقتلني.

رأى «رامز» نفسه يتكوَّم ويحتضن ساقيه. الخوف والغضب ولا شيء سواهما. ضربه إحساس مُريع بالذنب أنه هو من سيتسبب في موت أبيه بأفعاله. وأدرك «رامز» أنه لم يدرك قط أن له «تولبا» منفصلة خرجت عن إرادته وباحت بكل ما يُخفي لأبيه.

كان «رامز» عالقًا في دائرة من نقاش داخلي مقيت.

ما كان عليه أن يناقش، ما كان عليه أن يسرق، ما كان عليه أن يحتاج إلى شيء؛ فأفضال أبيه تُغرقه.

ظل يتمايل أمامًا وخلفًا، وفي عقله ألف نقاش يدور، لن يتفوَّه بأي منه. أبي مُحق، وأنا أسرق.. سامحني يا عمي، سامحيني يا «لمياء»..

سأطلق «لمياء»، لا أستحقها..

سأطلقها فهي لا تستحقني، ولن تفهمني..

سأعتذر لأبي وسأسرقه مجددًا..

أحبك يا «لمياء»، لا تتركيني..

أنتِ طالق، كيف تصدقين ما قال أبي وتسيرين على هوى أبيكِ؟

أنت لعين يا أبي، ولن ترى وجهي مجددًا..

سامحني كي يسامحني الله.. سامحني.. عانقني.

صرخت «حنان»، صرخة صادقة ملتاعة، قفز «رامز» من مكانه على

فاغر الفم، مفتوح العينين. مات؟

ـ ماذا حدث؟

قالت «ناريمان»:

ـ أزمة قلبية.

التفتت «حنان» إليه، وقامت تُقبله وتبكي:

ـ الحمد لله يا «رامز».. الحمد لله.. سامحني يا بني.

ـ علامَ أسامحك؟ ماذا حدث؟!

ـ لقد رحل الشبح أخيرًا! سامحني يا بني، فما كنت لأسمح لشيء أن يأخذك مني.

نظر «رامز» إلى الطبق الصغير، وقرص النقرس عليه. توقع أن يجد شريط دواء القلب، توقع أن يرى حُزنًا في أعينهما لا راحة. سأل «ناريمان»:

ـ ماذا فعلتما؟ لا أفهم!

ـ ما وجب علينا فعله يا «رامز».. كل شيء انتهى.

تراجع نظر «رامز» عن المشهد، وراح صوته يبتعد تدريجيًا:

«أبي.. أنا هنا يا حبيبي، قُم.. لا تمزح! أعرف أنك تطيل الصمت كي تعاقبني.. أنا آسف.. هيا.. كلمني.. عانقني.. هكذا.. هيا.. ضمني يا أبي.. أبي.. أبي.. قل لي ماذا أفعل.. غد يا أبي وافعل بي ما تشاء».

* * *

أنا قتلتُ أبي.. أنا قتلتُ أبي وحاولت قتل «أمنية» و«ناريمان» و«بريجيت».

لو كفر مَن في الأرض جميعًا بوجود الأشباح، لكان رامز دميري هو

المؤمن الوحيد. الشقة تعود كما كانت، اللوحة ما عادت قادرة على احتواء الأشباح الغاضبة.

على انعكاس وجهه على الزجاج يرى شبحه المنتقم، ويرى شبح «أمنية» السليمة المطيعة، ويرى غضبه مجسدًا على هيئة ظل ينثر الظلام والرماد..

وكلما تأخر في الخلاص من أشباحه، ازدادت وصارت جزءًا من كيانه، لن تفنى سوى بفنائه. شبح أبيه لم يزل إلا بموته..

وقد قتل أباه من أجل نفسه، بينما قتلته أمه وأخته خوفًا عليه..

سمع صوت مفتاح يدور في القفل، ثم رأى «ناريمان»، ملابسها ملطخة بالدماء والرماد.

عدت نحوه وعانقته. بكت.. ولأول مرة في حياته عانقها. لفّ ذراعيه حولها وبكى..

الرجال يبكون، الرجال يندمون..

ثلاث طرقات..

خلال أقل من شهر، خسر كل شيء، واكتشف أنه لم يكسب شيئًا كذلك طيلة حياته. كل ما عاشه خدعة، وهم، شبح لحياة ماتت منذ زمن.

ثلاث طرقات تعني أنه موجود، وأنه قادم.

قالت «ناريمان»:

- حبيبي.. لا ألومك على أي شيء.

- أنا قتلت أبي.. أنا مَن أجسد تلك الـ«تولبا» اللعين.. أنا تجسدت أمامه وواجهته بكل ما يخاف يا «ناريمان».. أخبرتُه أننا نكرهه، وأننا لا نحتاج إليه، وأننا سنتركه وحيدًا في النهاية ونعيش كما يروق لنا بعيدًا

عن سلطته.

صمتت «ناريمان» هنيهة وهي تحدق في وجهه، ثم ضمته إلى صدرها في وجوم:

ـ لقد فعلنا ما علينا فعله.. أنت لم تقتله، قتله شيطانٌ تلبّسك من أفعاله. أنا وأمي مَن قتلناه، لننتهِ من كل هذا ونطمئن على «أمنية»، ثم سأتصل بالمحامي ليرى الإجراء القانوني بخصوص ما فعلت.

ثلاث طرقات.. تعني أنه موجود، وأنه قادم.

ـ «ناريمان».. كيف أتخلص من أشباحي؟

ـ أشباحك هي مخاوفك، جزء من خيالك.. احبسهم يا «رامز» في عقلك.. احبسهم في لوحة «بريجيت».. هيا معي.

قامت وجذبته برفق حتى جلسا إلى المائدة، ثم حملت صندوق أغراض أبيها وراحت تقلّب فيه وهي تقول:

ـ بماذا تذكّرك تلك المفكرة التي كان أبي يكتب فيها أرقام الهواتف؟

ـ «ناريمان».. أنا مَن صنعت السكين التي كادت تطعنك يوم وفاة والد «بريجيت».

ـ لا عليك.. لا عليك.. ركز معي.

ـ أنا من صنعت السكين التي طعنت كف «بريجيت»، وتسببت في جرح جبهة أمي.. كنت أكرهكم جميعًا.. أكره شجاعتكم وخوفي.

أمسكت «ناريمان» بوجهه بين كفيها وقالت:

ـ «رامز».. أتعرف أني أحبك وأسامحك؟

ثم هوى شيء على مؤخرة رأس «ناريمان» فسقطت أرضًا، ومن خلفها رأى «رامز» تولبا «أمنية».

ـ بابا.. «نانا» تكرهك، أنت تعرف هذا. تُرى ماذا قالت لها «بريجيت» عنك؟ وماذا قالت لـ«بريجيت»؟ لو تخليت عن قدراتك المُذهلة

ستنتصران عليك. هل تذكر مرة واحدة لم تضحّ بك «ناريمان» من أجل مصلحتها؟ لو شعرت بخطر منك، ماذا ستفعل؟ ستقتلك كما قتلت «جدو».

تفتح «ناريمان» عينيها بصعوبة، تقول بصوت واهن:

ـ «رامز».. أنت تعرف الحقيقة من الوهم.. هذه ليست «أمنية»..
«تولبا» أبي لم تظل تحت إمرته طيلة حياته، كلما ضعف جسده، انفلتت وصارت لها إرادة خاصة بها. الـ«تولبا» التي تصنعها أقوى من «تولبا» أبينا بكثير. أنت غاضب، حانق.. لو تركتها لصارت أقوى، وقتها لن ينفع الندم.

قالت «أمنية» والظلال السوداء تزحف من حولها وتنثر الرماد:

ـ كاذبة هي.. لو تخليت عني ستموت «أمنية»، وسترحل «ناريمان»، ومَن سيظل معك؟ لا أحد.. أنت فقدت كل شيء، وكسبت هي كل شيء.

أغمض «رامز» عينيه وصرخ:

ـ ارحلي!

وخلف عينيه المغلقتين لم يكُن سوى أرض العجائب.

«ناريمان» تشي به لأمهما.. «عادل» يعانق «ناريمان».. «حنان» تتملّق «عادل» على حسابه.. الغضب.. الخوف..

السكين تطير لتنغرس بجوار «ناريمان»..

تصرخ «ناريمان»، فيفتح «رامز» عينيه.. سكين مغروسة في كتفها، بينما «أمنية» تضحك..

ـ هذا أنت يا «رامز».. لم تغد جبانًا.. قُم وخذ بثأرك. الجميع يخشى قوتك بفضلنا. أتذكُر كيف كان الجميع يبجل أباك ويخشاه؟ كيف كان الكل عبيدًا تحت قدميه؟ هذا هو ميراث أبيك يا «رامز»، كيف ترفضه؟

الدماء تتدفق من كتف «ناريمان» وهي تحاول أن تقوم، وتمسك بالصندوق الخشبي الذي ضربها به شبح «أمنية». رفعت الصندوق وهي تصرخ من الألم، التفتت إليها «أمنية» وقالت في رقة مُدهشة:

ـ «نانا»؟

ألقت «ناريمان» الصندوق وتهاوت على الأرض تبكي. كانت تشعر بالذنب تجاه «رامز» و«أمنية»، عاجزة عن التصرُّف، عاجزة عن المساعدة.. همست:

ـ «رامز».. تخلص منهم، أرجوك.. دعك مني تمامًا، لكنهم سيقتلون «أمنية» وأنت تعرف أنهم قادرون على ذلك.. لنحرق اللوحة التي تحوي ذكرياتنا المسمومة.. ركّز معي في حرق اللوحة وانسَ كل ما فات.

قام «رامز» مُترنحًا واضعًا يديه في جيبيه وهو يقول ناظرًا نحو اللوحة وشبح «أمنية»:

ـ «ناريمان».. هذا أنا.. هذه لعنتي.. أتعرفين؟ ليس لديّ أي ذكرى جيدة أتمسك بها. لا أحقد عليكِ؛ فأنا أعرف أن تظاهر أبينا بحبه لك لم يكُن اختيارك، لكنك تملكين ذكريات عن ضحكاته، عن عناقه، عن الهدايا التي كان يُغدقها عليكِ. زوجك أحبك، وأظنه لا يزال يحبك؛ فهو لم يتزوج بعدك. أما أنا، فبداخلي ظلام دامس، عتمة تحجب جميع الحواس. أنا ميت يا «ناريمان»، وعاء فارغ مُستعد لإيواء شياطين العالم.

انحنى «رامز» وأمسك زجاجة التنر، أفرغها فوق رأسه.

صرخت «ناريمان»:

- «رامز»! أحرِق اللوحة.. أحرِق ذكرياتك! هات القداحة.. هاتها!

أشعل القداحة ولامس اللهب السائل على جسده فاشتعل..

هرعت إليه «ناريمان» ودفعته أرضًا، لكنه لم يسقط، لم يصرخ..

أغمض عينيه ورأى الظل المتجسد الأسود الذي ينثر الرماد. رأى شبح غضبه المُتفحم هو نهايته الحتمية، كأنما كانت نبوءة موته تتبعه طيلة الوقت.

صرخت «ناريمان» وهي تبحث عن غطاء كي تلقيه فوقه.. تتعثر، تنزف.. تبكي.. «رامز» يتحرك بهدوء كأنه لا يشعر بشيء، يدخل المكتب، ويغلق الباب ويجلس خلفه. النيران تلتهمه، وتبدأ في التهام محتويات المكتب شيئًا فشيئًا..

تعود «ناريمان» بغطاء ثقيل، تدفع الباب فلا تستطيع. تحطم المنضدة الصغيرة عليه لعلّه ينكسر. شبح «أمنية» ينظر حوله في شرود ويتخبّط بين الحوائط.

تجلس «ناريمان» أرضًا وسط الحطام على الناحية المُقابلة من الباب الصامد المُغلق.. تهمس:

- «رامز».. أحبك.. حتى نلتقي.

* * *

يقول «ويلارد»:

- أحكي لك تلك القصة وأريدك أن تذكّريها دومًا، من قبلنا نقلوا لنا نيرانًا، بها نحرق أنفسنا أو نعيد تشكيلها. لا يستطيع أحد الهرب من نيران متوارثة كاللعنة.

* * *

الدقي - الجيزة

٩ يونيو ٢٠١٩م

شقة الطابق الأرضي من البناية تحمل لافتة: مؤسسة أبناء الزهور لدعم ضحايا العنف الأسري.

تقيم «بريجيت» حفل عيد مولدها التاسع والأربعين وسط أحبائها مِمَّن لجؤوا إلى المؤسسة للعلاج والدعم. حولها لوحات الضحايا التي رسموها في رحلة تعافيهم، واللوحات التي صنعتها بنفسها لنفسها، حيث بثت الحياة في الأغصان الخشبية الجافة بالألوان الصريحة المُبهجة. في صدر الصالة، كانت لوحة أبيها التي رسمها له «توماسينو».

تصعد «بريجيت» لتساعد «آمنية» على استكمال هندامها. كانت

لا تزال خلال رحلة علاجها من السرطان، لكنها كانت مُشرقة، ترتدي فستانًا زهريًا، تمسك بيدها اليسرى يد «بريجيت»، وباليمنى يد «ناريمان».

تهبط إلى الحفل، تضحك، تحتفل وتأكل كعك البرتقال الذي تصنعه «بريجيت»، ثم تجلس بجوار الأطفال تقرأ لهم رواية تحبها، بصوتها الرقيق الذي يحمل أمل المستقبل.

تشعر بالألم، بالوهن، وتشعر بالمحبة وبأنها محاطة بمن يحبونها ويتمنون لها البقاء معهم للأبد.

بعد وفاة «رامز»، سلَّمت «ناريمان» نفسها للشرطة، وكُتب محضر بالواقعة، ثم عُرضت على النيابة. حصلت في النهاية على حكم بسقوط القضية بالتقادم، وأفرِج عنها لتعود إلى شقتها بالدقي، وتعيد طلاءها مع «آمنية» و«بريجيت»، وترمم لوحات «توماسينو» المبهجة على الجدران، وتغلق مكتب أبيها للأبد بما فيه من أشباح الماضي.

الشقتان صارتا ملجأ ومنزلا وأمانًا لكل من يحتاج، تُخلق فيهما ذكريات سعيدة تُمحى بها آلام الضعفاء.

كرّست «ناريمان» حياتها لخدمة الضحايا ومساعدتهم، واستضافت دكتور «ويلارد» مرتين ليعمّ على الأطفال فيضُ أبوته الغامر وحكاياته التي تدفئ القلوب الراجفة.

صارت «بريجيت» أمًّا بديلة لكل من يحتاج إلى أمومتها، تُخرج العذاب الدفين من الأرواح وتحبسه في لوحات ملونة تقف صامدة، ساخرة من كل أشباح الماضي.

يصدح بجوارها دومًا صوت فريق «مي تو» من الكاسيت تحت صورة أبيها:

«أومن بالجنة والسماوات..

وبأن الألوان ستمتزج لتصير لونًا واحدًا..

لكنني ما زلتُ أركض..

كسرتَ قيودي، وحررتني مِمَّا يُكبّلني..

وحملت عني آثامي، وتعلم أنني أومن بك».

***

ولأول مرة منذ وعت «ناريمان» الحياة، تنام في سلام كل ليلة..

ترى في أحلامها أرض العجائب، حيث «رامز» طفل، يلهو ويلعب ويضحك.

كان عالمًا يخلو من أي شيء سوى الحب والأمان اللذين لم يشعرا بهما من قبل.

كم تسع حياة واحدة من أحلام؟ تسع كثيرًا؛ فالمرء يحيا ويموت

ويحيا كل يوم، وفي كل يوم بعث وفرصة للخلود في الفردوس.

تضم «ناريمان» «رامز» الصغير والشمس تغمرهما بأشعتها الذهبية وتهمس في أذنه:

ـ «رامز»، لسنا مثاليين، لا تحكم عليَّ ولا تكرهني، ولن أحكم عليك أو أكرهك. لكننا سنحيا مجددًا معك، فالموت مجرد فرصة أخرى للحياة.

* * *

تمت

يناير ٢٠٢١